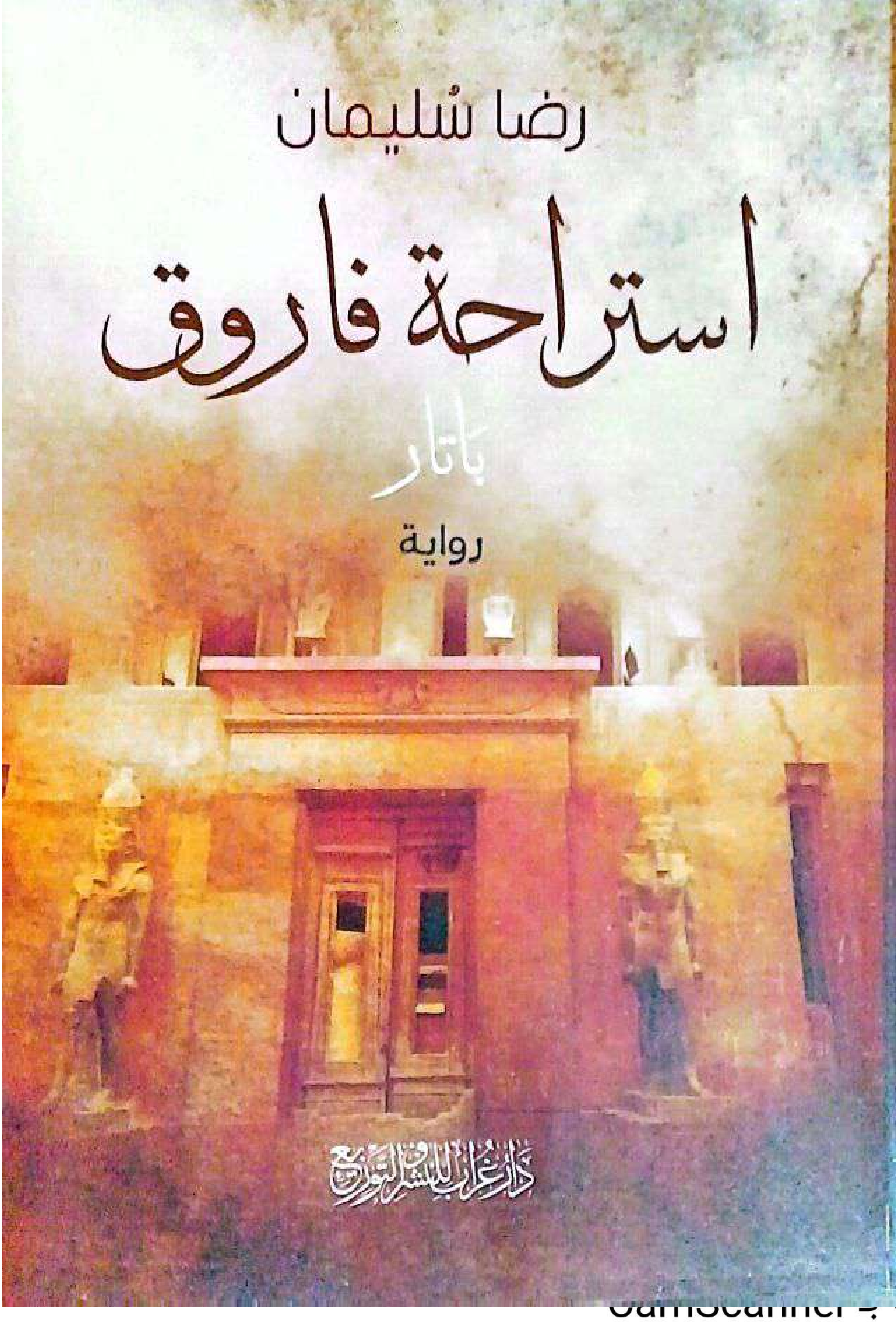
رضا سليمان
استراحة فاروق
باتار
رواية
دار غراب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠٢١/١٥٤٣٤

بطاقة فهرسة

سُليمان، رضا

استراحة فاروق (بَاتار) : رواية/ رضا سُليمان ط١ -

القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠٢١

٣١٠ صفحة؛ ١٤ X ٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-٢٥٩-٢

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣,٦

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

تدقيق لغوي

خالد رجب

التنسيق الداخلي

سالي شاهين

CamScanner

استراحة فاروق

بَاتار

رواية

رضا سُليمان

دار غراب للنشر والتوزيع

ـا بـ CamScanner

إهـــــداء

إلى أرواح ما تزال تحوم حولنا

تشاهد في سخرية

كيف كانوا.. وكيف نحن؟!

رضا سُليمان

CamScanner ـا بـ

با CamScanner

تعويذة الخلاص

يا آمون الحي.. يا إله هذا الزمان.. دعني أرحل في سلام.. فأنا لا أنتمي إلى هذا المكان.. أرضكم المقدسة لم تعد مقدسة.. ضاع بينكم الشريف، وجلس الخبيث على بوابات القدر.. لا أعلم يا آمون لِمَ تترك كل هذا يحدث.. كيف يُثاب سارق، وتُكرم لعوب؟! كيف تترك مَن يحبك بلا سند ولا قوة يا آمون الحي؟! دعني أرحل في سلام ولا تعاقبني بعد كل ما عِشتُه من عذابات وآلام.. يكفي القهر الذي يسكن قلوب الأنقياء وضحكات اللصوص وقد أصبحوا سادة تتردد في الآفاق، يكفي ما يعيشه الأنقياء في ذُلِّ الفقر. يا آمون الحي، يا خالق الضِّباع.. أنت خالقهم وتاركهم لينهشوا لحم الأنقياء.. لن نُصارع ضباع غابتك.. لن يتحول النقي التي إلى ضبع. كيف الحياة على أرض بين ضباع وأنقياء؟! هل نقضي أعمارنا في الهروب أم نتحول إلى ضباع ونقاتل؟! لا يا آمون الحي.. لن يتحول النقي إلى ضبع.. أتحدث إليك بصوت كل الأنقياء.. دعنا نرحل في سلام، ولا تُشمت فينا ضباعك التي خلقتها لتسمن على لحومنا، وتنشر البغي باسم الحق.. طال الذل، ولم تمد يدك إلينا، فدعنا نرحل كما أتينا.

لا يا آمونُ الحيّ.. لا تدعنا نرحل ضعفاء مقهورين، لا تجعلهم المنتصرين.. أنقذنا من أنياب الضباع.. انشر الحق.. لتنثر قوتك على الأنقياء لينتصروا على ضباعك القذرة. أعلمُ أنَّك تكره الضباع وتحب الأنقياء، فلتُنزِل صواعق عدلك لتشق قلوبًا سوداء، وترتقي بقلوب هي أخف من ريشة ميزان العدل. خلِّصنا يا آمونُ الحي إما بالرحيل وإما بالانتصار.

انتهت تعويذة الخلاص.

تعويذة خرجت من بين حنايا قلب مقهور يبتغي العدل، ولا يرغب في عِراكٍ قذر. كتبها أبو المعتصم بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان بن حمدان بن الإمام، المولود في الثامن من مسرى من العام الثامن عشر بعد ستة آلاف ومائتين. طيب الإله ذكره، وعطَّر لسانه، ومدَّ سيرته سرمديًا.

CamScanner ـب

(١)

المُوميَا(١)

تتردد كلمات تعويذة الخلاص بوضوح ونقاء، حتى إنها تعانق السماء الزرقاء، وتتمدد على صفحات البحار والمحيطات قبل أن تجتمع حروف كلماتها على هيئة يدٍ عملاقة تقترب في سرعة عُقاب فَتِيٍّ. أُطلق صرخة مدوية، وأنا أضربُ تلك اليد الشرسة التي تُطبق على رقبتي، لحظة واحدة، إن لم أستجمع فيها قُدرتي على المقاومة، إن لم تتمدد بداخلي غريزة البقاء، لفارقتُ الحياة.

استجمعتُ كل طاقتي ورغبتي الغريزية في الاستمرار، استجمعتُ أحلامي التي تناثرت أشلاؤها بين ثنايا أيام القهر، أطبقتُ قبضتيّ، وفي عنف هيستيري ضربتُ تلك اليد وأنا أُطلق تلك الصرخة، صرخة البقاء.. صرخة العودة إلى الحياة. تألمتُ بشدة.. هل استجاب آمون للجزء الأول من تعويذة الخلاص ووافق على رحيل رسول الأنقياء، فحوَّل التعويذة إلى

---

(١) المُوميَا أو المومياء: الجُثَّةُ المحنَّطة في قبور المصريّين القدماء (معجم اللغة العربية المعاصرة).

* في هذه الرواية سوف تُستخدم الأسماء المصرية القديمة التي لم تتغير. أما تلك التي تبدلت على مر السنين مثل أسماء المدن أو ألقاب اشتُهر بها الحكام في أزمان لاحقة، فسوف نستعمل المتداول منها للتبسيط والتوضيح.

يدٍ تُنفِّذ حكم الإعدام؟! لماذا لم يستجب للشق الأخير من التعويذة وينفذ حكم الإعدام في الضباع ليعيش الأنقياء في سلام أبدي؟!

لكني هزمتُ اليد، وعدتُ إلى الحياة بعد لحظات شعرتُ فيها بأني راحل، ولكن ليس في سلام.. كنتُ أشعر بأني مفارق، ذلك الشعور الذي لن تصدق ولو لحظة واحدة أنه خيال أو حلم، هو حقيقي حتى اليقين، لكنك فجأة تستيقظ فتجد نفسك على سريرك.. في غرفتك.. تتأمل جدرانها.. ملابسك الملقاة في جانب.. تتأمل كتابًا مفتوحًا ملقًى على بطنه عند حافة السرير، وقد تكرمشت بعض ورقاته.. تتأمل كوبًا يحتوي على بقايا الشاي بجوار فنجان تكلست بقايا القهوة في قاعه.. تتخلل أنفك رائحة حجرتك التي تتعرف عليها مثل كلب بوليسي من بين ألف رائحة.. لكنك، رغم هذا اليقين بأنك على سريرك وفي قلب غرفتك، ما زلتَ تلهث رعبًا.. ما يزال داخلك منقبضًا، تتمنى لو تبكي.. لو تنتفض.. تعجز عن البكاء فيتزايد انقباضك.. تلتقط كوب ماء غير ممتلئ كي ترتشف قطراته، فتشعر بها عطنة، لا تتذكر منذ متى يقبع هذا الكوب إلى جوارك، فتعيده إلى مكانه، ولن تعلم متى ترفعه.

تعود إلى الواقع، وتدرك أن ما كنتَ تعيشه منذ لحظات ما هو إلا حلم أو كابوس أو سَمِه ما شئت، لقد انتهى، وأنت الآن تعيش حياتك الحقيقية، فلماذا الانقباض الذي تشعر به؟ لماذا التوتر والقلق؟ لماذا تجهُّم الوجه؟!

CamScanner

أتحدثُ إلى نفسي بهذه التساؤلات وأنا أغادر سريري، أتخيل القلق الذي ينتابني الآن وهو لصيق بي طوال اليوم، مؤكد هو يوم كئيب! أمطُّ شفتيَّ ساخرًا، وأي يوم قبله لم يكن كئيبًا، أيامي ثقيلة، لزجة، متشابهة إلى حد جعلني أبغضها وأتألم بسببها، وجودي الذي أُجبرتُ عليه.

قبل أن أُغادر الغرفة إلى الحمام بشكل غريزي، أواجه نفسي في المرآة.. أتحسس رقبتي التي كادت تُهرس منذ لحظات.. أشعر بألم حقيقي بها.. تتجسد على ملامحي، بجوار ملامح الضيق علامات الألم.. أهزُّ رأسي في محاولة لإقناعي بأن ذاك نوع من الإيحاء.. لكن الألم حقيقي ويتزايد مع التفكير فيه!

أمر غريب حقًّا! كم من أحلام رهيبة مررتُ بها.. لكنها لم تترك ألمًا مثل هذا! تحركتُ صوب النافذة، أبعدتُ الستارة ذات اللون الأحمر القاني عنها، أتأمل الشارع الذي يبعد عني في العمق قدر سبعة طوابق، لا أشاهد حركة البشر والسيارات، لا تلفت انتباهي الحركة في الشرفات المواجهة.. لا تجذبني شمس الصباح المتهادية.. تفكيري كله حول تلك اليد القوية التي كانت تعتصر رقبتي منذ دقائق.. أتأمل اللاشيء أمامي.. أُدقِّق النظر.. هناك.. في القلب الحلم أو الكابوس.. خلف تلك اليد.. جسد ضخم لكنه غير واضح المعالم.. لا.. إنه جسد مغطى.. بأسمال؟! ربما! لكن لِمَ يغطي وجهه بالأسمال نفسها؟! أتأمله أكثر وأكثر.. أوه.. إنه لا يغطي جسده بأسمال..

يا بـ CamScanner

إنها **مُوميا**.. تتأملني في غضبٍ ولوم.

أضحك.. الآن وضحت لي الصورة تقريبًا.. حياتي العلمية تسيطر على تفكيري وتحتل عقلي الباطن.. أمط شفتيّ وأترك النافذة التي ما رأيت عبرها شيئًا، أتحرك لأغادر الغرفة، أُلقي نظرة إلى المرآة لأشاهد ضحكتي وهل تغير الانقباض أم أن ضحكتي كانت زائفة.. لكن كانت هناك مفاجأة رهيبة في انتظاري، في المرآة لم أشاهد انعكاس صورتي على صفحتها. إنما شاهدتُ **المُوميا** نفسها.

****

CamScanner

(٢)

أيمن فاروق

شهرتي بين أصدقائي «**فاروق**».

«**فاروق**».. لأن تلك موضة تنتشر بين الأصدقاء أن يُنادى الفرد بلقب عائلته، ولا أعلم من أي منطلق ظهرت تلك التقليعة؟! لكنها كغيرها من التقاليع والبدع تظهر وتستمر وتتلاشى بلا مبرر، كأن الفرد يبحث عما يشغل تفكيره واهتماماته، وإن كان ترهات، أو قد تكون هناك جهات معينة تقف خلف مثل هذه الترهات التي تشغل الفكر باستمرار.. جهات تقود دفة الفكر إلى التفاهة والسطحية فتشغله بتقليعات مختلفة في الملبس والمأكل وعالم النجوم، تهتم أكثر بتصعيد أقزام الفن ومدعيه إلى أعلى مكانة، وتتجاهل أصحاب الفكر والجهد في مختلف الأمور! أحقيقي هذا؟! أتساءل في داخلي ولا أجد إجابة شافية لهذا السؤال. قد لا تكون لأفكاري أي أساس من الصحة.. لأنها ببساطة قد تكون أفكار المقهور الذي يُلقي اللائمة على الآخر والظروف والأيام بشكل مستمر، وقد تكون نابعة من أصل موجود.. لا أعلم.. أزفر وأمسك تلك الأفكار بخِرقة وألقيها من رأسي في أقرب بالوعة.

«**فاروق**» لأن هناك نسبة كبيرة من ملامحي تُطابق صورة الملك «**فاروق**» آخر أبناء أسرة «محمد علي» الذين حكموا مصر حتى تنازُله

CamScanner

عن العرش بخطاب رسمي في اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو من عام ألف وتسعمئة واثنين وخمسين من قصر **رأس التين** بمدينة الإسكندرية، وكان نَصُّ الخطاب:

«نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان.. لما كنا نتطلب الخير دائمًا لأمتنا، ونبتغي سعادتها ورُقيها، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة، ونزولًا على إرادة الشعب، قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد، وأعهدنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه».

وغادر في مساء اليوم نفسه، الساعة السادسة والثُلث، على ظهر يخت **المحروسة** هو وعائلته، وكان في وداعه أعضاء حركة الضباط الأحرار وإحدى وعشرون طلقة مدفعيّة مثل التي تُطلق حتى اليوم في الجنازات العسكرية.

هذا هو الملك فاروق الذي أُشبهه.. لكني ما نلتُ جزءًا واحدًا مما ناله من حظ.. حظيتُ فقط بما حدث له من عزل، أنا شخص **معزول** بالفعل عن العالم، الحقيقة أنا مَن اخترتُ تلك العزلة، لقد صُدِمت بالواقع حتى فُصِمَت عُرَى الثقة بيننا.

CamScanner ـب

منذ أنهيتُ دراستي، في قسم «**الآثار المصرية القديمة**» بكلية الآثار، جامعة القاهرة، وأنا أعاني بل أتقبّل صفعات لم أكن أتخيل ذات يوم أني متلقيها.

ليس بمقدور أحدنا اختيار **العصر** الذي يولد فيه.. أو اختيار **الأسرة** التي ينشأ بين أفرادها.. أو حتى اختيار الديانة التي يولد عليها، وإن كانت الروح تمتلك القدرة على الترحال إلى أي زمن، والطواف في أي مكان لاعتناق الديانة التي تشعر بنفسها بين أطيافها، الاختيار في يد الآباء، هم الذين يقررون.. هم مَن يمتلكون تقرير مصير الأبناء.. فهذا رجل فقير جاهل أيًا كان لونه أو ديانته، يأتي إلى الكون بنصف دستة أولاد أو يزيد.. يختار لهم نفسه أبًا، وقدوةً، ومعلمًا.. ماذا ينتظر لهم؟!

وهذا أب مثقف، وثالث ثري، كل فرد يختار - دون تدبير مسبق - لابنه البيئة التي سينمو في كنفها، لذا لم أفكر حتى اليوم في الإقبال على تلك الحياة الأسرية الزائفة التي نُوهم أنفسنا بأنها الغاية التي خُلقنا من أجلها.. حيث تجد الهمّ الأول هو أن ننتهي من الدراسة.. نبحث عن عمل، أي عمل!، نتزوج.. ننجب أبناءً، نظل ندور في ساقية الحياة (مثل ثور مغطاة عيناه، فيظل مُسيرًا بالخوف من سوط سوف يُلهب ظهره إن هو توقف، والمأساة أنه أحيانًا لا أحد خلفه ولا سوط) حتى نفيق فإذا بأعمارنا ذهبت سُدًى، والنتيجة أننا أتينا إلى هذا العالم بأبناء نزيد بهم الكارثة الكونية.

CamScanner

مشروع «**صناعة إنسان**» هو من أعظم المشروعات وأهمها التي لا يجب أن يُقيمها الجهلاء.. فأنت مسؤول باستمرار عن أنك أتيت بهذا الإنسان قبل أن تكون مؤهلًا لجعله ذلك الشخص الذي يعيش كما يجب أن تكون الحياة، وإلا فلا تظلمه وتأتي به إلى هنا.. إلى تلك الحياة، الخدعة الكبرى.

تلك أمور أقتنع بها في داخلي، ولم أصرح بها لأحد؛ لأنني ببساطة لا أحب الجدال.

ومما كان من استكمال لحالة الإجبار التي أعيشها منذ أتيتُ إلى هذا العالم أن أنهيتُ دراستي في العام التالي لأحداث مهمة مرت على البلاد، أحداث الخامس والعشرين من يناير من عام ألفين وأحد عشر، تلك الأحداث التي وصفها فريق من العالم بأنها **ثورة عظيمة** لشعب عظيم، بينما وصفها فريق بأنها **انقلاب** على شرعية الحاكم، وفريق ثالث قال عنها إنها مجرد **انتفاضة** أناس يرغبون فقط في التعبير عن داخلهم الملتهب.. أناس أتوا إلى هذا العالم ليعيشوا في قهر، فما إن واتتهم فرصة الرفض والانتفاض حتى تمددوا؛ فلفظوا مَن يتربعون على أبواب النعيم أملًا في الدخول لاغتراف بعضه.. لكن هيهات.. فكما أُجبِروا على الولوج إلى هذا العالم كعبيد فسوف يعيشون حتى النهاية كالعبيد.

إنها بطاقات تعارف منذ لحظة الولوج الأولى تلتصق بالشخص كما يلتصق به اسمه الذي اختاره له غيره.. قد تكون علامة غير مرئية ملتصقة

على الجبهة.. قد يتمرد عليها البعض، لكنه تمرد كاذب.. ظاهري.. بداخله هو **عبد**.. وإن كان فقط مجرد عبد لأطماع يعلم جيدًا أنه يفقد الكثير من أجل تحقيقها.

انتفضوا نعم، لكنهم لم يغترفوا من النعيم الذي كانوا يحلمون به.. إنما فقط شاهدوه بالقرب فزادت حسرتهم، زاد قهرهم، تنبت لهم مخالب.. يكشرون عن أنياب نبتت حديثًا.

تنتشر الجريمة بعد تلك الأحداث وتتلاشى حالة الأمان الوهمية التي كانت سائدة، هي لم تكن حالة أمان بقدر ما كانت حالة خنوع وضعف وقهر.. وحينما ثار البحر لفظ ما في أعماقه من رواسب كانت تحوي ركامًا وقاذورات.

توقفتْ حركة السياحة في البلاد، ضاع حلمي.. بل ضاع حلمنا.. نحن خريجي كليات الآثار في مصر، كل عام نتخطى رقم سبعة آلاف خريج.. كانت السياحة ملجأ معظمنا.. سوق عمل فضفاض، وأقل مجهود فيه يضمن لصاحبه معيشة معتدلة في هذا البلد، توقفت السياحة كي تحتوينا غرف مظلمة كظلمة القبور.

لم تتلاشَ الأحلام التي ترعرعت بداخلي على مدى سنوات، بين عشية وضحاها.. كان هناك أمل في عودة الاستقرار، ومن ثَمَّ عودة حركة السياحة كي نجد للتعايش سبيلًا.. لكن الأمل يأخذ في التقلص والانكماش مع مرور

CamScanner ب

الأيام التي يتزايد فيها عدد أقراني أضعافًا، يتراكمون كل عام كالأمراض والمصائب التي يجذب بعضها بعضًا، حتى ينعدم الأمل لأنه - وبمنتهى البساطة - إن عاد الأمان الوهمي وعادت معه بعض الرحلات السياحية فلن يتركها لنا سوق العمل الموجود من قبل والمتعطش حاليًا، لن يتركها لنا الزملاء من أبناء **صفوة المجال أو أباطرته**، الذين زاد عددهم مع ظهور طبقة جديدة من الأثرياء، طبقة نبتت مثل سرطان في جسد المجتمع، لا أحد يعلم من أين أتت ولا كيف بلغت هذا المبلغ من الثراء الفاحش، فما حدث أننا كنا أرضًا تتوسط العالم مثل فتاة رائعة الحسن سقط عنها ثوبها لتقف عارية وسط سوق مزدحمة بالرعاع والسادة، ولجوها كيفما اتفق.. (أطلق لنفسك العنان في تصور كيفية الولوج).. فكان أن ظهرت تلك الفئة حديثة الصنع من الأثرياء الجدد، وكأننا كنا في حاجة إلى قوى جديدة تُزيد قهرنا كي نترك تلك الأظفار تنبت لتنهش ما تبقى من لحمنا.

ينتهي تمامًا حلم العمل في مجال السياحة، وإن كنتُ قد بحثتُ عشرات المرات كي أثبت لأسرتي أني ما ادخرتُ جهدًا في البحث داخل مجتمع يلفظني منذ أتيته. فأنا مشروع إنسان فاشل أقامه والدان دون ترتيب مسبق، دون دراسة جدوى كاملة.. الإنسان «**الشخص، الفرد**» مثل أي مشروع يحتاج إلى رأس مال، دراسة جدوى، يجب دراسة الإمكانات المتاحة، سوق العمل، عمليات التسويق.. وفي النهاية نسبة الأرباح المنتظرة بشكل مؤكد.. فهل أقام أحد من أبناء هذا المجتمع أي دراسة لإنجاب شخص جديد يأتي به إلى هذا العالم؟! الإجابة بالطبع «لا».. وكأن الإنجاب

غاية.. نهاية أزمة.. «**تزوج يا هذا وأنجب الأولاد..**» يا لها من كارثة! يتزوج لينجب.. أيها المجتمع المُغيب.. لا تُنجب مشروعًا فاشلًا.. لا تنجب إلا إذا ضمنت لمشروعك النجاح.. إلا إذا امتلكتَ مقومات النجاح!

في نهاية المطاف يقنعني والدي - بما أنه لا توجد فرصة عمل مناسبة- باستكمال دراساتي العليا، ولم يفصح عما يدور بداخله، ولكني قرأتُ على ملامحه كلمات تقول: «لعل وعسى تجد فرصة مناسبة إذا حصلت على الدكتوراه» ويدور أبي في ساقية الحياة، التي تتثاقل مع الزمن لتآكل تروسها وصدأ يعتريها، كي يوفر لي مصروفات معيشتي ودراستي.

أجد في البحث والدراسة فرصة مناسبة لتنفيس بعض من المكبوت بداخلي، أجدها فرصة لتمضية الوقت المتبقي لي في هذه الحياة التي لا تريد أن تفصح عن: لماذا أتيتُ إليها؟ لماذا تلقتني إذا كنتُ لن أفيد في شيء؟!

يستحيل أن يكون وجودي مجرد عدد يُضاف إلى البشرية، ثم يُطرح منها يوم وفاتي فقط! لا بد من سبب ما أتيتُ من أجله.. ولن أبرح حتى أحققه. ما هو؟ ومتى؟ وكيف؟ وأين؟! لا أمتلك إجابة، عليَّ الانتظار، لا سبيل لديَّ لإحداث تغيير أو مواجهة **الصمت الكوني** غير الانتظار صاغرًا، فنحن الضعفاء.. **العبيد**.. الذين أتينا بلا دراسة جدوى.. لا نمتلك غير الانتظار.

CamScanner

الحصيف منا هو مَن ينتظر مترقبًا دون أن يُتلف حياته لتعجُّله. لي زملاء أعرفهم تعجلوا ولم ينتظروا، يبتسمون حينما أقابلهم برفقة زوجاتهم ومعهم أطفالهم، كأنهم يخبرونني بتلك الابتسامة أنهم نجحوا في حياتهم، لا أرغب - بطبيعة الحال - أن أنقل إليهم ما أقتنع به وأحتفظ به لنفسي، أدعهم يمرون، عبر برزخ الاستقرار والهناءة بتكوين أسرة، إلى مفاجأة نهاية الرحلة ليجدوا أنفسهم خاوية أياديهم إلا من وهمٍ عاشوه، معتقدين سعادةً زائفة.

أنهيتُ الماجستير وسجلت موضوع الدكتوراه.. كان أمامي عشرات الموضوعات، الحضارة المصرية القديمة تحتوي على عشرات.. بل على مئات الموضوعات التي تصلح لأن تكون رسائل علمية وأطروحات عالمية، أعلم ذلك ومؤمن به إلى أقصى درجة، ولو أن ما نمتلكه من آثار مملوك لشعب آخر غيرنا لاختلف الأمر تمامًا، وتغيرت أحوال مالك تلك الكنوز الأثرية إلى استقرار حقيقي ورفاهية تقدس قيمة الإنسان وتضعه في مكانه الطبيعي من حيث الاحتفاء والتكريم.

تركتُ مختلف الموضوعات، واخترت موضوعًا واحدًا كاد يثنيني عنه الأستاذ المشرف على الرسالة، موضوع رسالتي هو «**العمال المستعبدون في مصر القديمة**». أما لماذا رَغِبَ الأستاذ المشرف أن يثنيني عن اختيار هذا الموضوع؟ ذلك لأنه واحد من أبناء تلك الطائفة.

CamScanner

فهناك طائفة من أبناء مجتمعنا (وأنا أفضِّل أن أطلق عليهم طائفة، والطائفة في المعجم هي جماعة من الناس، وفي علم الأحياء هي وحدة تصنيفية كالحشرات من الحيوانات) يتعاملون مع أنفسهم معاملة العبيد، إنهم باستمرار يخشون بطش السادة، يبحثون عن إرضائهم إلى أقصى درجة قد لا يصل إليها خيال السادة أنفسهم وإن جمح، كل حركة وكل فعل.. بل كل فكرة ترد على خاطرهم، يجب أن يمرروها (في عقولهم) على سادتهم.. فإن وجدوا هذا الفعل قد يُرضي سادتهم فعلوه بمنتهى الخضوع والسعادة، وإن كان قد يغضبهم لفظوه بسرعة وحسم. كل ما في حياة أفراد تلك الطائفة من العبيد - حتى وإن كانت رغبة في اختيار ملابس معينة أو طعام ما - يجب أن يتفق مع رغبات سادتهم.

فكان اختيار عنوان بحثي هذا من شأنه إثارة أحد أفراد تلك الطائفة التي تتكاثر وتتوالد لتستمر على مدار التاريخ، وهو للأسف الأستاذ المشرف على رسالتي. لم أكن أمتلك رفاهية الاختيار، لكني في النهاية استطعتُ إقناعه بموضوع رسالتي؛ لأنني أنتوي إظهار الحقيقة خلف ما يُثار عن العبودية، وأنه محض افتراء على حضارتنا العظيمة، أخبرته بذلك ولن أفعله.. فمع المضي في رسالتي لن يستطيع أن يمنعني من كتابة تفاصيل بعينها ما دمتُ أمتلك البرهان.. أعلم أن موقفه المتشدد مجرد حماسة البدايات وشجاعة مقيتة تتلاشى مع الأيام.

يا بـ CamScanner

التاريخ يكتبه الأقوياء.. ونحن رجال التاريخ، وأظن أنني أصبحت منهم بحكم استمراري في الدراسة، نعلم جيدًا أن لا تاريخ يُكتب ليُظهر جوانب ضعف السادة.

«**العمال والكتبة**» مستعبدون.. يكتبون ما يُملى عليهم.. وإن ظهر مَن يكتب حقيقة ما لمصداقية لديه أو لعداوة مع خصم.. نجد أن معظم تلك النقوش قد مُحيت وتهشمت مع الزمن، فلن تحفظ جدر المعابد هزائم الأجداد الذين تقدست أرواحهم وصعدت إلى مراتب الآلهة.

أظنك الآن تعلم لِمَ ابتسمت حينما شاهدتُ في ذلك الحلم **مُوميا** خلف اليد القوية التي تُطبق على رقبتي. فأنا باحث في تاريخ مصر القديم. حتى والدي ذات يوم أظهر دهشته بموضوع رسالتي وهو يمط شفتيه متسائلًا: «لماذا العمال المستعبدون في مصر القديمة؟» وكان اعتراض والدي لصعوبة الموضوع الذي يحتاج إلى الكثير من البحث والدرس، لكني أقنعته بضرورة أن يضيف الباحث إلى الموجود وألا يكون مجرد ناقل فقط من بين العديد من المراجع.

السبب الرئيس في اختياري هذا الموضوع كان ذلك النص الذي عثرتُ عليه في أحد المراجع الأثرية وهو ترجمة لعقود بيع، عنوان أحدها «**عقد بيع عبد**»، وكان منطوق العقد كما يلي:

CamScanner

«في السنة الحادية والثلاثين، في اليوم الثاني عشر من شهر بؤونة من عهد الملك بسمتيك، باعت سيدة تُدعى شنزي ابنة زيا منف عنخ.. باعت رجلًا من أهل الشمال «عبدًا» بمبلغ سبع دبنات».

ثم يأتي في نهاية العقد قَسم اليمين، واسم الكاتب، وتوقيع ستة من الشهود على العقد. ويدل منطوق هذا العقد، واثنان آخران من العقود التي عثرتُ عليها، على أنها عقود بيع كان فيها المواطن يُعتبر كالماشية.

عثرتُ على عقود بيع أخرى كانت مثيرة للدرجة التي تحرك مشاعري لاختيار هذا الموضوع وهي **«عقود العبودية»** التي كان يبيع فيها العبد نفسه، هو بيع ذاتي.. بيع في ظاهره اختياري يدل على وجود حرية الإرادة لدى الشخص، لكنه يفعل ذلك مجبرًا لأنه مُدان، ولم يتمكن من تسديد دينه، فيبيع نفسه لصاحب الدين، ويا لها من مأساة حينما نعلم أنه كان يبيع نفسه إلى جانب أطفاله وزوجته وكل ما لديه من ممتلكات مهما تكن قيمتها! كل شيء يؤول إلى الدائن. يلي ذلك نوع آخر من العبودية حينما باع عدد من القرويين أنفسهم من أجل الغذاء والمأوى. تبحرتُ في ذلك فوجدتُ الكثير من الأمور الرهيبة.

* * * *

CamScanner

(٣)

المرصد

السحب الرمادية تغطي السماء، ومن بين ثقوبها القليلة تتسلل أشعة الشمس لتغطي الهرم الأكبر، أشاهده شامخًا على مقربة من مكاني وأنا أتجول بين المقابر القريبة، مع هذه الحركة أشعر بالدفء يسري في جسدي، يتزايد نشاطي مقارنة بذلك الخمول الذي تملكني مع بداية اليوم، خاصة بعد ما حدث صباح اليوم.. المرآة.. في غرفة نومي.. لم أشاهد انعكاس صورتي عليها، إنما شاهدتُ **المُوميا** تقف في مواجهتي، لم يستمر الأمر أكثر من لحظات تختفي بعدها وتعود صورتي إلى المرآة، مؤكد هي خيالات مرتبطة بعدم اليقظة الكاملة، لكنها كانت أقرب إلى الحقيقة بشكل ترك بداخلي رهبة يقشعر على إثرها جسدي.

معظم يومي أمضيه في البحث والدراسة ما بين المراجع العلمية والبحث على شبكة الإنترنت، الخروج إلى المكتبات المتخصصة أو مكتبات الكلية أو الجامعة.. وأحيانًا أذهبُ إلى أماكن أثرية موجودة في المحيط الجغرافي القريب من مسكني.. منطقة سقارة.. والأهرامات.. أو المتحف الذي يحوي آلاف القطع الأثرية، وخلف كل قطعة قصة طويلة، وأفكار

ا بـ CamScanner

ومعتقدات مثيرة.

أملأ صدري بالهواء البارد.. أشعر بكمٍّ كبير من الطاقة كلما اقتربتُ من الهرم الأكبر، تغوص قدمايَ في الرمال حتى أصل إلى الطريق الأسفلتي الذي يتلوى بين الأهرامات، أصعده وتتسارع أنفاسي تاركًا خلفي تمثال «**أبي الهول**» بجسده الهائل على شكل أسد ورأس الملك **خفرع**، يتأمل شروق الشمس كل صباح، أمر مثير للفكر أن يكون وجه التمثال المنحوت بهذا الحجم الهائل في تلك المنطقة منذ آلاف السنين موجَّهًا ناحية مطلع الشمس بهذه الدقة!

لم يعد يتملكني العجب بعد كل ما علمته من أسرار عن تلك الحقبة، أسرار يعلمها المتخصصون ولا يصرحون بها إلى العامة، الغموض يزيد من روعة أي شيء ورهبته.. وإن كان هناك بالطبع الكثير من عجائب الماضي ما يزال خفيًّا، ولا أعرف لماذا أشعر بأن أرواح الماضي لن تتركني حتى تُلقي إليَّ بعضًا من خفاياها.

أترك الطريق وأعبر ممرًّا ضيقًا ناحية اليمين، أقف لحظات ناظرًا ناحية اليسار إلى مبنى **مركب الشمس** المحفوظ داخل ذلك الهيكل الحديث، أتحرك إلى الأمام قليلًا ثم أنعطف يمينًا ناحية مقبرة الملكة «**حُتِبْ حِرِس**»، والدة الملك «**خوفو**» وهي الشهيرة في المراجع بزوجة الملك **سنفرو**، تلك المقبرة التي اكتشفها الأمريكي جورج رايسنر عام ١٩٢٥م مصادفةً، حينما

كان أحد رجاله يُثبت قوائم إحدى كاميرات التصوير لمتابعة التنقيب والبحث في منطقة الأهرامات، فإذا بطرف أحد قوائم الكاميرا يسقط في تجويف صخري، وحينما حاولوا نزعه تبين لهم شقٌّ كبير كشف عن مدخل هذه المقبرة، والمصادفات تصنع للبعض أمجادًا لم يحلموا بها يومًا.

بعد عدة خطوات ألقيتُ التحية على موظف جالس أمام باب المقبرة، يقابلني هاشًا باشًا، أعلم أنه ينتظر نفحة مالية كعادتهم في تلك المنطقة، شيء مقزز لم يتغير منذ سنوات رغم الشكوى المتكررة من السائحين. أهبطُ درجات السلم داخل المقبرة في عمق الأرض مسافة ٢٧ مترًا تنتهي بحجرة دفن الملكة، الغرفة واسعة منحوتة في الصخر، خالية صماء، أجلس.. أتنفس بهدوء.. المكان هادئ جدًا.. لا أحد غيري بداخل المقبرة، عدد زوار المنطقة قليل رغم أن الشتاء في مصر هو موسم السياحة، أرهف السمع.. وسوسات وهمس آلاف السنين أشعر به في أذني .. خدر لطيف يسري في جسدي، أتثاءب وأنا أخفي فمي بيدي، أتأمل الجدران الصخرية للغرفة، منحوتة بهذا الاتساع في ذلك العمق تحت الأرض، صخور من صلابتها توحي باستحالة نحتها، لكنهم فعلوها!

أرتكن بظهري قليلًا إلى الجدار الصخري، جاف.. دافئ مقارنة بالخارج، يرتخي جسدي بشكل كبير، أتثاءب أكثر.. أهِمُّ بالوقوف للخروج من المقبرة.. الوقت قد تأخر وأوشك موعد الزيارة على الانتهاء، أتأمل المكان

الصخري المُعد لوضع تابوت الملكة الحجري بداخله، ذلك التابوت المنحوت من حجر الألبستر وقد نُقل من قبل إلى المتحف المصري، ويجب حينما أذكر كلمة المتحف أن أُبيِّن أي متحف، ذلك لأن عشرات الآلاف من القطع الأثرية المصرية قد سُرِقت وهُرِبَت إلى أغلب متاحف العالم.. المتاحف العامة والخاصة!

لم يعثروا بداخل التابوت على مومياء الملكة وقت اكتشاف المقبرة، كيف تختفي مومياء ملكة من تابوتها؟! الشيء المتوقع أن يختفي باستمرار، بيد لصوص المقابر على مر التاريخ، تلك القطع الثمينة التي ترافق جسد المتوفَّى من أثاث وحُليٍّ وأدوات مائدة وخلافه من تلك الأشياء المصنوعة من الذهب الخالص أو من الأحجار الكريمة، وتلك أشياء لها قيمتها لتاريخها بالطبع.. لكن المومياء.. كيف تختفي؟!

مؤكد حدث صراع ما في حينها، كأن تنقلب فئة على أخرى من أجل أريكة الحكم، فيقضي الجديد على ما تركه سلفه ليمحو تاريخه، أو ينتج ذلك لتناحر تيارات دينية متعصبة.. فمن يصعد ويفرض سلطان **إلهه** يقضي على ما تطوله يده من آثار خصمه، وإن وصلت إلى طمس المعالم والأخبار المنقوشة على جدران المعابد والمقابر ونقش غيرها، أو سرقة المومياوات وإخفائها كيلا تؤكد بوجودها أحداثًا حقيقية قد وقعت بالفعل.. كان يحدث ذلك وأكثر كلما صعد فريق على حساب الآخر ثم

CamScanner

تدور الدائرة ويأتي جديد.. وهكذا.. ولم يتبقَّ لنا غير ما نقشه المنتصر وقليل جدًا للخصم لم تصل إليه يد المنافس حينها، لذا كانت المقابر تُنحت في أعماق الجبال يتم الوصول إليها عبر سراديب طويلة مثل متاهة.

لا أعلم لماذا تخيلتُ الملكة **«حُتِبْ حِرِس»** ممددة أمامي، أتأملها لحظات.. ليست مُوميا.. إنها جسد حي يبتسم.. أتعجب.. أشعر كأن جسدي محمول على يد عملاقة.. أتذكر اليد التي كانت تقبض على رقبتي في كابوس الصباح.

بعد لحظة أشاهدني! نعم.. أنا هناك.. أسير بين مجموعة من الرجال.. عاري الصدر، أرتدي نُقْبَةٌ تواري عورتي، كنا عشرين رجلًا لنا تفاصيل الجسد نفسها، نحمل محفة.. كل خمسة رجال يحملون قائم زاوية من أربعة تخص المحفة التي تجلس فوقها الملكة **«حُتِبْ حِرِس»** على مقعدها الذهبي المنقوشة قوائمه على هيئة أفاعٍ قائمة على ذيولها، نتجه ناحية الشمس الغاربة، من بعيد تنتشر أصوات تترنم بصوت حزين، على مقربة تبدو مقبرة يقف أمامها كاهن حليق الرأس، أكحل العينين، تتدلى كرشه أمامه وقد غطى جسده بجلد نمر، تداعب أجسادنا المتعرقة دفقات من هواء بارد يأتينا من ناحية الشمال يصعد فوق الهضبة التي نعلوها.

نحمل الملكة زوجة الإله وأم الملك كي تشاهد مقبرتها التي انتهى العمال من حفرها ونقشها. أحاول تأمل المكان لكني لا أقوى على رفع

يا بـ CamScanner

عينيَّ أمامي.. يبدو أن تلك طبيعة يُجبر عليها العبيد.. ألا ترفع عينيك في حضرة الملوك! لكني لستُ منهم ويجب أن أشاهد.. يا لها من جفون ثقيلة وعيون جبانة! بصعوبة بالغة أختلس نظرة خاطفة من طرف عيني لتقع على بعض من تفاصيل المكان حولي، رغبة داخلية قاتلة في معرفة أين أنا؟!

أنا هنا.. في مكاني نفسه.. في منطقة الأهرامات.. لكن جسدي تخطى آلاف السنين في عمق الماضي.. المنطقة التي يقبع فيها تمثال «أبي الهول» هي منطقة جبلية خالية تمامًا.. صحراء مترامية الأطراف لا يشقها غير الهرم الذي أشاهد قاعدته إلى جواري، لا أستطيع رفع رأسي لمشاهدة ارتفاع الهرم وقمته.. قاعدته فقط هي المتاحة لأمثالي في تلك اللحظات التي تتربع فيها الملكة فوق محفة نحملها على أكتافنا، متى تم بناء هذا الجزء ولم يصعد الملك خوفو أريكة الحكم إلا من أيام معدودة؟!

نصل إلى باب المقبرة، بهدوء، يبدو أننا احترفناه، نهبط بالمحفة وقد التصقت جباهنا بالأرض، فلا نرفع رؤوسنا قبل أن ترحل الملكة. يحني الكاهن المتربعة يداه على صدره، رأسه أمام الملكة وهي تترجل من فوق المحفة بملابس شفافة ناصعة البياض، أشاهدها بطرف عيني متجهة إلى باب المقبرة، تهبط درجات السلم، نعتدل حاملين المحفة إلى جانب في انتظار عودتها. أتجول ببصري في المكان، الآن يُتاح لي تأمل الهرم الأكبر الذي لا أعلم كيف يوجد هنا الآن؟! أشهق بصوت مسموع.. إنه نصف هرم.. قطع صخرية ضخمة تمثل عددًا من المصاطب حتى بلغت ارتفاع ما

CamScanner

يزيد عن الخمسين مترًا.

أفيق على صوت حارس المقبرة يتردد صداه في المكان يستدعيني للخروج متسائلًا «أذهبتَ في النوم يا أستاذ؟!» يتوقف صوت وقع خطواته في انتظار إجابتي، أقف وأتمطى نافضًا عني ذلك الخدر الذي يسري في جسدي.. مؤكد غفوت.. لقد شاهدتُ الملكة صاحبة المقبرة.. لم تكن مسنة.. أربعينية كانت، ترتدي ثوبًا من الكَتَّان الأبيض الخفيف لدرجة تكشف عن تفاصيل دقيقة لبعض من أجزاء جسدها، في زيارة إلى مقبرتها، وعلى محياها سعادة وصفاء.

أصعد درجات سلم المقبرة، أسمع صعود الرجل أمامي، أعود إلى العالم يصافحني الهواء البارد مع وجه الموظف مبتسمًا تلك الابتسامة التي تعني أنه تركني بالداخل كما أشاء، ويجب أن يحصل على مقابل مادي، حتى إنه يمد يده أمامه! أتأمل ابتسامته اللزجة، الضوء شحيح بسبب كثافة السحب الرمادية التى تغطي وجه السماء مثل نقاب، وجهه الجاف من رِي العفة يزداد سمرة. «إنها ليست ملكية أبيك لتجمع الإتاوات مقابل دخولها أيها الحقير!»

لم أتحدث بتلك الكلمات بالطبع، لكنها ظهرت على ملامحي وأنا أبتعد عنه ليواجهني الهرم الأكبر، تصلني همهمات الموظف اللزج فلا أبالي، تجاهل أمثال هؤلاء أفضل عقاب. التجاهل سلاح الضعفاء أمثالي،

CamScanner ـب

هو سلاح فعال لأننا لا نمتلك غيره، وأظنُّ أن الضعيف إذا امتلك رفاهية الاختيار بين أسلحة العقاب لعشنا في غابة، فكثرة الأسلحة في يد الجهلة نقمة، لقد شهد العالم جرائم قتل جماعية بشعة سنوات طوالًا بسبب امتلاك قادة بعض الدول للأسلحة، قادة (مخابيل معاتيه) يحلمون بصنع تاريخ بمداد من دم.. السيطرة على العالم بالقتل وإسالة الدماء أنهارًا وإن صرخوا بنشر الفضيلة وتطبيق الديمقراطية!

أتأملُ الهرم في صمت الحائر.. أتذكر مشاهدتي لذلك الجزء الكبير منه وأنا في المقبرة منذ قليل.. كيف يوجد جزء كبير من الهرم والملك حديث عهد بالحكم؟! أمط شفتيّ وأخطو بهدوء، يبدو أنني نمتُّ بالفعل واختلطت الأحلام لتنتج ذلك الهراء!

أشعر بشيء من الضعف، خواء.. ماذا يحدث؟! البرودة تتسلل إلى جسدي بشكل غريب.. المكان داخل المقبرة كان أكثر دفئًا، يبدو أن الهواء البارد لطمني لحظة خروجي منها، مؤكد ستتمكن مني الإنفلونزا، أسير إلى الأمام والهرم عن يساري وعن يميني حفرة عميقة عُثر فيها على أحد مراكب الشمس، أعبر المنطقة فيقابلني الهواء أكثر قوة وبرودة، أبحث عن مكان أستتر فيه. بجوار سور «**استراحة فاروق**» أتوسد قطعة صخرية ملقاة على غير هدى، ثم أستند بظهري إليه، أميل برأسي ليصبح في مواجهتي الهرم الأكبر أتأمله، أتشاغل بعدّ مصاطبه وأفشل كلما وصلتُ عند المصطبة العشرين، ومرة أخرى أتوه عند المصطبة الثامنة والعشرين، أهزُّ رأسي في

CamScanner

يأس وأنا أتخذ قراري بعدم عدّ مصطبات الهرم، فلا طائل من خلف ذلك.

أتابع تلك الحركة الخفيفة حول الهرم، عدد قليل يحاول صعود الصخور فيجد صعوبة ويعاونه آخر، أرفع عينيَّ حتى أعلى نقطة في الهرم، أتذكر الشاب الدنماركي وصديقته وفعلهما الفاضح فوق سطح الهرم، ذلك الحدث الذي أثار العالم، كم من المشقة عانا حتى بلغا القمة.. عن أي مجدٍ بحثا؟! أم هو طقس بذلا من أجله الكثير؟!

أتابع أحد رجال الشرطة وهو يتحدث إلى سائح يتجول بمفرده، يُظهر له الكثير من الود بغية الحصول على أي أموال! أتعجب من إلحاحه، ليس كل سائح ثري.. وليس كل سائح قليل الحيلة ليسهل خداعه! منهم الفقراء ومنهم الأشقياء في بلدانهم.. القليل لديهم يمثل بالنسبة لنا الكثير، راتب شهر واحد هناك يُتيح له رحلة رائعة إلى مصر لا يستطيع أن يمضيها في بلده، ذلك ما يشجع أكثرهم.. لكن مؤخرًا خوفهم جعلهم يبتعدون.. بعضهم يأتي إلى شرم الشيخ أو إلى مناطق أثرية محددة تخضع لحراسة مشددة.. الأثرياء يمتلكون القدرة على فعل ذلك، أما الفقراء مثل هذا يأتي إلى هنا، ولن تفلح معه مثل تلك المحاولات الفجة للتسول أيها الأبله.

السور يعزلني عن تيار الهواء، مالت الشمس إلى الغرب، فهربت أشعتها إلى الأرض لا تحجبها السُّحب، لكنها أشعة ضعيفة لا تبث دفئًا،

CamScanner بـ

تصنع ظلالًا للهرم مثلثة سوداء تتكسر على الأرض الصخرية حتى تتلاشى.

أتصفح كتابًا في يدي لحظات قبل أن أذهب خلف أفكاري، أتذكر الملكة التي شاهدتُها تجلس فوق مقعدها محمولة فوق محفة يحملها عشرون شابًا وأنا منهم، كيف حدث هذا الأمر؟! كانت هي «حُتِب حِرس».. ومَن ذلك الكاهن الذي كان في انتظارها أمام المقبرة؟!

أهز رأسي كي أنفض عنه ذلك الثِّقل الذي عاود الهجوم.. يجب أن أرحل.. كل مَن في المكان يغادر، يسقط الكتاب من يدي إلى ركبتيّ، أفيق لحظة وأنا أضمه إلى صدري، أتخذ قرار السكون مدة دقيقة أستجمع فيها قوتي ثم أغادر، أترك لجسدي حرية الاسترخاء.. أتأمل الهرم الأكبر أمامي.

أقف عاري الصدر، بشرتي تميل إلى السُّمرة من أثر لفحة الشمس، ما زلت أتأمل الهرم الأكبر، لكنه كما شاهدته من قبل.. عدة مصاطب تمثل نصف هرم، تظهر الدهشة على ملامحي وأنا أتساءل في همس: «كيف بُنِى هذا الآن؟» يتأملني شاب يقف إلى جواري من المجموعة نفسها التي كانت ترافقني في حمل محفة الملكة **«حُتِبْ حِرِس»**، ينقل نظراته بيني وبين الهرم، يقول مستفسرًا: «أي هرم تقصد يا هذا؟!». أفيق من شرودي بعد لحظة وأنا أتأمله ثم أشير بوجهي ناحية بناء الهرم الأكبر وأقول: «هذا.. هرم خوفو؟!».

تتزايد دهشته، وتتحرك يداه في الهواء، يبدو أن شكًّا ما في قواي

CamScanner

العقلية قد راوده، يشغلني تأمل عضلات ذراعه النافرة.. يتساءل: «من أين أتيت؟ لا تبدو من المرتزقة؟!»، أهز رأسي كي أستوعب كلمة **المرتزقة** وأجول بناظري في أرجاء المكان كأني أبحث عنهم.. أقول: «لستُ مرتزقًا.. أنا مصري حتى عمق التاريخ.. لكن هذا الهرم..»، لم يدعني أكمل كلماتي.. يشير ناحيتي علامة الصمت، ثم يقول وهو يشير ناحية الهرم: «تقصد (بن بن).. إنه المرصد يا فتى». ترن الكلمة في أذني، أتأمل البناء.. أشاهد العمال من بعيد بين ناحت وحامل صخر ورئيس يجلس أسفل مظلة، العمل مستمر في الجانب الآخر، يبدو أنهم ابتعدوا عن هذا الجانب حتى ترحل الملكة.

أترك تلك التفاصيل وأنا أتساءل في دهشة: «بن بن؟! المرصد؟! أي مرصد؟»، فيقول كأنه يتحدث عن أمر معروف لدى الجميع وجهلي به يستحق العقاب: «مرصد مخاطبة السماء وتلقي تعاليم الرسالة!»

أتأمل الهرم.. الـ بن بن.. المرصد.. في ذهول.. ماذا يقول هذا الرجل؟! يتحدث بشكل بديهي يوحي بثقة تامة فيما يقول.. أهز رأسي وأسأله: «أي مرصد؟! إنه هرم خوفو؟!». يتحرك خطوة مبتعدًا عني كأنه يود أن يُنهي الحوار، نظرته لي تؤكد أنه قد اقتنع بأنني شخص غير طبيعي، أسمعه يهمس: «خوفو؟! ماذا يقول هذا المعتوه؟!»

أشكُّ في أن يكون قد فهمني، أتبعه كي أطلب منه أن يشرح لي بهدوء،

لكن لا بد من خداعه حتى يأمن لي.. أخبرته وأنا أدنو منه أنني كنتُ قد خرجت ضمن حملة مَرّ عليها عدة سنوات. يتأملني أكثر.. يبدو أن حيلتي لم تنطلِ عليه، يُمسك بمعصمي ويتحرك ليجرني خلفه حتى يقترب من سفح الهرم، تحجبنا ارتفاعات صخرية عن المجموعة التي تنتظر خروج الملكة أمام باب المقبرة، يهمس وإن كانت نبراته عنيفة، يقول: «اسمع يا هذا.. لا أعلم مَن تكون أو من أين أتيتَ إلى هنا.. كل ما أعلمه أنه إن كنتَ تتحاذق عليّ.. إن كنتَ مدسوسًا من كهنة آمون.. فاعلم أن نهايتك ستكون على يديْ هاتين»، يضم قبضتيه بمنتهى القوة.

لا أعلم كيف تذكرت الصراع بين كهنة آمون وكهنة رع، هو صراع دائم، لم يتحدوا عبر التاريخ غير فترات قليلة جدًّا، طمأنته بأنني لا أدين لأحد غير رع وكهنته، ثم سألته بهدوء أن يشرح لي وألا يخاف.. يشير إلى أعلى ناحية البناء الهرمي الذي لم يكتمل بعد ويقول: «بن بن.. مرصد مخاطبة السماء وتلقي تعاليم الرسالة.. بُني منذ عدة سنوات، صممه وبناه المبجل **إيمحوتب** بعدما أقام في البداية سلالم الصعود إلى عرش الإله بدرجاتها الست التي تعبر عن أيام الخلق الستة، والمصطبة السابعة هي التي كانت تحمل كرسي العرش في المناسبات الدينية».

هرم من سبع درجات.. مؤكد هو يقصد هرم **سقارة**، حاولتُ المواءمة بين ما أعيشه وبين ما بداخلي من معلومات، شعرتُ بألم رهيب يكاد يفتك

CamScanner ـب

برأسي.. تركتُ الأمر وعدتُ إلى الواقع.. تأملتُ الهرم وأنا أردد في همس: «بن بن.. مرصد مخاطبة السماء وتلقي تعاليم الرسالة».. أتوجّه ناحيته في دهشة وأنا أسأله: «هذا هو هرم خوفو.. الملك خوفو ابن الملكة حتب حرس (أشير في اتجاه المقبرة وأنا أكمل) التي أتينا بها الآن»، كأنني أهذي بكلمات شيطانية.. يقبض على رقبتي بقوة هذه المرة وهو يقول: «اسمع يا هذا.. أخبرتك أنني لن أسمح لك بالتمادي في جنونك هذا.. سوف أخبر الـ.. »، أقاطعه وأنا أبعد يده عن رقبتي «لا تنفعل واعذر جهلي، فقد طلبتُ منك أن تخبرني بالحقيقة إن أنا أخطأت»، يترك رقبتي مع نظرات متوعدة كأنه يخبرني أنني إن لم أكن صادقًا معه فسوف يحقق تهديده.. يقول «ابن الملكة حتب حرس الذي يعتلي العرش هو الملك «سوريد بن سنفرو» ولا يوجد أحد بهذا الاسم الذي ذكرته».

أهمس وأنا أنظر ناحية مقبرة الملكة ثم أعود إلى بناء الهرم «خوفو؟ »، يمتعض ويشيح بيديه في الهواء قائلًا: «أي **خوفو** أيها الشاب.. **شوريد** كما أخبرتك.. إنه «**ددف رع**». أتساءل بفارغ صبر وبلهجة فيها شق كبير من اليأس: «وماذا عن الملك خوفو.. خونوم خوفو؟!»، يفكر لحظة، تتغير على وجهه عدة تعبيرات، يقول «خونوم خوفو (يزوم).. أي خنوم المبجل، خنوم معبود الشلال الأول وحامي شعبنا من أخطار الفيضان، فهو مبجل».

أسمع صرخة من بعيد تُعلن عن قرب خروج الملكة من مقبرتها،

CamScanner بـ

يجب أن نسرع، تركني مرافقي مهرولًا في اتجاه المحفة أمام المقبرة، يجب أن يسجد كل منا في مكانه حتى تصعد الملكة إلى كرسيها، ثم نحمل المحفة ونعتدل بهدوء شديد لنرحل عن المكان حتى الأرض الممهدة.. وهناك تنتظر عربة ملكية لتحمل الملكة إلى قصرها.

لم نخطُ إلا عدة خطوات حتى تُبرق السماء وترعد ثم يهطل مطر غزير، أرفع رأسي كي أتأمل السماء التي أعلنت عن غضبها فجأة.. فإذا بي أجد الظلام قد حل والمطر يتزايد قوة والكتاب قد سقط من يدي، وما زلتُ أرتكن إلى سور **استراحة فاروق**.. لقد هبط الليل، ولا يوجد أحد في المنطقة كلها، يبدو أني قد ذهبتُ في غفوة طالت مدتها وتنوعت أحلامها، يجب أن أغادر الآن! لكن كيف أستطيع المغادرة والسماء غاضبة إلى هذا الحد، برقها ورعدها وأنهارها المتدفقة أمطارًا تُلقي الرعب في القلوب، وتقضي على أمل النجاة.. قد يتسلل الرعب هذا إلى ضعاف القلوب، أو المتمسكين بتفاصيل الحياة، أما زاهد رافض مثلي.. فلا أجد بداخلي غير القليل من الاضطراب.. جزء منه سببه موقف رجال الشرطة إن اكتشفوا أمر وجودي في المنطقة في هذا التوقيت من الليل، وجزء آخر يحتم عليَّ أن أحتمي من المطر والبرودة التي بدأت تسري في عظامي.. نعم.. لقد تمكنت مني الإنفلونزا.. بدأتُ أعطس بشدة.. غادرتُ مكاني وأنا أحتمي في السور، حتى وجدتُ بوابة عظيمة بلا أبواب.. دخلتُ إلى ساحة فضاء

أمام مبنى الاستراحة المهجور أتعثر في كسرات صخر.. باب خشبي في جانب المبنى.. مكسور.. دلفتُ منه إلى الداخل.. المكان مظلم موحش.. لا يهم.. سوف يقيني من المطر على أقل تقدير.. ثم أغادر بعد أن ترفع عنا السماء غضبتها تلك.

أجلس على الأرض الخالية.. بلاطها تحت يدي بارد وعليه أتربة ناعمة تغوص فيها أصابعي، تتعود عيناي الظلام لأشاهد بالداخل أشباح أعمدة، وأبوابًا، ونوافذ محطمة، وقطعًا من أثاث قديم متهالك، أستخرج تليفوني المحمول من جيبي، أشعل شاشته فقط وليس الكشاف، أريد إضاءة خافتة حتى لا تلفت الأنظار من بعيد، في الجوار أجد شيئًا مكعبًا مثل صندوق، أقترب فإذا به صندوق من ورق مُقوًّى، تقيم زواياه قطع خشبية صغيرة، يخص أحد الباعة في المنطقة، يحوي أنواعًا مختلفة من البسكويت، وعددًا من علب العصائر، وزجاجات مياه معدنية. تئن معدتي.. تتذكر الطعام الآن.. سوف أحمل بعضها وأترك ثمنها في الصندوق.

أحمل ما أريد ثم أعود إلى مكاني، أتناولها في هدوء وأنا أتأمل الخارج عبر الباب المكسور.. الهرم الرهيب الذي يستقر مكانه عبر آلاف السنين ليؤكد عبقرية لم نعلم تفاصيلها حتى اليوم، أصوات الرعد، أنوار البرق الخاطفة، الأمطار تدق الصخر.

أتساءل: كيف سأغادر بعد توقف المطر؟! أجيب في همس: المشكلة

يا بـ CamScanner

ليست في المغادرة بقدر ما سيترتب عليها من مشكلات إن شاهدني أحد رجال النقاط الأمنية المنتشرة عند مخارج المنطقة! لن يصدقني أحدهم إن أنا أقسمتُ على أنني ذهبتُ في نوم لا أعلم سببه حتى مرَّ كل هذا الوقت إلى أن أيقظتني الأمطار.

«**القبض على لص آثار في منطقة الأهرامات**».. تخيلتُ هذا المانشيت في الصحف، أما التفاصيل.. تخيل ما تريد من العبارات الرنانة التي تُمجد نزاهتهم ووطنيتهم وتؤكد أنهم حماة تاريخ مصر العظيم، سوف يضعون صورًا لهم في ملابسهم المرصعة بالنجوم والنسور، وأنه «**بناء على توجيهات معالي.... إلى السيد.... وبناء على تحريات..... ومتابعة مستمرة من..... والتي أسفرت عن كشف مخطط إجرامي يتزعمه المدعو أيمن فاروق**».. أنا.. ولك أيضًا أن تتخيل كم التهم التي سوف يتم توجيهها إليَّ، فقد تُلصق بي تهم سرقة معظم الآثار المهربة إلى خارج البلاد منذ عشرات السنين، مع وضع صورة لي توضح مدى الإجرام الذي يظهر على ملامحي، فلن يعجزهم العثور على محترف photoshop يضع لمسته الفنية لإبراز عظام الوجنتين وجعل العينين غائرتين.. مع سحب الشفة العليا إلى الأمام قليلًا كي يزيد قُبح الوجه! أسبح خلف خيالاتي، ينتابني قلق تسري رعشاته بداخلي، يجب أن أتخذ قرارًا حاسمًا الآن.

بعد قليل أستقرُّ على أن أقبع مكاني حتى الصباح مثل قط شريد،

تتجسد صورة القط الشريد الهارب من المطر وكلب ضال فأنكمش ويغوص رأسي بين كتفي.. في الصباح وبمجرد وصول زائري المنطقة أخرج بينهم لحظات قبل أن أغادر.

ماذا أفعل؟ وكيف أنام؟ وكيف أقاوم البرد الذي يتسلل إلى عظامي؟ أسئلة لم أبحث لها عن إجابة، يجب أن أمضي معظم ليلتي في القراءة، هي الوحيدة القادرة على هزيمة ملل ليلتي الغريبة، سوف أقرأ في أحد المراجع التي أحتفظ بها على تليفوني بصيغة pdf التي تبحث في مجال دراستي.

بحثتُ عن الكتاب في قائمة الكتب حتى وصلت إليه، بدأتُ في التصفح السريع حتى وصلت إلى جزئية تقدم معلومات مهمة حول بناء الهرم الأكبر، لقد قرأتُ معظمها من قبل، ولكن المعلومات التاريخية مثل رائحة **برفيوم هاي كوبي** قليلًا ما تبقى عالقة، الغريب في أمر تلك المعلومات أنها جميعها مجرد تكهنات واستنتاجات، ولا أحد يعلم أين الحقيقة الكاملة! فلكل باحث نظرية وأدلة يستند إليها ليؤكد وجهة نظره التي تتعارض مع الآخرين، في النهاية لا توجد نظرية واحدة يتفق عليها الجميع بشأن بناء هذا الهرم الأكبر، لا أتخيل كيف يصدقني الناس إن أنا خرجتُ عليهم وأخبرتهم أن هرم خوفو ليس بهرم خوفو.. ولا يوجد في التاريخ ملك يُدعى خوفو من الأصل.. أو أني أخبرتهم أن **ايمحوتب** - هو الطبيب والمهندس الذي صمم بناء هذا الهرم - بدأ البناء في عهد الملك **سنفرو** ثم

CamScanner

استكمل البناء في عهد ابنه الملك الشاب «ددف رع»، وأن هذا البناء لم يُبنَ مقبرةً للملك كما يُشاع، وإنما بُني **مرصدًا لمخاطبة السماء**، وتلقي تعاليم الرسالة!

مخاطبة مَن في السماء.. وأي رسالة يتلقاها.. ومَن الذي سيتلقى تلك الرسالة؟!

الحقيقة التي لا يرفضها أي عقل مستنير أن هرمًا مثل هذا لم يكن ليُبنى كي يكون مقبرة لملك ما! أيُّ عبودية كانت.. وأيُّ سخرة كان يعيشها القوم وقتئذ لإقامة مثل هذا المبنى الرهيب من أجل رجل يُدفن فيه؟! لا يتقبل العقل ذلك! إنما يتقبل العقل أن يتم بناء مثل هذا الصرح بأيادٍ متطوعة راضية من أجل إقامة بناء يربطهم بالإله الذي يسكن السماء.

وإذا وصلنا إلى تصديق ذلك.. أقصد عبادة إله واحد في السماء، تصديق قضية التوحيد في هذا الزمان.. فسوف تظهر أمامنا نظريات تؤكد أن كل مدينة في مصر القديمة كان لها إله خاص بها يعبده أهلها!

وإن صدقت تلك النظريات فهل تتلاشى فكرة التوحيد؟! بالطبع لا.. لِمَ لا تكون هذه **الآلهة** مثل **أولياء**.. لكل مدينة **وليٌّ**.. وأهل المدينة يقفون عنده يذكرون «**الإله الأعظم**»؟ ففي عصرنا هذا، ونحن نفتخر فيه بما وصلنا إليه من تطور علمي وعقل مستنير، ما تزال أعداد لا تحصى تؤمن بوجود الأولياء، ولكل مدينة وليٌّ تقريبًا، فماذا عن السيد البدوي، والحسين،

CamScanner

وإبراهيم الدسوقي، وعبد الرحيم النقاوى، وأبي الحجاج الأقصري، وأبي العباس المرسي؟! ولا يقتصر الأمر على المسلمين فقط، الفعل نفسه نجده لدى أقباط مصر حينما يقيمون الاحتفالات «**الموالد**» لـ مارجرجس، والقديسة دميانة، ومارمينا. وهناك بعض الاحتفالات المنسوبة إلى الدين في العراق وغيرها من الدول.. وفي مدينة غاليسيا في إسبانيا طقوس «**التقرب من الموت**»، وفيه تُقدم القرابين إلى القديسة العذراء سانتا مارثا.. وماذا عن هذا العدد الهائل من الآلهة في الهند حتى اليوم؟!

ألا يدرك هؤلاء، بما تبين للجميع بمنتهى الوضوح، وجود إله واحد خلق هذا الكون؟! بالطبع يدركون.. لكن هناك إيمان أعمق لديهم بالولاء إلى «**وليّ محلي**» يقربهم إلى الإله الأعظم.

وهناك نظرية أخرى أكثر وضوحًا وهي نظرية **المذاهب** الدينية التي تحدث عنها فلاسفة العصور الضاربة في القدم، فكما هو الوضع اليوم في وجود مذاهب مختلفة داخل الدين الواحد يمكننا أن نلاحظ أن تلك الاختلافات القديمة في أسماء الآلهة المصرية القديمة ما هي إلا مذاهب مختلفة.

والمذاهب الدينية في مصر القديمة كثيرة، لكن أبرزها أربعة مذاهب، أولها **المذهب الشمسي** الذي يُنسب إلى أهالي مدينة أون، أو مدينة هليوبوليس (عين شمس الحالية)، ويُعد من أقدم المذاهب نشأة في

CamScanner

الوجود، وربما يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ في الحضارة المصرية القديمة، ويتحدث أصحاب هذا المذهب في نشأة «الوجود وبدء الخليقة» بأنه لم تكن في البداية أرض ولا سماء ولا بشر ولا كائنات، وإنما **العدم**، والعدم هذا عبارة عن كيان مائي لا نهائي أطلقوا عليه اسم **(نون)** وظهر في هذا الكيان المائي «روح إلهي أزلي خالق» هو **أتوم**.

آتوم لفظ مصري يجمع بين ضدين من المعاني، معنى **العدم** ومعنى **الشمول** والاكتمال، وقد بدأ الإله **أتوم** ظهوره الأول العظيم بوحدانيته، وأوجد نفسه من أول عنصرين من عناصر الوجود (شو. تفنو).

شو ذكر تكفَّل بأمر الفضاء والهواء والنور، **وتفنو** أنثى تكلفت بأمر الرطوبة والندى، واختلط العنصران الإلهيان وتفاعلا، فتولد عنهما بقيه التاسوع الإلهي العظيم، حيث ظهر بعدهما عنصران جديدان، أحدهما ذكر تكفل بأمر الأرض وعرف باسم **«جب»**، والآخر أنثى تكلفت بأمر السماء، وعرفت باسم **«نوت»** وقد كانت السماء والأرض في بدأيه أمرهما متصلتين جسدًا وروحًا، إلى أن أذن الإله الخالق أن يبزغ من بينهما فجر الحياة، فأوحى إلى الإله **شو** (النور والهواء) أن يفصل بينهما، فرفع **«شو»** السماء عن الأرض، وملأ الفراغ بينها وبين الأرض بما كان يحيط به ويصدر عنه من هواء وضياء، وبهذا يكون الوجود مهيأً لوجود الكائنات الحية والإنسان، فاستكمل الخلق بأن أنجب الإلهين السابقين أربعة آخرين،

ذكرين (**أوزوريس. ست**) **أوزوريس** الذي تكفل في الأرض بأمر الفيضان والخصب والنمو، **وست** الذي تكفل بأمر أمطار السماء ورعدها وأعاصيرها، وأنثيين ارتبطت كل واحدة منهما بزوجها، هما **إيزيس** التي ارتبطت بـ **أوزيريس**، **ونفتيس** التي ارتبطت بـ **ست**، وبهذا اكتمل التاسوع الإلهي العظيم الذي يعد أصل الوجود بكل ما فيه من عوالم وكائنات حية وجماد.

وهكذا ظهرت الآلهة العديدة، ومع مرور الزمن ظهرت مذاهب أخرى تُعارض هذا المذهب، وتُظهر للوجود آلهة أخرى مثل **المذهب الأشموني** نسبة إلى مدينة الأشمونين الحالية الموجودة في مصر الوسطى، وكانت تُعرف في الزمن القديم باسم **أونو** أو هيرموبوليس، ويدور مذهبهم الجديد في تفسير «أصل الوجود» الذي تعصبوا فيه لعناصر الوجود الثمانية، وأطلقوا عليه اسم **الثامون**، وأخذوا عن ذلك اسم مدينتهم الجديدة، فقد كان عدد الثمانية ينطق في اللغة المصرية القديمة «**خمون**»، وأصبح في اللغة القبطية **شمون** إلى أن تطور الاسم في العصر الإسلامي إلى الأشمونين، وقد بدأ هذا المذهب الجديد بسبب الجدل الذي كثر حول المذهب الشمسي في المدن المصرية المختلفة، ومحاولة حكماء مدينة **أونو** أن ينهضوا بمذهبهم، وربما يكون وراء ذلك أسباب سياسية تمثلت في نوع من الانشقاق السياسي، فقد أعلنوا حربًا في السياسة والدين والفكر في آن واحد وحاول هؤلاء الحكماء في البداية أن يشككوا في بعض عناصر المذهب الشمسي.

وهناك أيضًا **المذهب المنفي** الذي يُنسب الى مدينة **منف** التي أسسها

الملك **مينا** مؤسس الأسرة الأولى وموحد القطرين، وقد ازدهرت منف من حيث الثقافة والفكر في ذلك الوقت، ولمكانتها السياسية حاولوا إثبات تفوقهم على ما عداها من المدن بقولهم إن معبد الإله **بتاح** كان الميزان الذي وزنت فيه مصر العليا والسفلي، ولعل ذلك الاعتقاد يرجع إلى المكان الأوسط الذي احتلته مدينة **منف** منذ تأسيسها. ولا شك أن نقطة البداية في هذا المذهب ستنطلق من أمرين أولهما إعلاء شأن مدينتهم وأربابها المحليين، وثانيهما احتواء المذهبين السابقين بنقدهما تارة وتأويلهما تارة أخرى ليصبحا جزءًا من مذهبهم الخاص، وقد تساءل حكماء **منف** عن تلك الإرادة التي فكرت في خلق العالم وتنظيم أموره، وقالت: لا بد أن تلك الإرادة قد فكرت ودبرت قبل أن يصدر أمر الخلق ذاته، ولا بد أن يكون التفكير والتدبير قد سبق الخلق والتعمير.

هكذا وصل فلاسفة **منف** إلى افتراض وجود إله خالق، وأنه قد شمل الكون والكائنات برعايته، ورسم لكل ما في العالم قدره وأفعاله، وبدأ **المنفيون** يصفون الإله **بتاح** بصفات جديدة تميزه عن كل الأرباب بصورة غير مسبوقة، فاعتبروه القلب واللسان لهم جميعًا، وليس القلب أو اللسان بالشيء الهيِّن.. فما من شك أن للقلب واللسان سيطرة على كل جسد، والدليل قائم في كل صدر وكل فم، للأرباب، والبشر، والأنعام، والزواحف على السواء، وإن طُلِبَ منهم الدليل الأقوى على صحة ما يقولونه لقالوا إن ما تشهده العينان وتسمعه الآذان وتشمه الأنف يرقى جميعه إلى

CamScanner

القلب، أما عن الفم فهو الناطق بكل شيء، وهذا ما يؤكد اكتشاف فلاسفة **منف** أهمية **الكلمة** خاصه كلمه الإله أو الكلمة الإلهية التي هي أصل الوجود وسر بدء الخليقة، لم يقدموا الفكرة ذاتها، بل قدموها بصورة جديرة بالاعتبار. أصل الوجود في نظر فلاسفة منف هو **الإله الخالق بتاح،** أما كيف كان ذلك؟ فهو الأمر اللافت للنظر والاعتبار في رؤيتهم، فالإله فَكَّرَ بعقله أو بقلبه، ومن ثَم أدرك الخلائق، ثم نطق الكلمة بلسانه، فكان تمام أمر الخلق. وهناك الجانب الأخلاقي، فالإله هو الذي حدد منذ البداية الخير والشر، وبناء على هذا التحديد تتقرر مصاير البشر، فمن يفعل الخير أو مَن يعمل بالسلم حسب النص المنفي تُوهب له الحياة، أما مَن يعمل الشرور والآثام فلا يستحق إلا الموت والفناء.

والمذهب الواستي وهو المذهب الرابع، نسبةً إلى مدينة **واست** القديمة، الأقصر حاليًا، التي عُرِفَت في الزمن القديم باسم **واست** أي «مدينة الصولجان» وقد عُرِفَت فيما بعد باسم **طيبة**، بينما أطلق عليها العرب الأقصر، وقد نشط فلاسفتها ليمزجوا بين المذاهب القديمة لأصل الوجود، وكيفية الخلق بطريقة جديدة أعطت السيادة لإله مدينتهم الأعظم الإله آمون، وجعلت من مدينتهم أم المدائن وسيدتها، وقد صور فلاسفة **واست** (الأقصر) أنها أحق أن تكون أقدم المدن وأعظمها، وأنها هي التي كانت أول ما ظهر على التل الأول الذي أطل برأسه من الماء، أي إنها أصل الأرض وموطن الخليقة الأول، وإذا كان ذلك، فإن الإله آمون سيصبح باعتباره إله هذه المدينة هو الإله الأول والأعظم، وهو خالق

CamScanner ـبـ

الخلق ورب العالمين، وهو بداية الوجود، وهذا ما عبر عنه فلاسفة المدينة في نص مهم قالوا فيه:

«وُجِدَ أمون منذ البداية دون أن تُعرف له نشأة، فلم يوجد قبله إله أو يوجد معه إله يستطيع أن يصف له هيئة، ولم يكن له أم تبتدع له اسمًا أو ولد ينجبه ويقول هأنذا، وقال عنه الناس إنه تانين رب منف القديم، وأنه أمون الذي صدر عن نون، وأنه مَن هَدى الخلائق أجمعين، وأن له صورة أخرى من أعضاء الثامون، وأنه هو الذي أوجد الأرباب الأولين، وأنه هو الذي استكمل ذاته في هيئة أتوم، وأنه بداية الوجود».

وأراد فلاسفة **واست** (الأقصر) القدامى أن يؤكدوا للناس أن الروح الإلهية التي اعتادوا عبادتها في معابد واست العديدة لم تكن في الحقيقة غير روح واحدة، وإن تعددت أوضاعها فهي قد صدرت جميعًا عن واحد، وارتدت إلى واحد.

الحقيقة إني أمتلك اليقين بأنهم (قدماء المصريين) ما كانوا يعبدون غير إله واحد، وما ذُكر من أسماء آلهة، نسبها إليهم المؤرخون ورجال علم المصريات، ما هم إلا أولياء يتقربون بهم إلى الخالق الأعظم، ذلك أن رجال الدين - كما في كل العصور- لديهم من الموهبة والمقدرة على إقناع العامة بأنهم أيادي الآلهة على الأرض، ولمصالح سياسية قدَّم الكهنة الملوك للعامة على أنهم أبناء الآلهة.. فإذا مات وأتى الابن تحول الأب الراحل إلى إله.. ويجلس ابنه، ابن الإله، على أريكة الحكم.. ويؤكد، وهو الملك، على

CamScanner

ألوهية والده.. وهكذا..

الأمر واضح لدى الجميع.. هناك إله أعظم واحد خالق هذا الكون.. فيأتي **إيمحوتب** ويعلن على الملأ بدء العمل في بناء صرح عظيم لمخاطبة الإله الأعظم وتلقي الرسالة، هنا يتقدم الآلاف للعمل غير مُكرَهين.. يعملون باجتهاد من أجل بناء ضخم مُبهِر، عمل يُقرِّبهم إلى الخالق الأعظم.

حتى اليوم نجد مَن يتطوع للعمل خادمًا مقيمًا بجوار المقامات والأضرحة، سعيدًا بحياته، على ملامحه رضا ونقاء يتولدان عن إيمان عميق بصدق ما يقوم به من خدمات لصاحب الضريح.. وما في الضريح غير حفنة من العظام لجسد أكلته الديدان! ما بالنا برجال يخدمون لبناء المرصد!

أعود إلى المرجع التاريخي على شاشة الهاتف بين يديَّ وأنا أتدثر بذاتي بحثًا عن بعض الدفء، فقد شعرتُ ببرودة شديدة، يبدو أن الإنفلونزا تهجم في شراسة، أقرأ:

«كثيرة هي الأسرار التي تحيط بمرصد **إيمحوتب** «الهرم الأكبر» وفي مقدمتها طريقة بناء الأهرام التي وضع إيمحوتب نظريات إنشائها بالمعادلات الرياضية وعلوم الفلك والطاقات الكونية، وهناك العديد من نواحي الإعجاز التي وردت في وثائق إيمحوتب المرتبطة بإقامة المرصد،

وعندما فشل العلماء والخبراء في تفسيرها نسبوها إلى أعمال **السحر** وأساطيره، ويقال إن موقع المرصد كان بأمر من **الإله** إلى إيمحوتب بأن يقيمه في «**قلب الكون**»؛ أسوةً بمرصد أنو «عين شمس» الذي أمر الإله بإقامته في قلب مصر أرض الإله. وقد فسر علماء الفلك والرياضيات في العصر الحديث معنى «قلب الكون» بأنه مركز ثقل الكرة الأرضية الذي أمكن تحديده عند تقاطع خطي طول وعرض ٣٠، وهو مركز تقابل القارات الخمس، وكانت المفاجأة التي أعلنت عالميًا بأن المرصد أو الهرم الأكبر الذي أقامه إيمحوتب يقع بدقة متناهية عند نقطة تقابل خطي ٣٠ الطولي والعرضي.

طبقات أحجار بناء الهرم تدل على أنه بُني على مرحلتين، الأولى التي يصل ارتفاعها إلى غرفة الملك هي التي بناها إيمحوتب مرصدًا لـ «**مخاطبة السماء**»، وكانت غرفة الملك فوق سطح المرصد «**غرفة الرصد**»، وليست غرفة دفن الملك. يؤكد ذلك أنه لا توجد نقوش على حوائط هذه الغرفة كما هو الحال في جميع غرف الدفن بالأهرامات أو المقابر، كما أن أبعاد قياس الناووس الحجري لا تكفي لوضع تابوت لطفل صغير، وأيضًا لا توجد على الناووس أو بداخله أيُّ نقوش تشير إلى اسم صاحبه. فالغرفة بأبعادها واتجاهاتها الفلكية - وتنطبق نسبة الأبعاد على الناووس نفسه - قُصِد بها غرفة تقديس الإله. وعندما قام الملك «**ددف رع**» باستكمال بناء الهرم ليصبح خزانة لـ «**أسرار المعرفة المقدسة**» احتفظ بغرفة دفنه بعيدة عن «**قدس أقداس الإله**» الذي أضيفت

CamScanner

إلى اسمه كلمة «**خوفو**» أي «**جلالة**»، وليس اسم الملك كما ذكر حديثًا.. والترجمة الحرفية للنقوش فيها تعني «**الإله جل جلاله**».

لا يتقبل أي عقل أن هؤلاء العمال منذ آلاف السنين استطاعوا رفع قطع حجرية يصل وزنها إلى **سبعين** طنًا إلى هذا الارتفاع بأدواتهم البدائية؟! ولا يتقبل أي عقل من الأصل طريقة قطع هذه الصخور من الجبال وحملها إلى مكان البناء!

برديتان ألقتا الضوء على تفسير ذلك الجزء الغامض في كيفية بناء هذا الصرح، الأولى التي وُجدت في مقبرة أحد مهندسي الدولة الوسطى بالكرنك، تقول إن صاحبها كان كبير مهندسي المعبد، ووصِف بأنه كانت عنده القدرة الخارقة في رفع أضخم الأحجار والأعمدة ونقلها إلى مواقعها في المبنى بغير مجهود أو الاستعانة بأي قوى بشرية عاملة.

أما البردية الثانية المحفوظة في متحف اللوفر فترجع إلى الدولة القديمة في حفريات منطقة سقارة، ويصف فيها صاحبها أنه شاهد الكاهن الساحر بالمعبد يعاون العمال في نقل الأحجار الضخمة بقراءة «**التعاويذ السحرية**» على الحجر وهو يحمل «**صندوق أوزيريس**» ثم يأمر العمال بدفع الحجر فيتحرك بغير مجهود إلى مسافة ثلاثين ذراعًا، ثم يعاود قراءة التعويذة والطقوس ويستمر العمال في تحريك الحجر حتى يصلوا إلى موقعه في المبنى. من المرجح أن يكون الكاهن في هذه البردية هو إيمحوتب نفسه».

أي حضارة في العالم وحتى اليوم كانت لها مقومات ترتكز على

نوعية القوى المحركة لها والطاقة التي تحكمها وتحركها، كالنار والبخار والكهرباء والإشعاعات بأنواعها التي يمكن التحكم فيها سلكيًا أو لا سلكيًا التي انتقلت إلى الأقمار الصناعية ومختلف عناصر الطاقة المسيطرة عليها، وبدراسة البرديات المصرية القديمة وجد أنها ترمز وتعبر عن معادلات تكنولوجية عميقة ودقيقة، تؤكد أن قدماء المصريين منذ بدء الحضارة قد توصلوا إلى السيطرة على الكثير من القوى الكونية واستغلال طاقاتها في تحقيق الكثير من أغراضهم العلمية والعملية، كالطاقة الشمسية، ومختلف أنواع الإشعاعات، والذبذبات ومجالاتها المستمدة من القوى الكونية والسيطرة عليها، وتعمقوا في الطب، حتى إنهم أجروا عمليات جراحية في المخ بشكل يقف أمامه العلم الحديث معلنًا عن حالة من العجز، واستعملوا الإبر المعروفة اليوم بالإبر الصينية.

وعند تحليل مضمون برديات بناء الأهرام (وما حوته من أوصاف للقدرات السحرية التي توافرت لدى مهندسي الفراعنة وأعمال السحر وقدراته التي مارسها الكهنة) على ضوء نظريات التكنولوجيا الحديثة أمكن تفسيرها علميًا بأنها لا تخرج عن تمكن المصريين القدماء وعلماء كهنتهم من التحكم في **قوى الجاذبية** وأثرها في رفع الأثقال كما هو الحال مثلًا على سطح القمر أو غرف التحكم في الجاذبية الخاصة بأبحاث رحلات الفضاء. وتبعًا لقوة الجاذبية أو انعدامها يمكن التحكم في تحريك الأثقال وحملها ونقلها مهما يزد حجمها ووزنها بالنسبة لحاملها أو ناقلها، فتعاويذ الكهنة في رفع الأحجار أو تحريكها لم تكن إلا وسيلة من وسائل التمويه

CamScanner

التي تُبعد النظر عن أدوات السيطرة على قوى الجاذبية الأرضية وأجهزتها، ومما لا شك فيه أن الوسائل نفسها وطرق نقل الكتل الحجرية الضخمة وتثبيتها في مواقعها من المباني قد استعملت في تفسير معجزة نقل المسلات ورفعها في مواقعها، كذلك إقامة الأعمدة الضخمة ورفع أعتاب الأسقف وأحجارها فوقها التي يصل وزن بعضها إلى عشرة أطنان، بالإضافة إلى أن هناك علاقة للشكل الهرمي للمرصد وأبعاد أشكال أضلاعه بالإشعاعات الكونية وتجميعها إلى هذا المكان».[1]

عند هذه الجزئية أترك القراءة لحظات لأتذكر تلك الطاقة التي تملؤني كلما زرت منطقة الأهرامات، بالفعل كيف أُتيح لهم في ذلك التوقيت بناء هذا الصرح وبتلك الدقة المذهلة، وبهذه الأرقام والنظريات الرياضية والمعادلات الكونية! ثم أتذكر ذلك التضارب في النظريات التي تتحدث عن الهرم الأكبر.. أين تكمن الحقيقة؟!

وكأن انصرافي عن القراءة كان سببًا كي تأتي عطسة شديدة ينتفض على إثرها جسدي، إذن هي ليلة صعبة بكل المقاييس، سوف ترتفع حرارة جسدي خلال ساعة على الأكثر ويتملكني الوهن، لو كنتُ في منزلي لدخلتُ إلى سريري، وتدثرتُ بأغطيتي، وجلستْ أمي إلى جواري تُقدم المشروبات الدافئة والليمون والخضار المطبوخ، ولذهبتُ في نوم غير مريح يتعرق

---

(١) (فهرس / لغز الهرم الأكبر. دكتور سيد كريم).

CamScanner ب

بعده جسدي نافضًا عنه ذلك الفيروس اللعين، أما الآن.. الآن أدرك قيمة هذه الأشياء التي تبدو صغيرة ولا قيمة لها، جسدي بالفعل بدا أكثر ثقلًا.. أغطي أنفي بمنديل ورقي أتنفس من خلاله حتى أُلطِّف من درجة حرارة الهواء الذي أتنفسه، فقد بدأتُ أشعر بلسعة في أغشية أنفي.. تثاءبتُ وأنا أقرر العودة إلى القراءة لأبتعد بها عن حالة الإعياء التي تُلم بي.

في لحظة الصمت هذه حدث أمران، يبدو أن هناك ترتيبًا ونظامًا يسير وفقًا له كل شيء في حياتنا وإن كنا لا ندرك ذلك، لكن في بعض الأوقات نهتم وندرك وحينها نشعر بأن النظام الكوني رهيب إلى درجة تشعرنا بالعجز الكامل. الأمر **الأول** أن هاتفي أعلن عن قرب انتهاء الشحن به، وأعطى إنذارًا جعلني أعود من شرودي كي أطفئ الجهاز حتى أستبقي هذا الجزء اليسير من الطاقة بداخله؛ لعلي أحتاج إليه في إجراء اتصال ما، أما الأمر **الثاني** الذي حدث، فبمجرد أن أطفأت الموبايل وعاد الظلام ليعم المكان تمامًا حتى وصلتني أصوات هامسة تأتي من خارج الاستراحة. الساعة قد اقتربت من الثانية بعد منتصف الليل! المفترض ألا يوجد في منطقة الأهرامات كلها أحد غيري، حتى المغامرون لن يظهروا في ليلة ممطرة كهذه؟!

حبستُ أنفاسي وأنا أغالب رغبتي في اختلاس النظر لمعرفة مصدر تلك الأصوات، لكن رغبتي في ترك مكاني لم تستمر غير لحظة.. فقد اقتربت

با بـ CamScanner

الأصوات.. نعم.. هم مجموعة.. يقتربون.. ليس من الاستراحة.. بل إلى داخل الاستراحة.. إلى المكان الذي أتوارى فيه من البرد والمطر، بحثتُ سريعًا عن مكان أختبئ فيه، وجدتُ زاوية مُلقى بها حطام أثاث تخلف عن عملية السطو التي جرت على الاستراحة منذ سنوات.

الأصوات تقترب جدًّا، تبينتُ أجسادهم من كوة صغيرة بين قطع الأثاث وهم يدخلون إلى المكان، عددهم أربعة رجال، في أيديهم حقائب بلاستيكية صغيرة، يستخرجون منها فُرشًا خفيفة، يلقونها في المكان المتسع الذي كنتُ أجلس فيه منذ لحظات، أحدهم يستبدل ثيابه قبل أن يتمدد إلى جوارهم، كأنه قائدهم، يقول بصوت خشن: «كدنا نقترب.. يومان آخران ونصل إلى المقبرة». بعد لحظة صمت يتثاءب أحدهم خلالها ثم يقول بإعياء: «نرتاح غدًا ثم نأتي بعد غد». يعلق آخر: «نستطيع أن ننهي الحفر خلال يوم واحد لو زدتَ العدد». ينهره الذي يبدو قائدهم قائلًا: «أيها الغبي.. لا نريد أن يفتضح أمرنا بين عدد كبير.. ثم ما سنحصل عليه نوزعه علينا فقط فتزيد حصة كل فرد منا».

يضحك أحدهم ويعلق ساخرًا: «حصتنا؟! تقصد ما سيتبقى لنا بعد أن يأخذ «توفيق زغلول» حصته».

صُعِقتُ حينما سمعتُ اسم **توفيق زغلول!** واضح جدًّا أن هذه المجموعة تُنقِّب عن الآثار في المنطقة الصحراوية خلف الأهرامات،

يعملون بعد أن تغلق المنطقة أبوابها، جزءًا من الليل، حتى ينتهوا من عملهم على مدار عدة أيام. هل يقصدون توفيق زغلول فعلًا؟! توفيق زغلول.. السياسي الشهير ورجل الأعمال وصاحب مجموعة قنوات فضائية بالإضافة إلى جريدة يومية؟! توفيق زغلول صاحب عدة مصانع يعمل فيها عشرات المئات من العمال الذين **انتفض** بعضهم اعتراضًا على عدم رفع الأجر بشكل يتناسب مع زيادة الأسعار، وكانت النتيجة أن فصل توفيق عددًا من العمال في ضربة جعلت باقي العمال يعودون إلى عملهم صاغرين مذلولين، ولم تقدم الدولة إليهم أي عون.. بل أظهرت توفيقًا على أنه مستثمر وطني شجاع استطاع أن يقف أمام الأيادي الخفية التي تود العبث بالاقتصاد القومي من خلال تأليب البروليتاريا على الرأسمالية، وساعدت قنواته الفضائية على دعم تلك الفكرة ونشرها!

يبدو أن ذكر اسم توفيق زغلول كان كفيلًا بإثارة غضب ذلك الذي يبدو كبيرهم، فقد انفعل وهو يقول: «حصة الباشا الكبير.. هي التي تضمن لنا السلامة يا فالح.. وهل كنا نتحرك هكذا دون حمايته؟»، لكن الآخر يجيبه بهدوء ساخرًا: «لم يقدم أي حماية.. وإلا لماذا نختبئ هكذا؟!» فيقول صاحب الصوت الخشن «وهل حمايته تعني أن نقوم بالحفر نهارًا جهارًا؟! لا بد أن نتحرك في سرية تامة.. ثم يكفي أن خروج الآثار من البلاد سيكون تحت رعايته أيضًا، سعر القطعة الواحدة خارج البلاد يساوي عشرة أضعاف سعرها داخل البلاد».

CamScanner

يعود الصمت إلى المكان مرة أخرى وكأن كلًا منهم ينتظر الآخر كي يتحدث، مؤكد هو توفيق زغلول صاحب اليد الطولى.. «تنقيب عن الآثار وتهريبها للخارج يا توفيق؟!» ولما طال الصمت، أشعل أحدهم عود ثقاب.. أنكمشُ في مكاني وقد راودني شكٌّ في أن يكون قد شعر بوجودي، وقبل أن يتوغل الخوف إلى جسدي أشمُّ رائحة التبغ المحروق قبل أن ينفخ في شعلة الثقاب ليطفئها، أشعل سيجارة ثم يتجشأ الكلمات وهي تختلط بالدخان وهو يقول: «ناموا.. ولتطمئن قلوبكم.. أشعر أن ربنا سيوفقنا في هذه العملية». وكأنه ينظر إلى السماء طالبًا العون، بشكل جعلني أرغب في الخروج إليه معنفًا.. أي عقلية تلك؟! وبأي وجه ترفع وجهك إلى السماء طالبًا العون؟! لكن صورة توفيق زغلول تعود متجسدة أمام عينيَّ مع ابتسامة باهتة، قبل أن أغوص خلف صورته وأتساءل: كيف تعيش تلك الفئة وما تدعيه من وطنية وهي في الخفاء تنهب خيرات هذا الوطن وكنوز؟ يحدث أمر رهيب.. شيء سوف يتسبب في تغيير كامل في سير تفاصيل حياتي.. لم أكن أتخيل على الإطلاق أن شيئًا يكاد لا يوليه المرء أي اهتمام سوف يؤثر هذا التأثير! لكن الأشياء تُقاس بأماكن حدوثها وأزمانها، فهناك فعل ما لا نوليه أي اهتمام.. يكاد لا يُذكر في حياتنا.. ولكنه الفعل نفسه، في مكان وزمان آخرين قد يكون له شأن عظيم.

CamScanner

من ذلك ما حدث معي الآن.. فما إن انتهوا من حديثهم ويعم الصمت المكان حتى شعرتُ برعشة في جسدي من أثر البرد و«**عطسة**» آتية.. يا لها من كارثة حقيقية! يمر الأمر في لحظات وإن كانت طويلة.. فقد حاولتُ بقدر الإمكان منع تلك **العطسة** من الخروج.. كتمتُ أنفاسي.. أغلقتُ بيدي فتحتي أنفي.. هززتُ رأسي.. حاولتُ التثاؤب.. أي شيء لمنعها.. لكنها أتت..

عطست..

وانكشف أمري.

* * * *

CamScanner

(٤)

باتار

أصوات متداخلة لطيور محلقة.. نهيق حمار يبدو متوترًا هائجًا.. كلب ينبح بنهايات ممطوطة توحي بأنها أنثى.. غيوم رمادية تنتشر على صفحة السماء لتحجب أشعة الشمس حينًا وتتركها حينًا.. أرسل عينيَّ أبحث عن مَعْلَم يرشدني إلى طبيعة المكان.. لا أجد.. أشجار قليلة متناثرة على أطراف مساحات مزروعة نباتات مختلفة وعلى أطراف المكان أعشاب تنمو في غير انتظام.. أتأملها.. إنها أحراش مستنقعات.. تلك المتخلفة عن فيضان النهر.. في الجانب المواجه يبدو تحت أشعة الشمس المتكسرة **معبد** مبنيٌّ على مساحة كبيرة من الأرض.

أين أنا؟!

قطع من الكتان أغطي بها أجزاء من جسدي، وحذاء من البرديّ المجدول.. ما هذه الملابس التي أرتديها؟!

ما يلفت انتباهي أني لا أشعر بغربة في المكان، يبدو أني أعلم جيدًا تفاصيله، أو على الأقل شاهدتُها من قبل.. أدقق النظر ناحية المعبد.. بل أسير على مهل في اتجاهه وأنا أتحسس رأسي حليق الشعر.. تأملتُ حينما

CamScanner ب

وصلتْ يدي إلى مؤخرة رأسي، رفعت يدي بسرعة فقد اصطدمت بشيء لم تكن تدرك مدى التهابه، ثم عاودت تحسس مؤخرة رأسي مرة ثانية برفق وأنا أتساءل عن سبب هذا الألم! هناك تورم وأثر لشجٍّ تيبس!

أتذكر بصعوبة، أجتذب الحادثة الهاربة، أتأملها في عمق ظلام الذاكرة، هناك مَن يجذبها مني عبر سلسلة صدئة نتنازعها بقوى فكرية.. تتسع عيناي وتحتد نظراتي لأرى مَن على الطرف الآخر من تلك السلسلة الصدئة يجذبها في عنف؟! فإذا بعصبة من رجال لا ملامح لهم، أشباح من ظلام تبدو من قلب الظلام.. وجسدي ينتفض إثر عطسة يهتز لها جسدي وتكركب الخلايا.. يهجمون وأنا متجحر مثل فأر أصيب بشلل عبر نظرات حادة من هِرٍّ شرس. قبل أن أفيق من هول اللحظة أتلقى ضربة قاسية على مؤخرة رأسي، ذاك آخر شيء أدركته حتى ألفيتني في هذا المكان وبتلك الملابس!

فجأة ينتزعني صوت أجش يأتي من الخلف: «هل ستظل واقفًا هكذا حتى تتعامد الشمس؟! أسرع يا «باتار» يا ولدي.. الكاهن الأكبر في طريقه إلى المعبد.. ولم نفعل أيًا من طقوس الصباح!».

يتحرك الرجل البدين مترهل البطن، ثوبة كَتاني ناصع البياض، وحذاؤه مجدول من نبات البرديّ، مسرعًا في طريقه نحو المعبد، ما يزال يردد بعض كلمات سمعتُ منها: «ما الذي جعلنا نحتسي كل هذا القَذْر من الجعة ليلة أمس؟! إنها اللعوب المسماة «نفروتوي».. اللعينة.. كلهن لعينات».

لم يكن متاحًا لهذا الكاهن وتابعه عبُّ الجِعة.. قدر يسير منها أو من النبيذ فقط، لكن ليلة أمس كانت لها طبيعة خاصة مع هذا الرجل حينما أخذ الكاهن الأصغر معه وتنكرا في ثياب العامة، حتى إنهم وضعوا على رؤوسهم الشعر المستعار، وأمضيا معظم الليل في صحبة «نفروتوي». الرجل لا ينكر جمالها ودلالها وكيف أدخلت على جسده سعادة يفتقدها منذ فترة طويلة، إنه يخشى الإقدام على خطوة مثل هذه، فهي كفيلة بأن تفقده منصبه في المعبد.. بل قد تفقده حياته كلها إن علم كاهنه المطهر «**زوبستف عنخ**» ما حدث، مكانة الكهنة وهيبتهم لا بد أن تظل في موضعها لا تحركها الغرائز مهما تكن.

مرة ثانية ينادي: «أسرعْ يا باتار».. سمعته وشاهدتُ كل التفاصيل، ولم أدرك أني المقصود.. إنني أشعر بالتفاصيل نفسها التي شعرتُ بها عند **«مرصد مخاطبة السماء وتلقي تعاليم الرسالة»**.

لم أجد بُدًّا من التحرك خلف الرجل حينما توقف غاضبًا ينظر نحوي محذرًا إيايَ من مغبة التلكؤ أكثر من ذلك.. تذكرتُ الاسم الذي نعتني به منذ لحظات.. «**باتار**»! أي اسم هذا؟!

قبل الاقتراب من المعبد يدور ناحية اليسار، وأنا أتبعه، حتى يصل إلى شاطئ البحيرة.. يتوغل بين أحراشها فتحلق طيور القُنبر وتسرع أفراخ النهر محدثة ضجيجًا وهي تصرخ في فزع، يتوقف الكاهن كيلا يثير فزعها أكثر،

CamScanner

قبل أن يصل إلى صفحة الماء يتحرر من ملابسه، ويلقي جسده في الماء، يشير نحوي بأن أفعل مثله، فعلتُ ولم أجد أي غضاضة في أن أتحرر من ملابسي تمامًا أمامه، فقد أدركتُ ولا أعلم كيف أتى هذا الإدراك، أننا يجب أن نتطهر مما فعلناه ليلة أمس قبل الدخول إلى المعبد، لحظات ويصعد الرجل ليرتدي ملابسه، وأفعل مثله، ثم نغادر الأحراش، يترامى إلى أذني صوت خرفشة في الأحراش، يبدو أن أفراخ النهر وطيور القنبر تعود إلى أعشاشها.

اقتربنا من البوابة الأولى للمعبد، وكانت من عمودين من أحجار الجرانيت الأسود نُحِتَ أعلاهما على شكل زهرة اللوتس وتربط بينهما عارضة خشبية عليها نقوش، أتأملها لحظات فإذا بها «**تعويذة الأمان**».. أقرأ كلماتها بسهولة ويسر.. إني أدرك هذه اللغة! تتملكني الدهشة.. أتذكر أني قد فهمتُ ما تحدث به الرجل منذ لحظات بلا عناء وهو يتحدث اللغة نفسها! لا أطيل الغياب في بحر دهشتي.. أتأمل **تعويذة الأمان** تقول:

«لك التكريم حين تشرق وحين تغرب. إنك تشرق، إنك تشع، إنك تشع. يا من تُوّج ملكًا على الآلهة. أنت سيد السماء، أنت سيد الأرض، أنت خالق المقيمين في الأعالي وخالق القاطنين في الأعماق. أنت الآله الواحد الذي ولد في بدء الزمان. خالق الأرض ومكوّن الأنسان».

وعلى العمود الكائن على الجانب الأيمن نُقشت كلمات أخرى، لم أُدهش حينما قرأتها، فهي تتفق وما أقتنع به، كلمات تؤكد عبادة الإله الواحد، تقول:

«عند بوابة الأفق عملتُ أربعة أعمال جليلة: خلقتُ الرياح الأربع بحيث يستطيع كل كائن أيًا كان مكانه أن يستنشقها. وكان هذا هو العمل الأول. ثم خلقتُ الفيضان لينمو من خلاله الصغير والكبير. وكان هذا عمل آخر. ثم خلقتُ كل إنسان مساويًا لأخيه، ولم أسمح بالشر، ولكن قلوب البشر خالفت إرادتي، وكان هذا ثالث أعمالي، وجعلتُ قلوبهم لا تفكر بالغرب، وجعلتهم يرفعون ابتهالاتهم لآلهة المحبة. وكان هذا آخر أعمالي. لقد خلقت الآلهة من عَرَقي والبشر من دموعي».

لم يتوقف الرجل ذو الكرش المتدلية لقراءة الكلمات.. يبدو أنه يحفظها أو أَلِفَهَا، أو هو لا يهتم.. لكنها استوقفتني حتى أفقتُ على قبضة يده تُمسك بذراعي وتجرُّني خلفه بقوة إلى داخل المعبد، كنتُ أود لو أقرأ ما كُتِب على عمود البوابة الأيسر، لا يهم.

أسير وأنا أنصت إلى حفيف ثيابي وصدى خطواتي على أرض المعبد الصخرية المصقولة، والرخامية أحيانًا، يتأملني الرجل في دهشة، نظراتي المتأملة في المكان جعلته يقف كي يسألني: «ما بك يا باتار.. كأنك تدخل المعبد للمرة الأولى؟!» كنتُ أرغب في أن أخبره بأن ما يقوله هو عين الصواب، لكني أمسكتُ.. بديهي أن أقدم إجابات وأنا لا أمتلك تفسيراً لما يحدث.

وصلنا إلى حجرة جانبية في المعبد، هي حجرة تطهير الكهنة، أتأملها وأنا أملأ صدري بخليط من روائح رائعة، هي بلا شك روائح متخلفة عن

CamScanner

تطهير الكاهن في هذه الغرفة الصخرية.. أرضيتها وجدرها من جرانيت مصقول بمهارة فائقة، صخور شُقت بأشعة ليزر. أتوقف وأنا أتأمل تلك الكلمة الأخيرة «ليزر».. من أين أتيتُ بها وماذا تعني؟! أنا في حيرة من أمري.. تائه لا أعلم أين أنا أو مَن أنا!

في جانب الحجرة حوض مرتفع يمتلئ بالماء عبر فتحة خارجية تأتي به عبر مجرى صخري يمتد من الاتجاه الجنوبي للمعبد، هناك.. في بداية هذا المجرى الصخري حوض عظيم يُملأ كل صباح بالماء العذب كي يُستخدم في داخل المعبد نقيًا باردًا. يمد الرجل يديه ليفتح صنبوره فيتدفق الماء عبر أنبوب رقيق من النحاس حتى يستقر في حوض جانبي في متناول الأيدي، يتأملني الرجل وقد علت وجهه آيات الغضب.. أدرك ما يريد بلا كلمات.. أتحرك لأصبَّ الماء فوق مقعد الكاهن الصخري لأغسله مرة بعد مرة.. بينما يأتي هو بقنينة، ما إن ينزع غطاءها حتى تنتشر رائحتها النفاذة في المكان، يسكب منها قطرات في الحوض الصغير، ثم يذيب النطرون في الماء.

حينما انتهيتُ من غسل مقعد الكاهن.. يشير الرجل ناحيتي آمرًا بتنظيف أرض الحجرة من الماء المتخلف عن غسل المقعد، يترك الغرفة وقد بدا على وجهه الضيق، إنه يخشى، كل صباح، الكاهن «زوبستف عنخ» الذي يصحو بعد نوم متقطع قلق يجعله دائم الشكوى من آلام في مؤخرة رأسه.. لا تهدأ إلا بعد التطهير وتناول طعامه في الصالة الشمالية المطلة على البحيرات وأحراشها.

CamScanner

أخرج من حجرة التطهير إلى حجرة جانبية صغيرة تحتوي على الكثير من المعدات والأدوات، أحمل مقشة مصنوعة من ليف النخيل وأعود إلى حجرة التطهير، أعمل بتلقائية غريبة كأني أحفظ تلك التفاصيل.. يبدو أني قمتُ بها مرات ومرات.. أكنس الماء حتى تجف صخور أرض الحجرة. أخرج لأنتظر واقفًا أمام بابها، منتصب القامة حتى يأتي الكاهن ومن ثم تبدأ عملية التطهير. عملية تطهير الكاهن تجري كل صباح وفي بعض الأيام كانت تجري في المساء أيضًا.

الكهنة هم الحكام الفعليون على الأرض، يحركون الملك كيفما شاؤوا، وإن كانوا يفعلون ذلك كأنهم يتحركون بأوامر الملك نفسه، هم يعلمون والملك نفسه يعلم أن كل ذلك يدور في إطار من الخداع المتفق عليه.

من قبل كان رئيس القبيلة هو أكثرهم حنكة ودراية بتفاصيل الحياة ومكرهًا، وغالبًا ما يكون أكبرهم سنًا، فهو يعلم فنون القتال، ويمتلك أسرار السحر ومغالبة الطبيعة، القبيلة تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، إنه القائد الإداري والرئيس الديني الذي يعلن الأوامر الإلهية. تغيرت النظم من القبيلة إلى الإمارة، ثم إلى الدول فشق على كبيرهم أن يمارس طقوسًا كان عليه ممارستها من قبل، فحمل اللقب اسمًا لكنه ندب رجالًا ينوبون عنه في معابد المدن، فأتى بالكهنة لأنهم الأسرع في الوصول إلى قلوب العامة والأكثر تأثيرًا فيهم.. وحينما يموت يحل ابنه محله، لا بد من معرفة مَن هو

CamScanner

الأقوى.. الكهنة أم ابن الحاكم؟ هنا نجد أن الكهنة قد بسطوا نفوذهم، ولِمَ لا وهم المتعاملون مع الناس في مدنهم وقراهم عند زيارة المعابد، ولِمَ لا والملك الجديد حديث عهد ويجب أن يحظى بمباركة كهنة المعابد ليرضوا عنه فترضى عنه العامة، فيجدد الملك الجديد قرارات تعيين الكهنة عند اعتلاء العرش، ويحمل الكهنة قرارات التعيين للتباهي، وكما قال أحدهم **«إن الآلهة أعدت لي السبيل، إن الملك هو الذي أرسلني لاجتلاء طلعة الإله»** فيقنع الملك بقوته بأنه هو الذي يُعين، ويبارك الكهنة من خلال قوتهم جلوس الملك على العرش، والعامة تصفق!

الرجل الذي يأمرني بالعمل.. الذي يقف الآن في ظل البوابة الرئيسية للمعبد في انتظار الكاهن المطهر «زوبستف عنخ».. يُدعى **ينحاور** وهو من طبقة الكهنة **«الأتقياء»** الذين يقومون بأعمال محددة مثل حمل القارب المقدس، والسقاية في المعبد، ورش الماء، ومراقبة الدهانين والرسامين، ورؤساء الكُتاب، والعمال اليدويين للملك المقدس، أما أنا فقد كنتُ حتى وقت قريب من طبقة «الرعاة» الذين يحملون الأشياء المقدسة، والآن أصبحتُ من صغار طبقة الكهنة «الأتقياء» في المعبد الكبير في بلدة **«الحيبة»**.[1]

---

(١) قرية **الحيبة** تابعة لمركز الفشن، محافظة بني سويف. يوجد بها بقايا أسوار مدينة منذ عصر الأسرة ٢١، كما يوجد بقايا معبد الملك (شيشنق) من الأسرة ٢٢ الذي بناه للإله (آمون)، وأهم ما خرج منها مجموعة أوراق البردي التي تحوي القصة الشهيرة لمغامرات البحار (ون أمون). وقد كانت هذه المدينة ذات أهمية خاصة لكونها حدًا أساسيًا فاصلًا بين الشمال والجنوب، وكان اسمها قديمًا حت بنو. وفي أثناء أحداث قصتنا كانت تسمى توزوي، لكننا سوف نستخدم اسمها الحالي «الحيبة».

بـ CamScanner

أتذكر يوم دخولي المعبد لأنضم إلى الكهنة.. كنتُ أتأمل كل شيء حولي في ذهول وسعادة، تعلق بأنفي روائح المكان الأولى حتى اليوم، صوتي المتهدج وأنا أتلو التعاويذ خلف الكاهن المطهر في قدس الأقداس، فقد مثلتُ في حضرة الإله، وكنتُ شابًا ممتازًا حين قدموني إلى أفق السماء، وخرجتُ من النون «**الماء الأزلية**» وقد خلصت من كل ما كان عالقًا بي من مساوئي، وخلعتُ ملابسي، وخلصتُ من الدهون التي كانت عالقة بي كما يتطهر **حورس وست**، وتقدمتُ إلى حضرة الإله في قدس الأقداس مملوءًا بالرهبة أمام قوته.

لا أعلم لماذا يسري بداخلي قلق لم أعهده، فما سنقوم به اليوم قمنا به من قبل مرات ومرات، نعم الأمر يمثل عبئًا بمجرد أن ينتهي نشعر بعده براحة عظيمة ونمارس طقوس باقي اليوم في هدوء، سعداء بعطايا الآلهة وقرابين نعيش عليها.

أخبرني التقي «**ينحاور**» الذي أتبعه بأنه منذ زمن، وكان في صدر شبابه، كان يشاهد من الخيرات والكنوز الحقيقية ما لم يعد موجود الآن، فقد اختلف الزمان وتدهورت الأوضاع، إنهم طبقة الكهنة لم يتأثروا كثيرًا بهذا التدهور الذي تمر به البلاد، تأتيهم القربات مع حصة المعبد من الزرع والصناعات.. لكنها قلت عن ذي قبل.

القلق الذي يسري بداخلي كان مبعثه ذلك القلق البادي على التقي الرابض عند البوابة الرئيسية في المعبد، ألتمس له العذر.. فقد تأخر الكاهن

CamScanner مسوحة ضوئيا بـ

«زوبستف عنخ» عن موعده اليومي، المفترض أن يخرج من حجرة التطهير بعد تألق الشمس ليشرق هو على الأرض.

من بعيد يأتي صوت موكب الكاهن، موكب صغير يصحبه في رواحه وغدوه، أنتصبُ مكاني وأشد جسدي، أقف مثل تمثال، فإن تحرك التمثال لا يجب أن أتحرك أنا حتى يمر الكاهن إلى الحجرة ويتحرر من ملابسه ثم أدخل بصحبة **«التقي»** لإتمام عملية التطهير. أستمع إلى طنين ذبابة بالقرب من أذني حتى أشعر بها تحط على رأسي، ذلك الشيء الرهيب الذي يشعرنا بقيمة حركة اليد، تلك الحركة التي لا تكاد تذكر لهش ذبابة، أفتقدها الآن وأنا أشعر بدبيب الذبابة على جلد رأسي .. رأسي حليق وحاجبايَ أيضًا، إزالة شعر الرأس والحاجب شرط أصيل للكهانة، الشعر يحوي الحشرات ويشغل النفس عن صفاء الذهن في التعبد، وكانت لتشغلني في لحظات مثل هذه يتوجب عليَّ فيها الانتصاب مثل تمثال، لكن ها هي ذبابة تضرب هذه النظرية في مقتل.

يترك الكاهن «زوبستف عنخ» موكبه المرافق في الردهة الرئيسية للمعبد، يدلف مسرعًا إلى غرفة التطهير وهو يشير ناحية «التقي» بأن ينتظر في الخارج، ومن ثم أنتظرُ أنا أيضًا.. يتأملني «**ينحاور**» في دهشة كأنه ينتظر مني إجابة عما يحدث! فهل عَلِمَ الكاهن المطهر ما فعلناه ليلة أمس؟ أنا أجهل من أن أعلم ما يحدث يا سيدي «التقي»، لكن ما أدركه أن هناك أمرًا عظيمًا يحدث، تعبيرات وجهي دلت على ذلك.

CamScanner

يصل إلينا صوت الماء يتهاوى إلى الأرض الصخرية، بعدها يخرج الكاهن «زوبستف عنخ» والماء يتقاطر من وجهه ورأسه الحليق فقط، يتوجه مسرعًا ناحية الصالة الشمالية وخلفه «التقي»، أما أنا فأدخل إلى غرفة التطهير لأجفف الماء المنسكب على أرضها الصخرية قبل أن أعود لأقف بالقرب من الكاهن الذي يتناول طعام الصباح، وقد أشار للكاهن **«التقي ينحاور»** بالجلوس ليتناول الطعام معه.

تَعَجُّل الكاهن طقوس التطهير الصباحية من الأمور النادر حدوثها، بالأحرى لم تحدث منذ أن دخلتُ إلى المعبد منذ عدة سنوات. عمومًا شعرتُ براحة بعض الشيء وأنا أشاهد سيدي «التقي» يجلس مع الكاهن المطهر ويتناول معه طعام الصباح، هو إذًا لم يعلم شيئًا عن الليلة الماضية.

الكاهن المطهر يتناول طعامه مشغول البال، ينظر ناحية البوابة الرئيسية للمعبد بين فينة وأخرى، لم يتأمل صفاء البحيرة أمامه، ولا يتابع الطيور المحلقة في رواحها وغدوها كما كان يفعل كل يوم، ولم تظهر على ملامحه السعادة اليومية التي تنم عن راحة وهناء، يمضغ الطعام في توتر.. لقيمات قليلة يقف بعدها ليسير ناحية الجدار الصغير الذي يفصل بين الصالة والأرض الموصِّلة حتى شاطئ البحيرة. يتبعه «التقي» ولم يهمل نظرة يلقيها نحوي يكرر فيها سؤاله عما يحدث، وأكرر أنا مطَّ شفتيَّ علامة جهلي.

CamScanner

اقترب لرفع بقايا الطعام عن المائدة برفقة كاهن آخر من صغار الأتقياء مسؤول عن مائدة الصباح، يصلني صوت الكاهن المطهر وهو يخبر «التقي» بأن المعبد في انتظار زيارة «أحمس بن بتحارمبي».. تختفي الكلمات لأن الكاهن نطقها همسًا، ولأني ابتعدت خطوات للخلف بما حملته من طعام المائدة الصباحية.

لقيمات من خبز الشعير مع قليل من زيت، فلم يكن يُسمح للكهنة داخل المعبد بتذوق طيب الطعام، فإن كانت هناك ذبائح - وهي قليلة - فإن الكهنة يتحاشون تناول الرأس والأرجل، والكهنة لا يأكلون لحم البقر أو الخنزير بطبيعة الحال، ولحم الماعز من المحرمات، وكذلك الحمام والبجع والأسماك البحرية، كما كان أكل الفول والثوم والبصل والكراث من المحرمات على الكهنة، لما تُخلّفه من روائح وتقلبات في البطن، أما بعيدًا عن العيون فللكهنة مطلق الحرية في الاستمتاع بما يمتلكونه من كنوز وثروات تأتي إلى المعبد.

بعد مدة مرت طويلة لاقترانها بوجوم وترقب، يكون القلق فيها قد ساد كل الحضور في المعبد، يأتي أحدهم ليعلن أن الكاهن الأكبر «أحمس بن بتحارمبي» قد اقترب من البوابة الرئيسية للمعبد، يقف الكاهن المطهر زوبستف عنخ مسرعًا وخلفه ينحاور الكاهن التقي، وأنا، وعدد غير قليل من رجال المعبد، نهرول جميعًا لنقف أمام البوابة الرئيسية، وقد صعدت

يا بـ CamScanner

شمس برمودة إلى وسط السماء، من بعيد يتراءى لنا موكب الكاهن الأكبر الآتي من الأرض الجنوبية، نعلم أنه الكاهن المقرب من الملك «دارا» الذي اعتلى أريكة الحكم منذ تسع سنوات. لا بد أن تلك الزيارة المفاجئة خلفها الكثير من الأمور لذا غلب التوتر والانفعال الكاهن المطهر.

تتم مراسم استقبال سريعة لا يُفصح خلالها الكاهن **أحمس** عن سبب زيارته بينما يتزايد توتر الكاهن «زوبستف عنخ» رغم ما يحاول رسمه على وجهه من علامات الرضا والهدوء.

بينما تتلى تراتيل المعبد يميل الكاهن الأكبر ناحية الكاهن المطهر ليهمس في أذنه بكلمات لا تصل إلينا نحن الكهنة الصغار، والعاملين في المعبد، وضاربي الآلات الموسيقية والصاجات، لكن الأمر يتضح حينما يشير الكاهن المطهر بيديه علامة التوقف وبهدوء يومئ ناحية «**التقي ينحاور**» الذي أتبعه، فيقترب منه ليستمع إلى كلماته قبل أن ينتصب في مكانه، كأنه يتأمل الكلمات التي أُفرِغت في أذنه ويعيد ترتيبها، بعدها يُسرع وهو يشير ناحيتي بأن أتبعه، أسرعُ خلفه بينما ينفض الجمع مع إشارة الانصراف التي أشار بها الكاهن المطهر.

لا أعلم إلى أين نتجه، كنا نسير بسرعة محدثين ضجة في بهو الأعمدة قبل أن ننحرف ناحية اليسار، ومنها إلى ممر طويل يؤدي إلى حجرات الخدم واستقبال القرابين، قبل أن أسأل الكاهن «**التقي ينحاور**» يتوقف

CamScanner ـب

ليقول: «الكاهن الأكبر **أحمس** يريد أن تُقام أمامه شعيرة تقديم الثور كقربان، فعلينا أن ننجز المهمة سريعًا يا «باتار».

تظهر الدهشة على وجهي وأنا أنظر إليه مما جعله يتوقف ليتأملني مستفسرًا، أجبته وأنا أُومئ ناحية الزُريبَة القريبة من المعبد من جهة الجنوب التي يجري الاحتفاظ فيها بما يُقدم من قرابين، وأقول «الزُّريبَة لا ثيران فيها ولا حتى ماعز يا سيدي التقي». يقبض يُمناه في غضب وما يزال يتأملني وإن كان أكثر شرودًا.. إنه يعلم أنه لا ثيران فيها أو حتى كبش هزيل، كل ما فيها عدد من إوزات نحيفات ودجاجات هزيلات، بالإضافة إلى الشعير وزلعات العسل والكثير من الجعة والنبيذ بعد موسم حصاد الكروم المنقضي منذ أسابيع، القرابين المقدمة إلى معبد الحيبة في تناقص منذ عدة سنوات، الفقر أيضًا سبب رئيس في نقص القربات إلى درجة انعدامها، قليل فقط مَن يأتي بالقربات للتعافي من مرض أو للتخلص من روح شريرة.

يبدو أن تسارع الأحداث وعنصر المفاجأة قد جعلاه ينسى، فقد تغيرت ملامحه، تصعد الدماء إلى رأسه فيتوهج مثل ثمر جميز ناضج. أطاح بقبضة يده في الهواء بينما يرتد عدد من العمال كانوا قد تأهبوا لمرافقتنا إلى الخلف خطوات في انتظار ما يسفر عنه حديثنا، قال وهو يكتم غيظه ونظرات نارية تُرسَل من عينيه إلى الاتجاه الذي يجلس فيه الكاهن الأكبر مع الكاهن المطهر «وما العمل يا باتار؟»

ـا بـ CamScanner

في اللحظات القليلة التي يشرد فيها كانت فكرة سريعة قد مرت على خاطري، فتحدثتُ بها في طلاقة ويسر: «نذهب إلى أملاك الشريف «**رام عنخ** ».. أعلم أن لديه عددًا من الثيران.. شاهدتُ العمال يطعمونها من أرضه قبل الحصاد».

لا ينتظر الكاهن التقي للاستفسار أكثر، لا يوجد أمامه أكثر من حلٍّ كي يختار أفضلها، هذا هو الحل الأمثل الآن، وسوف يدفع «رام عنخ» الثور نحو المعبد دفعًا إن عَلِمَ بوجود الكاهن الأكبر، يتحرك وهو يقول: «هيا.. لنسرع يا باتار»، ويده تشير نحو العمال بأن يتبعونا.

الطريق إلى ضيعة الشريف «رام عنخ» ضيقة، فقد جار الفلاحون عليها عامًا بعد عام ليضيفوا منها إلى أرضهم، حتى لم تعد تستوعب عربة تجرها الخيل رائحة وأخرى غادية في الوقت نفسه كما كانت من قبل. نباتات جافة تتناثر حولنا، يتأملنا رجال ومعهم أولادهم يعملون في أرضهم لتمهيدها أو حمل أعوادها الجافة، الطيور تحلق باحثة عن شجيرات تنعم في ظلها بنسمات رطبة، نباح كلب يأتي من بعيد ولا أعلم لماذا بحثتُ عنه وأنا أهرول.. لم أجده.

بعد مدة يقطعون فيها نصف المسافة هرولة، يلعن الكاهن ينحاور العجلة.. لو أخبرهم هذا الأحمس بزيارته من قبل وأرسل رسولًا يحمل قائمة بما يريد، لكان أعد كل شيء وسارت الأمور على أفضل ما يكون، لكنهم

هكذا دائمًا ذوو النفوذ يصنعون ما يتبادر إلى أذهانهم في الوقت نفسه، كأنه مسلمات وبديهيات، وعلى الآخرين التنفيذ مباشرة! ألا يدركون أن الأعمال لا تُنفذ هكذا بالرغبات.. لا بد من ترتيبات وإعدادات! ولكن عليه الآن أن ينفذ كل شيء، وألا يُظهر حنقًا حتى لا يلحظ العمال ما يخفيه في نفسه من أمور لم يأتِ وقت إعلانها، وكي يظهر أمام الكاهن الأكبر أحمس بمظهر الخادم المطيع.

ينحاور هو الرجل الثاني في هذا المعبد بعد الكاهن المطهر «زوبستف عنخ» ذلك الكاهن الذي يقبع في مكانه منذ سنوات طوال لا يزحزحه أي شيء، تتردد بداخله كلمات مؤلمات: «حياتك توشك على الوصول إلى نهايتها يا «ينحاور» وما زلت تقيًا.. متى تصعد إلى كاهن مطهر ومدير للمعبد؟!» يكظم غضبه ويسير مهرولًا، لقد فعل الكثير وأرسل سرًا الكثير من أخبار المعبد والمدينة إلى رجال عظام يجلسون حول الحاكم ويرغبون في استمرار في إظهار درايتهم بكل صغيرة وكبيرة في المقاطعات، يأمل أن يحظى برعايتهم واختيارهم له ذات يوم، لا يُفصح ولا يجب أن يفصح.. لكن بداخله يقين بأن هذا اليوم قد اقترب.

يمط شفتيه امتعاضًا وهو يتأمل السحب الكثيفة الآتية من ناحية الشمال، يهمس لنفسه: «أي سحب هذه في هذا التوقيت؟! » ينقبض صدره وهو يتابع لاهث الأنفاس «يبدو أنه يوم شؤم».

CamScanner

بعد فترة يقف الشريف **«رام عنخ»** أمام بوابة منزله المصنوعة من عارضة خشبية فوق جذعي نخل، المنزل من الداخل بسيط، وإن كان صاحبه يُفضل أن يُطلق عليه قصرًا، لكن ما يميزه هو اتساع غُرفه والشرفات الكثيرة بالإضافة إلى أنه أحد أوائل المنازل في **الحيبة** التي بنى صاحبها طابقًا ثانيًا يجلس في شرفته متفاخرًا وهو يستقبل نسمات الصيف في هذا المكان المرتفع عن الأرض ويجرع الجعة الباردة في هدوء وهو يتابع من بعيد حركة العمال في أرضه ورعاية شؤونه حول قصره، وعلى مرمى بصره يشاهد المعبد الكائن على أطراف **الحيبة.**

يقف الشريف رام عنخ أمامهم وقد رفع يديه في الهواء علامة المغلوب على أمره، فبعد أن قرر في داخله رفض طلبهم لأن ما يملكه اليوم ليس بالشيء الكثير مقارنة بما مضى ليعطي منه ثورًا كاملًا! والثور ليس بالأمر الهين، فلو أنهم طلبوا عددًا من الإوَزّ والديكة وأباريق الجعة والنبيذ لفعل، لكنهم يطلبون ثورًا!

بعد لحظات من التفكير يحرك يديه في الهواء هكذا وهو يقول صاغرًا: «ليدخل العمال إلى الحظيرة جنوب قصري»، ثم أشار إلى أحد خدمه الذي يقف على مقربة يتابع، وقال له: «اذهب معهم يا رجل، وفك لهم قيد الثور الأحمر.. ها.. الأحمر «.. فقد كان هناك عدد من الثيران، وهو يُفضل الثيران السوداء والبيضاء المزركشة بالأسود، الثور الوحيد المختلف الذي لم

يكن يفضل لونه هو هذا الثور الأحمر، لكنه أدرك مباشرة أن اختيار هذا الثور بالذات قد يوحي إلى الكاهن التقي وأتباعه بأنه ثور مريض مثلًا، فأكمل بسرعة يقول: «الثور الأحمر لحمه وفير عكس الثيران الأخرى».

يتحرك الخادم وخلفه العمال بينما يمد **«رام»** يده أمام الكاهن في اتجاه الطريق التي سيأتي منها العمال يسحبون الثور، ثم يشير نحو شجرة صفصاف قائمة بجوار جدول صغير يُستخدم في نقل الماء المخزون في أبيار من أيام الفيضان، يسير الكاهن التقي إلى جواره وخلفهم باتار، الشريف رام عنخ يتحدث قائلًا: «لولا مكانتكم في قلبي ما وافقت على خروج ثور عظيم كهذا من ضيعتي.. إنه كما تعلم يُستخدم في جر العربات وفي حرث الأرض.. أما وقد طلبه سيدي الكاهن المطهر فلا يليق بي أن أردَّ طلبه».

يبتلع الكاهن التقي غضبه المتزايد، ويرسم على ملامحه ابتسامة خرجت باهتة، لا يمتلك أي قدرة على تلقي مثل هذه الكلمات التي تحمله فوق طاقته، إنهم في داخل المعبد يجلسون في هدوء ينتظرون حفل ذبح ثور القربان وهذا المدعو «رام عنخ» هنا يُقَرِّعَهُ بكلماتٍ تتطلب منه توجيه الشكر، ثم إن «رام عنخ» ذكر اسم الكاهن المطهر ولم يذكر اسمه هو! عمومًا يتماسك لحظات قبل أن يقول: «تعلم مكانتكم عندي أيها الشريف رام عنخ، ولهذا اخترتك أنت خاصةً، وسوف أخبر الكاهن المطهر بموقفك الشجاع هذا».

يتفاخر الشريف **«رام عنخ»** أكثر حتى ينتفخ صدره مثل ذكر الإوَزّ ويقول: «إننا أثرياء الحيبة.. وأنا على وجه التحديد بصفتي كبيرهم.. لا نمتلك القدرة على صد رغبات المعبد وكهنته.. رغم ما فعله كهنة المعبد من قبل».. يقول هذا وهو يُلمح إلى أمر خفي يبدو أن الكاهن التقي يعلمه جيدًا، ويبدو أنه أمر سيئ؛ لأن علامات أسى واضحة ارتسمت على وجهه وهو يقول: «لا داعي الآن للحديث عن هذا الأمر.. خاصة والكثير من تفاصيله ما تزال مبهمة»، تكاد ضحكة ساخرة تفلت من الشريف **«رام عنخ»** وهو يُعقب بسرعة: «لا شيء مبهم أيها الكاهن.. كلنا نعلم التفاصيل.. أهل الحيبة كلهم يعلمون.. لكن القليل مَن يُفصح، وأنتم سكان المعبد وكهنته ترفضون الاعتراف بما حدث حفاظًا على قدسية المعبد وهيبته»، كاد الكاهن التقي ينحاور ينفجر من فرط الضغط عليه، هو الآن في حاجة للتخلص من الشريف رام عنخ وغطرسته بل اتهاماته الواضحة للمعبد وكهنته.. في حاجة أيضًا للإسراع بالثور إلى المعبد وبداية الطقس المقدس قبل أن يشعر الكاهن الأكبر «أحمس» بالضجر من طول الانتظار، في قلبه يدعو الإله العظيم وآلهة معبده بأن ينقذوه مما هو فيه.

يسود الصمت لحظات ونظرات التباهي تتناثر من عينيّ الشريف، بينما يعبث الكاهن التقي بظفر سبابته في أسنانه، وعلى مقربة يقف باتار متابعًا قبل أن يتحدث في وقار: «هيا يا سيدي الكاهن التقي، فقد أتى العمال يسحبون الثور الأحمر»، ولم يكمل بأنه ثور نحيل على عكس ما كان يتحدث به الشريف رام عنخ، لكن ابتسامة خفيفة ارتسمت على وجهه.

CamScanner ب

يسحب عدد من العمال الثور في نهاية الركب الذي يتقدمه الكاهن التقي وباتار، يقول الكاهن استهلاكًا للوقت وهم في الطريق حتى المعبد: «قلما نُقدِم على ذبح ثور مثل هذا، إن ثروة المعبد من الطعام والشراب والملابس والعطور تُقدم للإله المعبود وما يتبقى منها يُقسم بين الكهنة والموظفين في المعبد». فيهمس باتار: «لم أشاهد تقديم قرابين حقيقية للإله يا سيدي الكاهن التقي». ينظر نحوه ينحاور في استياء وكأنه يقول: «لماذا لا تجارِني في الحديث يا باتار؟»، ثمة رجال في مناصب عليا ومكانة رفيعة يكذبون وينتظرون من تابعيهم مسايرتهم في الكذب، فإن ظهر مَن يخبرهم بالحقيقة لأنها الحقيقة وليس من قبيل التعمد لإظهار كذبهم، استاؤوا منه ونهروه، ورسموا على وجوههم تلك العلامات التي يرسمها ينحاور الآن قبل أن يقول بصوت هادئ يسمعه باتار فقط: «قليلًا ما كنا نُقدِّم القرابين للإله.. إنما يجري توزيعها نزولًا من قمة الهرم حتى سفحه». يومئ باتار إلى علامة معرفته بالتفاصيل ويقول: «لماذا يُصر الكاهن الأكبر **أحمس** على تنفيذ هذه الشعيرة أمامه اليوم؟!»، يتوقف الكاهن التقي لحظة واحدة يتأمله فيها قبل أن يكمل المسير، ودائمًا ما يفعل تلك الحركة حينما يأتي مَن أمامه بأمرٍ لم يكن قد مر على تفكيره، وإن كان يعلم الإجابة والتفاصيل، في اللحظات التالية بدأ يبحث عن إجابة للسؤال الذي ألقاه باتار عليه، لماذا اليوم؟ ولماذا هذه الشعيرة خاصة وهي من شعائر المعابد الكبرى؟ المعابد الغنية! بل زاد على هذا التساؤل سؤلًا آخر، ولكنه لم يفصح عنه، بل همس به في داخله:

CamScanner

«لماذا أتى الكاهن الأكبر؟!» لم يجد إجابة لهذا السؤال، ويقرر أن يترك الأمور تُفصح عن خباياها، ولو أعملَ فكره سنوات ما توصل إلى الإجابة التي سوف تظهر بوضوح خلال الأيام القادمة.

وصلوا إلى الساحة الجنوبية للمعبد المخصصة لتقديم القرابين، أخبر الكاهن المطهر ببدء تنفيذ تفاصيل طقس ذبح الثور قربانًا. على حافة الساحة الجنوبية وضع العمال عددًا من المقاعد أسفل سقيفة مصنوعة من سعف النخيل المجدول بحبال من ألياف الكتان الخشنة، قليلًا ما كانت تُستغل هذه السقيفة في السنوات الأخيرة نظرًا لقلة أو عدم ذبح الثور أو غيره من الحيوانات قرابين، أو ممارسة أي طقس خارج صالات المعبد وحجراته.

يجلس الكاهن الأكبر **أحمس** بجوار الكاهن المطهر **زوبستف عنخ**، وعن يمينه يجلس الكاهن التقي **ينحاور**، وخلفه يقف **باتار**، بينما يبدأ عدد من صغار الكهنة الأتقياء بصحبة عمال المعبد في ممارسة تفاصيل الطقس. يقف الثور خائفًا يترقب، وعيناه تجولان بين ذلك العدد المحيط به في مكان لم يدخله من قبل، علامات توحي باستشعاره اقتراب الخطر، يقذف كتل الهواء من منخاره مختلطة برذاذ مخاطي، تبرق عيناه معلنتين تحفزه للإطاحة بمن حوله، لا يعلم أن ما يدور في رأسه معلوم لدى الحضور، الرأس الكريه الذي يبغضه المصريون لأنه محل اللعنات والتخلص منه أحد أهم تفاصيل طقس هذه الشعيرة.

CamScanner

يشعل أحدهم النيران بالقرب من المذبح.. ترتفع ألسنتها بشكل يلفت انتباه الثور، وقبل أن يفيق ويحاول الابتعاد عن النيران لا يجد لديه القدرة على الحركة، فحينما بدأت النيران في الاشتعال يتأملها الثور بتركيز شديد، يستغل العمال انشغاله ليقيدوه بحبال الكَتان ولفائف النخيل حول ساقيه الخلفيتين ثم يسحبون الحبل ذاته ليدور حول الأماميتين في خفة لم يشعر بها كثير من الحضور الذي يتابع النيران وهي تعلو فجأة بعدما سُكب عليها الزيت.

ينتفض الثور مكانه لحظات محاولًا التخلص من قيوده، ثم ما يلبث أن يتوقف لفشله في التخلص من القيد ولسبب آخر.. فقد شعر بشيء بارد ينساب على جسده.. فقد أتى أحد العمال بآنية نبيذ وصبها على مناطق متفرقة من جسد الثور، في اللحظات التالية يتم كل شيء بسرعة، الكهنة يتابعون العمال وهم يتحركون في خفةٍ ورشاقة وعليهم آيات السعادة.. فاليوم تُعمر الموائد باللحم.. يُمسك بعضهم بطرف الحبل الذي يُقيد سوق الثور ويدور ليعتلي ظهره، بينما يُمسك البعض الآخر رأس الثور وذيله، وفي لحظة واحدة يشدون الحبل إلى اليمين، بينما يُلوى الرأس، ويُجذب الذيل إلى اليسار، يسقط الثور على جانبه الأيسر في حركة مباغتة يفقد على إثرها القدرة على التفكير أو الحركة، وقبل أن يفيق من ذهوله يُعمل

CamScanner

أحدهم سكينًا حادًا في رقبته التي يمسك بجلدها السميك أحدهم مقابل آخر يجلس فوق رأس الثور ليفقده القدرة على الحركة.

تسيل الدماء الساخنة، بينما يصطف عشرة من الكهنة المرتلين في ثيابهم البيضاء على أطراف ساحة المذبح يبتهلون إلى معبودهم في أداء جماعي قائلين:

«إن الآلهة تفعم بالسرور والفرح، فأنت تعمل على إثراء قرابينها وازدهارها. بقدرتك وسطوتك عملت على حمايتنا.. إن الإله الأعظم يشمل الحيبة بالخير والنماء.. إنه المأوى والملجأ الذي لا يلحق أي لاجئ بداخله أي ضرر.. إنه يتماثل بالآلهة سخمت التي تجابه أعداء إيجبتوس المهاجمين حدودها».

في هذه اللحظات يكون بعضهم قد فصل الرأس عن الجسد، وألقاه جانبًا، بينما أعمل الباقي أيديهم في سلخ جلد الثور. أما الذين يقفون بجوار الرأس المقطوع يشيرون إلى الكهنة المرتلين فيقتربون في هدوء شديد، ويلتفون حول الرأس الذي يقطر دمًا، بينما تزال عينا الثور جاحظتين تحملان علامات غضب ورعب، فزاد ذلك شكله المخيف الذي يؤكد ضرورة تحمله اللعنات كافة قبل أن يُحمل ويُلقى في الماء، فلا يؤكل لحم أي رأس في طول البلاد وعرضها.

تبدأ جوقة الكهنة في صبِّ اللعنات العامة والخاصة على الرأس في صوت مسموع يماثل طريقتها نفسها في التراتيل التي كانت تشدوه بها منذ لحظات، لكنها الآن غاضبة على عكس ما كانت عليه من هناءة وخشوع وقت الابتهالات الماضية.

ينتهي العمال من سلخ جلد الثور وقطع السوق والذيل من منبته وتفريغ الأحشاء، وتُحمل كلها مع الرأس لتُلقى في الماء وفقًا لمعتقد أهالي **الحيبة**.. يملؤون فراغ البطن خبزًا نقيًّا وعسلًا وزبيبًا وتينًا وبخورًا ومُرًّا، يأتي آخرون بإناء عظيم مملوء بالزيت يسكبونه فوق الثور الذبيح، وتبدأ مرحلة الطهي أو الشواء الهادئ، فيشعلون النار ويغذونها بالزيت بين الحين والآخر حتى ينضج لحم الثور، وتستمر الجوقة في تلاوة التراتيل للآلهة حتى تتقبل هذا القربان العظيم.

مع بداية هذه المرحلة وهي الأخيرة في شعيرة تقديم الثور قربانًا في المعبد يقف الكاهن الأكبر **أحمس** ليتوجه إلى غرفة الكاهن المطهر الخاصة، هو يعلم أن لا أحد يستطيع أن يستمع لما سيدور بينهم من أحاديث، وهذا ما استشعره **«زوبستف عنخ»** الكاهن المطهر **وليشوفي**[1] المعبد فلم تكن عادة أن يدلف الزائرون إلى الحجرة الخاصة، إنما يجلسون في بهو الأعمدة..

(١) ليشوفي المعبد: هو المسؤول الإداري عن المعبد، المسؤول عن كل دخل المعبد وما يرد إليه من «الوقف والقرابين».

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

أمام المذبح.. في الشرفات البحرية المطلة على البحيرة.. أما الحجرة الخاصة فهذا يعني خطبًا ما.

يصلان الحجرة الخاصة تاركين الجميع حول لحم الثور الذي تفوح رائحة شوائه لتملأ المكان. يبدأ الكاهن **أحمس** كلماته قائلًا: «ما قدمتموه من قربان يدل على ما يتمتع به المعبد من ثراء»، يتأمله الكاهن المطهر وهو يمط شفتيه وبداخله دهشة يواريها، يود لو يقول: «أي ثراء تتحدث عنه أيها الكاهن الأكبر، أنا نفسي لا أعلم من أين أتوا بهذا الثور، وسوف أعلم تفاصيل الأمر بعد رحيلك.. لكن ألا تبدو هذه الكلمات مقدمة لأمر أعظم، عمومًا لن أستبق حديثك بتكهناتي، ولتكن كلماتي محايدة».. يتنفس الكاهن المطهر بهدوء وهو يكتم تعبيرات وجهه ويقول: «إنها عناية الآلهة يا سيدي الكاهن الأكبر.. وما عندنا قليل من خير تنعمون فيه».

يتأمل الكاهن الأكبر الفضاء أمامه عبر نافذة جانبية، يجب ألا يدع الحوار يتشعب أكثر من ذلك، عليه الحديث مباشرة فيما جاء من أجله، يقول: «الحقيقة أيها الكاهن المطهر إن الملك «دارا» أرسلني من الأرض الجنوبية خصيصى من أجل الحصول على حصة جيدة من ثروة المعابد.. ليس معبد **الحيبة** فقط.. بل أزور المعابد كافة لجمع الأموال للقصر.. فأنت تعلم ما تمرُّ به البلاد من ركود، وسوف نجمِّع كل شيء في أهناسيا

CamScanner

ثم نقدمه لابن الإله حينما يأتي من منف في زيارته السنوية احتفالًا بعيد الإله المحلي».

يُخفي الكاهن «زوبستف» انفعاله ويقول: « تقصد يا سيدي الكاهن الأكبر ما تمر به البلاد من تدهور!» يهم الكاهن **أحمس** بالكلام، لكن زوبستف عنخ يستمر ولا يترك له فرصة فيقول: «بحياة نفسك الناجح، وبحياة آمون الذي يثوي هنا.. تأمل.. إنه على الرغم من أننا في برمودة فإنه لا توجد غلة في مخزن آمون، ولا توجد فضة في صندوق المعبد، يجب أن أخبرك بأن أهل مدينتنا لا يجدون ما يقتاتونه.. لا يغرنك ما يظهر به عدد قليل من أثرياء الحيبة.. السواد الأعظم يعيش على خبز الشعير المغموس بالنطرون.. مَن يمتلك إوَزّة اليوم يخفيها حتى لا يطمع فيها سارق.. وحصيلة قرابين المعبد معدومة.. إننا نبحث عن سُلفة من الفضة بفائدة.. ويبدو أن هذا ما سنفعله من الآن فصاعدا.. لقد تغيرت الأحوال بشكل كبير يا سيدي الكاهن أحمس، وأحسبك تعلم التفاصيل، ولستَ في حاجة إلى أن أعيد الحديث عنها أمامك»، وكأن الأمر لا يعنيه أو هو يحاول الظهور بمظهر مَن يجهل ما حدث، يقول أحمس: «أعلم ماذا أيها الكاهن زوبستف عنخ؟!» يجيبه زوبستف في انفعال: «تعلم ما جرى في الحيبة من خراب.. وما جعل اللعنات تحل عليها حتى تعاني مُرَّ المعاناة».

أخذ الانفعال من الكاهن المطهر **زوبستف** مأخذه بشكل جعله يتناسى

CamScanner

أن الكاهن **أحمس** والملك نفسه جديدان على الساحة، ولا يبدو أن أمر **الحيبة** وما حدث فيها كان بالأمر الذي يشغلهما كي يعلماه مباشرة فور توليهما منصبيهما، فما حدث قد حدث في زمن انقضى وذهب رجاله إلا القليل.. وهذا بالفعل ما كان يفكر فيه الكاهن أحمس، إنه لا يعلم تفاصيل ما يتحدث عنه الكاهن زوبستف عنخ.. فمد يديه نحو كأس مملوءة بالجعة الباردة وتناول بعضها قبل أن يسأل: «حقيقة نحن لا نعلم أي شيء مما تقوله أيها الكاهن زوبستف عنخ.. وإنه لأمر عظيم أن تخبرني أنت بكل التفاصيل الآن.. تخبرني بالكيفية التي خُربت بها هذه المدينة؟»

لكن زوبستف يهز رأسه في خنوع ويأس وهو يقول: «أنا؟! لا يا سيدي.. أنا لا أمتلك أدق التفاصيل مثلما يمتلكها أصحاب القصة»، يصمت برهة يتأمل فيها الكاهن الأكبر، ويتمنى لو يخرج من غرفته ليتناول لحم الثور المشوي ثم يرحل، وعندما يطول صمته وشروده يسأله الكاهن الأكبر: «تقصد مَن؟». يتحدث زوبستف بتلقائية كأنه أمر معروف لدى الجميع: «لا يوجد رجل في مقدوره أن يخبرك عن الكيفية التي خُرِبت بها هذه البلدة إلا «**بتيسي بن آسمتو**» كاتب المعبد.. إنه هو الذي سيقول الصدق».

****

(٥)

المستشفى

أصوات مبهمة تخترق أذنيَّ، صفير متقطع، نبرات أنثوية حزينة تقطعها عبرات، صوت ذكوري مخنوق يخفف عن ذلك الصوت الأنثوي في محاولة يائسة للتهدئة، صوت جاف يشرخ نعومة المشاعر الحزينة، يطلب منهم الهدوء أو الخروج.

رغبة تأتي من أعماق سحيقة، في مشاهدة ما يدور حولي، أحاول فتح عينيَّ، جفوني ثقيلة.. بل ملتصقة كأنها ما فُتِحَت من قبل، أعاني لحظة ميلاد النظرة الأولى، أفكُّ قيد جفوني لترتفع، بعد جهد رهيب أشعر بآلام في رأسي حد الانفجار، أشاهد حولي أشباحًا تتحرك، تتضح الصورة بالتدريج، أشعر - لستُ في حالة تأكد تام - بأن الصوت الأنثوي لأمي والذكوري المخنوق لأبي، أما الجاف فهو لشخص لا أعرفه، أستمع إلى شهقات أمي وهي تشير نحوي وتخبرهم بأني أفتح عينيَّ، أتعجب.. هل فتح عينيَّ حدث يستحق مثل هذه الشهقات الفَرِحَة؟!

أحاول تحريك لساني بسؤال بدا لي في منتهى السخف لتكراره: «ماذا حدث؟ أين أنا؟!» لكن لساني كان أثقل من حجر من أحجار الهرم الأكبر، فحمدتُ الله أن سؤالي السخيف لم يخرج إلى الوجود.

CamScanner ـب

اتضحت الصورة أكثر من حولي، أنا ممدد في فراش.. حجرة في مستشفى.. أجهزة طبية في كل مكان، والداي يتابعانني وعلى وجهيهما مزيج من هزال، وحزن، وبوادر فرحة.. بجوارهما طبيب يحاول رسم ابتسامة على ملامحه بعودتي فيتغير لحن صوته من جاف إلى دافئ.

أتذكر ما حدث في استراحة فارق.. تلك الاستراحة الخَرِبَة بجوار الهرم الأكبر.. لقد عطستُ.. ثم حدث كل شيء بسرعة، مجموعة من الذئاب البشرية تلمع عيونهم في الظلام، نظراتهم تخترق جسدي، والشرر يتطاير فيلسع جبهتي، هم مُهلِكِيَّ لا محالة، يقتربون كأنهم ينزلقون على ألواح متحركة، يقتربون كأن لا أقدام لهم.

تنعدم فرص النجاة، لا بد من الهروب من المكان، خلفي حائط ممتد، وأمامي رجال تتعملق أجسادهم السوداء في الظلام كأنهم أشباح أتت من الماضي السحيق الذي تشير إليه معالم المكان، أحاول أن أُهدئ من انفعالهم، يأمرني قريني المستقر في منطقة اللاوعي بأن أبعثر الكلمات على لساني كي أدع لنفسي فرصة التفكير ولو لحظة أخرى لعلي أجد مفرًا، تتكسر نظراتي أمام نيران نظراتهم المنبعثة نحوي، موجات الرعب بداخلي تنتشر في المكان، تتشممها أنوفهم فيكشرون عن أنيابهم، تخور قواي، أتذكر لحظة استسلام الفأر أمام نظرات قط شرس حتى إنه يسقط من فوق جدار حاول الهروب عبره.

كيف يفكر الإنسان والقهر يُلهب ظهره؟! لا تفكير منطقي لمقهور. أتقزم حتى أقترب من حجم الفأر المذعور، أبحث عن مهرب بكلمات مُهدئة، لكن أحدهم لم يترك لي فرصة استجماع الكلمات، يقتربون أكثر، تأتي فكرة الهروب مجنونة.. لا بد أن أباغتهم وأنطلق من بينهم إلى الخارج بأسرع ما يكون، إنها اللحظة الفارقة بين الحياة والموت.

أطلقتُ ساقيّ للريح وأنا أصرخ صرخة مدوية كي أُشتتهم، هذا ما هداني إليه تفكيري المضطرب المتوتر.. لكن الضباع الشرسة يساعدها في الهجوم ثقل في تفكيرها.. الغباء أحيانًا يولد الجرأة.. بل كثيرًا ما يولد الجرأة، والجريء قد يُصيب النجاح.. بل غالبًا ما يصيب النجاح.

لم تأتِ حركتي المباغتة ولا صرختي بما انتظرته.. فلم يتفاجأ أحد.. ولم يبتعد أو يتشتت تركيزه.. الذهول يتملكني أكثر فأشعر بدفقة الشجاعة تتسرب من جسدي ليتحول إلى جسد رخو هلامي.. قبل أن يفقهوا حركتي تلقفني بعضهم بصدره ويجذبني من يدي كبيرهم ليلقيني إلى وسط المكان في عنف، رأسي يصطدم بأشياء لا أعلمها، قبل أن أعتدل في مكاني ترعبني صرخة تمتزج بفحيح، وأشعر برذاذ لعاب يتناثر على وجهي، ثم أتلقى ضربة بشيء ثقيل على مؤخرة رأسي.. أنسلُ من آلام الضربة الرهيبة، أغيبُ عن الوعي.

وهأنا أعود الآن.. ماذا حدث؟ أسألهم بصوت واهن، لا يمتلك أحد إجابة.. كل ما في الأمر أنه منذ أربعة صباحات عثر عليَّ رجل من باعة

ضوئيا بـ CamScanner

المنطقة وأنا ملقى على الأرضية المتربة في استراحة فاروق حينما دخل ليحمل بضاعته التي يبيعها تحت سفح الهرم الأكبر، تركني مكاني مفزوعًا مهرولًا ليستدعي رجال الشرطة، أُنقل إلى المستشفى، وبالبحث في أوراقي تم التعرف عليّ ومن ثم استدعاء والديّ.

الغريب أن كل ذلك تم منذ أربعة أيام، بينما أشعر أنه منذ لحظات.. أتذكر ما مررتُ به من أحداث في منطقة الفشن ببني سويف، وبالتحديد معبد مدينة «الحيبة»، الأحلام تُعاد أمام أعيننا في غير جهد بعد اليقظة مباشرة، وبعد برهة يتم اختفاؤها حتى ليجد الفرد مشقة في استدعائها مرة أخرى.

تربت أمي على راحتي التي تحتضنها، بينما يحاول أبي معرفة ما حدث لي؟ والطبيب يطلب منهما الهدوء، لا مجال لمثل هذه التفاصيل الآن حتى لا أُرهق.. ساعات أستعيد فيها بعض عافيتي وذاكرتي، وسيأتي كل شيء بهدوء. يمتثلان لتوجيهات الطبيب الذي يخرج في لا مبالاة مصطنعة.

تناولني أمي طرف أنبوب يتدلى طرفه الآخر في علبة عصير.. بالفعل أشعر بجفاف رهيب في حلقي، أحاول امتصاص رشفة.. تأتي بعد معاناة.. لكنها تحمل إلى حلقي وجسدي الكثير من الحياة كماء (يتسرسب) في أرض شراقي.

CamScanner

بعد ساعة وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة خفيفة حاولتُ تجسيدها لبثّ طمأنينة ما إلى قلب أمي القلِق، يسألني والدي، وقد شعرتُ بسؤاله ينتصر على رغبته في السيطرة على ذاته، عمّ حدث، عبر لسان ثقيل يأتي بصوت جاف مشروخ كأنه يأتي من بئر سحيقة، أخبرته بكلمات مختصرة بما مررتُ به وما سمعته عن رجل الأعمال والسياسي الشهير **توفيق زغلول،** تحدثتُ وملامح الذهول تعتصرني، كأني لم أجد الوقت الكافي للذهول من قبل، رعشة تسري بداخلي تنتفض على إثرها أطراف أصابعي، الكلاب.. لا.. إنهم ضباع قذرة ينهشون كل ما تصل إليه أنيابهم حتى وإن كانت أجسادًا لا تحلم إلا بالعيش فقط، لكنهم، انتقامًا لا أعلم له سبب غير المرض، يبخلون عليهم بتلك العيشة.. طوبى لمن يعتقد أنه يعيش.. أنه يمتلك زمام أمره.

لو تجمع الأنقياء وتركوا لهم الأرض قاطبة، بكنوزها وسلطانها، واستقروا في جزيرة معزولة ليستكملوا حياتهم، لذهبت خلفهم الضباع لتنهش لحومهم انتقامًا.. لا تجري في عروقهم دماء بل سائل الانتقام الأسود اللزج. ابتساماتهم لزجة.. ملمس جلودهم هو نفسه ملمس جلود ثعابين الغابات المنزلقة في الأحراش، تغير جلدها كل حين بأمر حقدها.

يحتوي والدي راحتي ويطلب مني الهدوء، لا يجب أن أفكر هكذا الآن، جسدي المتداعي في حاجة إلى راحة ذهنية. يمد يده بمنديل ورقي ليجفف فيما يبدو دمعة انزلقت على جانب وجهي الأيمن.

CamScanner

يُعلق بعد لحظات، كي يستخرجني من التفكير في نشأة تلك الفئة اللزجة إلى ما أعيشه الآن، بأن ما حدث لي كان نتيجة سماعي سرهم ومؤكد أنهم ما تركوني إلا بعد أن شُبّهَ لهم أني فارقتُ الحياة، ثم يربت على راحتي التي تقابل جلسته عن يميني وهو يعقب في عرفان ومحبة «نحمد الله أنك فارقت الوعي إثر تلك الضربة مباشرة، وأنهم لفزعهم ما استطاعوا التفرقة بين فقدان الوعي وبين الموت.. أو أن رغبتهم في الفرار قد حالت دون ذلك». تُعقب أمي وهي تغالب دموعها التي لم تعد تعلم أهي دموع حزن أم سعادة قائلة: «هو عمر جديد كُتب لك يا أيمن».

لا أعلم لِمَ تملكني غضب مفاجئ وأنا أستعيد صورة **توفيق زغلول** مرة ثانية وهو يتصدر قائمة رجال السياسة وأصحاب الرأي والتوجيه داخل مجتمع يعاني **ذل الفقر**، بينما هو في حقيقة الأمر **لص** يرتدي قناعًا دائم البسمة. لو لم تنهش الضباع اللزجة كل ما تصل إليه أظفارها، لو توزعت كنوز أرضنا بشكل عادل ما كانت لتنمو طبقة الفقراء! هل هم فقراء بالفعل أم هم أغبياء مقارنة بالضباع اللزجة؟! لا هم فقراء.. ولا هم أغبياء.. هم بشر.. لا يفكرون بعقيدة النهش التي ثبت عبر آلاف السنين أنها المتسيِّدة، فليس كل فقير غبيًّا، وليس كل غبي فقيرًا.

أمثال هؤلاء من **مصاصي دماء** الفقراء مرضى، يمكنني أن أصنف مرضهم بأنهم مرضى **الاكتناز**، مثل مريض الشهرة، يفعل أي شيء حتى لو خان

من أجل أن يُشار إليه، قد يقتل، أو ينتحر تاركًا رسالة مأساوية، أي شيء يصل به إلى الشهرة يفعله، مريض الاكتناز يفعل أي شيء في سبيل الحصول على كل شيء وإن لم يكن في حاجة إليه، يمتلك ومع ذلك يمتص بشكل دائم. ولا تخلو أجسادهم اللزجة من أمراض لكثرتها يصعب حصرها.

حينما أقرأ خبر القبض على أحد أصحاب المناصب العليا وهو ثريٌّ ثراء فاحشًا (تسري في عروقي رعشة لا يستشعرها غير هياكل مطحونة مهروسة تحت أقدامهم)، أجده قد قُبِض عليه في واقعة رشوة.. أتعجب، تتملكني حيرة ممزوجة بسخط دموي، لماذا ترتشي وقد وصلتَ إلى كل شيء؟! ما لديك من مال وسلطة يكفي أسرتك وأحفادك أجيالًا قادمة.. لماذا ترتشي؟! التفسير الوحيد المنطقي الذي اقتنعتُ به أنهم مرضى.. مرضى الاكتناز، لا.. بل يجب أن نضع اسمًا جديدًا لمرض يجب أن يضاف إلى الموسوعة الطبية «مرض الرشوة»، مرض موجود منذ القدم، متأصل، لا يجرؤ أحد على مناقشته أو تصنيفه، ببساطة أصحاب النقاش والتصنيف هم أكثر المصابين بهذا المرض. توفيق زغلول أحد هؤلاء، يمتلك ثروة لا تتوقف عن الزيادة دقيقة، تكاثر ثروته لا يستطيع هو إدراكه، وصل إلى مناصب ومكانة عليا في الدولة.. مشهور بدرجة كبيرة في مختلف الأوساط.. رغم ذلك هو سارق كنوز، لص، نباش قبور.. يحمل كنوز أجدادي ويهربها إلى الخارج، يبيعها في حين تتزايد ابتسامته اللزجة مع تزايد ثرواته!

يجف حلقي ويلتصق، تفور الدماء في رأسي مثل ماء يغلي على موقد أوشك أن يتبخر بشكل تام، تتشنج أطرافي، تثقل أجفاني، يتلاشى صوتي، ترتعد أمي صارخة.. يُسرع أبي كي يستدعي الطبيب.

لا أعلم ما حدث لي، وانتظرتُ أن تفارقني روحي لتتجول بين شخوص الماضي أو بين سكان السماء، لكن ذلك لم يحدث، أفقتُ ورفعتُ عينيَّ أبحث عن أمي، أتمنى أن أبتسم لها كي تهدأ، لكني ما وجدتها.. فقط الطبيب يقف وإلى جواره ضابط شرطة يتحدثان ويبدو أنهما لم يشعرا بعودتي، الطبيب يؤكد أن حالتي ما تزال صعبة ولن يستطيع استجوابي، الضربة على مؤخرة رأسي كانت شديدة للغاية، يؤكد أنه لا يعلم إن كانت تلك الضربة على منطقة المخيخ مصادفة أم ضربة محترف، لأنها في النهاية أثرت بشكل كبير، وقد نجت الحالة «أنا» من الوفاة بعد تلك الضربة بمعجزة إلهية.

في شيء من الروتين السمج يخبره الضابط بأنه عَلِمَ بأني قد أفقتُ من غيبوبتي أمس وتحدثتُ مع والديَّ. إذًا كان ذلك يوم أمس.. ذهبتُ في الغيبوبة مرة أخرى ليوم كامل؟!

همستُ أطلب الماء، يلتفت نحوي الطبيب وقد ابتسم ابتسامة خفيفة ما كنتُ ألحظها لولا ذلك الإنسان اللزج الذي يقف إلى جواره. لا أعلم لِمَ تعتلي علامات السماجة واللزوجة رجال الشرطة؟! هل يلقنونهم

سماجة ولزوجة لتنبع من داخلهم، لتكون من ضمن مكوناتهم الأصلية، (تتسرسب) مع دمائهم؟! أم هي قناع يُرتدى مع ملابسهم؟! ألا يجدر برجال تطبيق القانون أن يكونوا أكثر هدوءًا وبشاشة بسبب ما في أيديهم من سُلطة تعطيهم قوة لا يستهان بها؟! ليسوا في حاجة إلى أجساد لزجة وأقنعة سمجة لتحقيق مآربهم ما دامت في أيديهم تلك السلطة! لقد أخطأ مَن أقنعهم بأن اللزوجة والسماجة، وتقطيب الوجه، وفرض الإتاوات، متطلبات فرض السيطرة.

يقترب الطبيب ليُمسك بيدي لمتابعة نبضها، بينما يطلب الضبع ذو الأنياب أن أخبره بتفاصيل ما حدث، يتجهم وجه الطبيب، ترتفع تجعيدات أنفه لتلحق بتجعيدات جبهته، يحرك يديه في الهواء، يلتفت حوله ليبحث عن شخص يدعمه، عصا يتوكأ عليها قبل السقوط، يهمس بكلمات تؤكد عدم أهليتي الآن لهذا الحديث، لا يلتفت إليه الضبع الذي يرفع ساقه الأمامية في الهواء بألَّا تزيد أيها الطبيب الثرثار، يتعمد ألَّا ينظر ناحيته كنوع من التجاهل، يستمر في مطاردتي بنظراته الممزوجة بابتسامة باهتة، يسيل لعابه من بين أنيابه البارزة من فم مفتوح بشكل مستمر.

بعد وقت طويل كنتُ أبحث فيه عن أنفاسي وما زلت أهرب من نظراته اللزجة، أستجمع أفكاري المشتتة.. أتحدث بصعوبة بالغة.

انتهيتُ من سرد ما حدث بالتفصيل. كان قد جلس فوق مقعد بجوار السرير واضعًا ساقًا فوق الأخرى، وارتكن إلى مسند الظهر في حركة

CamScanner

توحي بالسيطرة الكاملة. بعد فترة صمت يتلقى الضبع المقيت اتصالًا هاتفيًا، يجيب بصوت مرتفع، يضحك حتى يهتز جسده، يعقب بعبارات سخيفة حول موضوع أسخف منه، يتردد صدى صوته وضحكاته في أنحاء المستشفى، يعلو صوته أكثر وترتفع ضحكاته، يشخر كأنه يتنفس، يسب مُحدثه بشتائم أعفُّ عن ذكرها، ولم تختلج خلية واحدة من خلايا جسده!

أنا أتألم والطبيب يجلس متابعًا على مقعد آخر في جانب الحجرة، وعلى وجهه علامات ضيق مكبوت، فقد احمرت وجنتاه وتضاءل جسده، وتمنى ألّا يدلف إلى الحجرة أحد مساعديه أو إحدى الممرضات.

تابعتُ الكائن اللزج أبحث خلف نظراته، تعبيرات وجهه، عن أي معنى، لكن يبدو أن تلك الأقنعة لا تمتلك غير نسخة واحدة من المشاعر هي الثابتة باستمرار، نسخة السماجة، ملامح الضبع ثابتة أبد الدهر.

يقف الطبيب في إشارة منه بأن هذا يكفي، ويجب أن يرتاح المريض، لكن الضابط لم يقف ولم تنزل ساقه عن الأخرى، يشعل سيجارة وضعها في جانب فمه، ويسحب منها نفسًا طويلًا، يتمتم الطبيب بأن التدخين ممنوع هنا، واللافتات في كل مكان، والأمر لا يحتاج إلى لافتات و.. ولا يبدو أن الكائن الذي يمتص سيجارته في تلذذ قد استمع إلى حرف واحد، يقول في هدوء قاتل: «تمثيلية حلوة» ويصمت.

تعتلي الدهشة وجه الطبيب قبل أن تنتقل إليَّ لتجعلني أنتفض مكاني! ماذا يقول هذا الكائن؟! كاد الانفعال يفقدني الوعي، إلا أن كلماته التالية قد استبقتني حتى أعلم فيما يفكر، قال: «الأمر باختصار مشاجرة بين لصوص آثار وقت تقسيم الغنائم»، ثم يمطُّ شفتيه، يقف في هدوء، يرفع يديه في الهواء يتمطى ويتثاءب مثل خارج من فراش عاهرة، يتحرك ليخرج من الغرفة وهو يتحدث إلى الطبيب: «سوف نعين حراسة على باب غرفته حتى تسمح له بالخروج».

لو أنني في كامل عافيتي لسبقت لكماتي كلماتي، سوف أُصاب بحالة من الجنون وأنا أهرسه تحت أقدامي، وليسحب سلاحه، ويرديني أو يُلقني إلى سجونهم.. لكني لا أتحمل مثل هذه الإهانة. لو أنني في كامل عافيتي لأدركتُ أن ذلك الكائن نفث كلماته تفضيلًا لأقرب الحلول واتهامي كي تنتهي القضية، فإن هو صدق روايتي سيتحتم عليه إيجادُ الفاعل، وبَذْلُ جهدٍ هو في غنى عنه، ليمر الحدث في هدوء.. يُنهي القضية بتجريمي أنا طريح الفراش.

ولو كان ذهني صافيًا لأدركتُ هذا الكائن وقد تغيرت ملامحه حينما سمع اسم توفيق زغلول وليُّ نعمته. حقًّا.. صدق القائل: «**أعطني شرطة شريفة أعطك شعبًا عظيمًا**».

أُترك في الغرفة وحيدًا أعاني ضغطًا رهيبًا أشعر على إثره بزيادة الفوران في رأسي، أزيز الأجهزة وأصوات متناثرة في المشفى تدقُّ رأسي في عنف لا أتحمله، أشهق عدة مرات، ينتفض جسدي، سارينة إسعاف من بعيد تنسحب إلى الفضاء البعيد، آخر ما شاهدتُه باب الحجرة يُفتح.. تظهر ممرضة.. ومن خلفها أشباح استشعرتهما والداي.

****

CamScanner

(٦)

بتيسي

صوت مرتفع ينادي «أيها الكاهن **بتيسي**.. أين أنت يا سيدي؟!» أنظر نحو الجانب الآخر لأجد رجلًا مسنًّا يرتدي سملًا باليًا، يرتكن بظهره إلى أحد التماثيل القديمة الملقاة على الأرض في إهمال، وقد كُسر الرأس من أثر السقوط على ما يبدو، لأنه ليس بعيدًا عن الجسد. بعينين ضيقتين تبدوان أسفل رموش متآكلة وحاجبين اشتعل بياضهما، يعود الرجل من تأمله في فضاء البحيرة الممتد أمامه ليتأمل المنادي، إنه إذًا الكاهن **بتيسي**، يتأملني أنا، أنظر حولي لأبحث عن مصدر النداء فلم أجد.. إذًا أنا المُنادِي.

أين أنا؟!

سؤال لم يعد يُثر بداخلي تلك الدهشة الأولى، أَلِفتُ الوجود في أماكن غريبة بين أناس لم يسبق لي معرفتهم. أتأمل الشمس التي تبدو خلف سحابة بيضاء، تهب نسمة خفيفة تُحرك بعض الشجيرات المتناثرة، يبدو أنها قد حملت رائحة أتان؛ فقد تردَّد نهيق شبق يأتي من بعيد. اقتربتُ من بتيسي، أجثو أمامه على ركبتيَّ وأنا أخبره أن الكاهن المطهر ومدير المعبد «زوبستف عنخ» والكاهن الأكبر «أحمس» في انتظاره في المعبد على وجه السرعة.

CamScanner

لا ينبس بحرف، يشرد.. يطول صمته، يزفر بأسى، وإن كان من وهنه لا يبدو حنقه، أتأمل تجاعيد وجهه المكرمشة مثل بالونة أُفرِغَت من الهواء بعد طول امتلاء، بعض الندوب توارت عبر السنوات لا يشاهدها إلا متأمل، يتنفس في أسى كأنه يستشعر كآبة ما ينتظره. يمدُّ يده ليسحب عصاه الملقاة إلى جواره، حتى إن يده تخمش الطمي بجواره، فتخرج بين أصابعه نبتة هزيلة، يتحرك ظِله خلفه في وهن كأنه روح راغبة في المغادرة.

أحمل عصاه، أساعده على القيام.. يعتدل الرجل، يمدُّ يده التي تتعثر في الهواء ليقبض على عصاه من يدي في قوة لا تتناسب مع سنوات عمره، يبدو أنه يخشى السقوط، يتوكأ على عصاه، يسير في هدوء باتجاه المعبد وأنا إلى جواره أسير على مهل، أرنو نحوه بنظرات تطالبه بالإسراع لئلا أتعرض إلى عقاب، لكن الرجل لا يلحظ نظراتي، كان شاردًا إلى أقصى درجة، اضطررتُ أن أُخرج رغبتي إلى النور، فقلتُ: «عليك الإسراع بعض الشيء يا سيدي؛ لأن الأمر يبدو عظيمًا، فالكاهن الأكبر جاء دون ترتيبات مسبقة».. وكأني أسرُّ إليه بخبر عظيم، قلتُ: «وأجبرنا على تقديم ثور قربانًا، وحظيرة المعبد كانت خاوية إلا من إوزات هزيلة».

حينما توقفت عن الحديث لالتقاط أنفاسي وانتظاره سمعته يهمس بكلمات مبهمة، توقفتُ حتى لا تشوش خشخشة حركتي على إنصاتي، فإذا بالرجل يقول: «دائمًا يطلبون.. لم يهتم أحدهم بكيفية التنفيذ.. تُنفذ

CamScanner

أوامرهم وإن سالت دماؤنا وطُعِمَت أجسادنا، لم أجد بداخلي رغبة في سؤاله عما يُلمح إليه، ذهني مشغول بما سأتعرض له من تقريع بسبب التأخير، إن تعللتُ بكهولة الرجل سوف يُقال لي: «لماذا لم تأتِ به فوق عربة يجرُّها بغل؟!»، لا أعلم لِمَ نخشى السادة؟!

يتوقف الرجل، ينظر نحو الفضاء، أتابع اتجاه نظراته، فإذا بدخان ينبعث من الجهة القِبلية للمعبد، بالتحديد من مكان تحضير الطعام للكهنة، يبدو أن النار اشتعلت لطهي الكثير من اللحم، يُعقب الرجل كأنه يقرأ ما يدور بداخلي قائلًا: «لا تتعجل.. فلن يبرح الكاهن الأعظم قبل أن ينال نصيبه من لحم الثور المطبوخ على نيران المعبد المشتعلة بالزيت المقدس».

يتحرك بخطاه الثقيلة وأنا أقاوم سرعتي، وأكبح جماحها، تدفعني رغبتي في الوصول السريع، ويجذبني هذا الرجل الملتصقة قدماه في الأرض يزحزحهما عنها في صعوبة بالغة، يتوقف ليسألني، ولا أعلم لماذا يتوقف، عن متى التحقت بالمعبد، أتوقف، أتوه بين دهشتي، أنا لا أعلم متى التحقتُ بهذا المعبد، كأن الماضي شيء هلامي لا أستطيع الإمساك بتفصيلة واحدة من تفاصيله، لكنني ألمح بين ضبابه الكثيف شاب صغير يشبهني يدخل إلى المعبد، يقف في خدمة أحد الكهنة، يحضرون بعض الوصفات الطبية، زيوت وأعشاب، بعد قليل يتوجهان إلى مكان ما يبدو أنه مخصص لاستقبال المرضى، أعداد من أهل **الحيبة** بين متأوه وصامت حزين، يبدأ الكاهن الطبيب في علاجهم، وأنا أُقدِّم له الأدوات ومواد مطببة في خبرة

CamScanner

ودراية، فجأة يتغير المكان، أنصتُ إلى حوار بين الكاهن الطبيب والكاهن التقي «**ينحاور**» الذي ينظر نحوي في هدوء، وعلى محياه ابتسامة خفيفة، ينتهيان إلى أن أتركُ أنا معاونة الكاهن الطبيب وغرفته، وأنتقل خلف الكاهن التقي.. أهزُّ رأسي، أفيق وأنا أخبر العجوز **بتيسي** بتلك التفاصيل سريعًا، أتحرك في خطى واسعة وهو خلفي يعاني.

يمر الوقت ثقيلًا حتى نتخطى البوابة الرئيسية للمعبد، ننحرف بعد خطوات في اتجاه القاعة المطلة على البحيرة التي يجلس فيها الآن «**أحمس**» الكاهن الأكبر مع «**زوبستف عنخ**». يخبرنا بعض العمال أنهم في انتظارنا هناك بعد أن طلبوا أن يُقدم إليهم اللحم المطبوخ على النيران المقدسة بجوار البحيرة، أنظر نحو بتيسي في شكٍّ، لم أعلق، أتركه ليقترب في هدوء زاهد حتى يقف أمام الكاهن الأكبر، بينما أقف أنا على مقربة، بالتحديد إلى جانب العمود الأيسر للبهو المؤدي إلى القاعة.

تسود فترة صمت أتذكر خلالها نظرات الكاهن التقي «**ينحاور**» منذ قليل وأنا عائد ومعي بتيسي، لم أفهم المعنى الحقيقي الكامن خلف تلك النظرات، لكني ألفيتها غاضبة، هل كان غاضبًا من أن الأمر صدر مباشرة من الكاهن المطهر لي بإحضار بتيسي ولم يصدر الأمر له؟ أم كانت غاضبة لأنني أحضرت بتيسي؟! لا أعلم.. نظرتُ نحو التقي في آخر القاعة من الناحية الأخرى وجدته يتوارى عن الأنظار خلف أحد الأعمدة، ويبدو منشغلًا في بعض أعمال الخاصة بالطعام والشراب، لكني شَعرتُ باستطالة

في أذنيه البارزتين على جانبي رأسه الحليق، مؤكد هو يسترق السمع، انتبهتُ أنا الآخر، فإذا بصوت الكاهن المطهر يرحب بالعجوز بتيسي ويطلب منه الجلوس أمامهم، يجلس الرجل في هدوء، بينما يتأمله الكاهن الأكبر **أحمس** دون أن ينبس بكلمة، تمرُّ مدة صمت قاتلة أشعر فيها بأن بتيسي بدأ يتململ في مكانه، بكلمات متناثرة يتخللها تثاؤب يقول أحمس: «أخبرني يا بتيسي عما حدث لهذه البلدة فيما مضى حتى وصلت إلى هذا التدني؟!» لم يتحدث بتيسي، أطرقَ يتأمل في حزن الأرض أسفله، لمَّا طالت مدة الصمت يظهر التوتر على ملامح الكاهن المطهر «زوبستف عنخ» وهو يشير نحو الرجل المسن طالبًا منه أن يتحدث، لكن الأخير لم يتحدث.. فما كان من الكاهن الأكبر إلا أن وقف غاضًا وهو يشير نحو بتيسي آمرًا إياه أن يتحدث وإلا نال من غضبه ما لم يتخيله عقل.

أيها الرجل المسن، ليس هناك ما يُخفى، ومن المتاح معرفة ما حدث من أي مسن في هذه المدينة، لكن أن يتحدث الكاهن الأكبر بأمر ولا يُنفذ فتلك سُبة وإهانة يجب عقاب صاحبها، أتوقع معاقبة العجوز بتيسي إن لم يتحدث الآن.. أعتقد أنه سوف يتحدث.. فليس هناك شخص بهذا الغباء حتى يجلب لنفسه العقاب دون داعٍ.

فوجئتُ بانفعال الكاهن الأكبر وتبعه الكاهن المطهر، وجهاهما ضاريان مثل نَمِرٍ تتوثب للانقضاض على فريسة هزيلة، فوجئت أكثر بالعجوز

CamScanner

بتيسي لم تتغير ملامحه، في البدء حسبت تجاعيد وجهه تُخفي توتره، لكن لا توتر على الإطلاق بدا على ملامحه أو أطرافه، نظراته التي تجول بها في المكان وانتهى بها فوق وجهي الكاهنين اللذين يتبعانه في توتر ينمُّ عن قرب ارتكابهما حماقة ما في حق هذا الرجل المسن كانت ملتهبة.

يعود الكاهن الأكبر ليصرخ في بتيسي طالبًا منه الحديث حتى إن الكاهن المطهر قد انتفض مكانه على إثر الصرخة المدوية التي تردد صداها في أرجاء المعبد، وأنا نفسي ارتبكتُ وصعدت الدماء إلى رأسي وأنا أتلفتُ حولي أبحث عن أي مساندة أو أي فعل أقوم به، كأني أودُّ الفرار من المكان، فإذا بي ألمح الكاهن التقي «ينحاور» في مكانه الذي يتوارى فيه عن أنظار كبار الكهنة يكتم انفعاله، وإن فضحت ملامحه ابتسامة، تعجبتُ من ذلك.. التوتر يعمُّ المكان وصراخ الكاهن الأكبر يتردد صداه في أرجاء المعبد، والعجوز بتيسي صامت مثل تمثال جرانيت، والكاهن التقي يواري سعادته! مؤكد هناك أمر أجهله، لكنه لا يخرج عن أن حديث بتيسي سيكون في صالح الكاهن المطهر وضد رغبات الكاهن التقي، صمت بتيسي يكون في صالح الكاهن التقي «ينحاور» وضد صالح الكاهن المطهر «زوبستف عنخ»!

كنتُ أعلم أن بينهما خلافًا.. والكثير غيري داخل المعبد يعلم ذلك، لكنه خلاف حول المنصب الإداري للمعبد، فالكاهن المطهر زوبستف عنخ هو ليشوفي المعبد.

منصبه قوي للدرجة التي تجعل الكاهن التقي يضمر له العداء ويصمت عن إظهار سرائر نفسه، لكن ملامحه فضحته الآن أمامي.

لم يتحرك **بتيسي** وبدا أن إصراره على الصمت في تزايد، لا أعلم لماذا يصمت والأمر ليس بالخطورة، فمن اليسير أن يتحدث عما حدث في بلدتنا وأدى إلى انهيارها وتدهور المعيشة فيها، بحيث يعاني أهلها الفاقة والأمراض، وتنتشر حالات السرقة والنهب، وتمتد الأيدي إلى حيوانات البرية و«بنات المجهول» التي تنبت من غير زارع، وإن كان هناك عدد قليل للغاية يمتلك المال ويعيش في ضيعته الخاصة، كأنه لا ينتمي إلى هذه الأرض.

الكاهن الأكبر ومبعوث الملك يترك ذلك العدد القليل ممن يمتلكون الثروات العظيمة ويتفق مع الكاهن المطهر «زوبستف» على أن يتوجه إلى هذا الرجل المسن المريض، ويسأله عن أسباب الفاقة؟! يبدو أن هناك سرًّا ما خلف هذا الرجل!

الآن أظنُّ أن صمت بتيسي لن ينتهي، أحسبه قد اتخذ قراره بأن ينتقم على طريقته الخاصة من رجال الملك، صمته يقتلهم، وها هو يبالغ في تعذيبهم بصمته.

يقف الكاهن الأكبر أحمس، وقد تملَّك منه غضبه بشكل كامل، يشير إلى بعض رجاله فيقتربون ورؤوسهم تعانق الأرض فوق ظُهرٍ قد تعودت الانحناء، يأمرهم بحمل الرجل إلى سفينته حتى ينتهي هو من طعامه

CamScanner

ويلحق بالسفينة.. لقد مر الوقت وعليه العودة إلى أهناسيا، وهناك سوف يكون له مع هذا العجوز شأن آخر.

يتأبط شابان نافرة عضلاتهم العجوز بتيسي، أو هما بالفعل قد حملاه لأن قدميه لا تكادان تستقران على أديم الأرض طرفة عين. يشير نحوي الكاهن المطهر «زوبستف عنخ» فأهرول ناحيته وأنا ألقي السمع، بينما عيناي تتابعان الرجل الذي بدا لي في تلك اللحظات يبحث عن وضع نهاية لحياته بصمته هذا، يؤكد لي اعتقادي الكاهن المطهر حينما يأمرني بمرافقة العجوز بتيسي، وفي الطريق إلى أهناسيا عليَّ إقناعه بالحديث لئلا يتعرض للجلد حتى الموت، فالكاهن أحمس غليظ القلب، وقد ركبه العناد على ما يبدو.

أسرعتُ خلفهم حتى استأذنتُ الشاب القوي عن يمين بتيسي بأن أحل محله في اقتياد الرجل، فقد كُلِّفتُ بمرافقته حتى لا يعاني في طريق العودة، وابتلعتُ الجزء الأخير من جملتي، وكان «إن كُتِبت له العودة حيًّا».

بالقرب من البوابة الكبرى للمعبد توقفت بنا العربة التي كنا نجلس فيها أنا والعجوز بتيسي وتتخذ طريقها من المعبد إلى شاطئ النهر حيث سفينة الكاهن الأكبر الراسية هناك، سألتهم عن سبب توقُّفنا، فأجاب قائدها بأننا سننتظر هنا حتى ينتهي الكاهن الأكبر أحمس من طعامه ويخرج من المعبد لنتبعه.

ذهبتُ خلف أفكاري وإن كنتُ أتأمل صمت بتيسي، بداخلي رغبة في أن يتحدث وينتهي الأمر، هنا تُصارع رغبة أخرى في أن يظل الرجل على صمته حتى نذهب مع الكاهن الأكبر، وتتصاعد الأزمة فتتكشف لي أمور وأسرار لم تكن لتظهر إلا مع غضبات الكبار. بعد مدة اقتربت العربة التي تحمل الكاهن الأكبر، شاهدتُه غاضبًا وهو يشير بيديه نحو رجاله بأن هيًا.

وصلنا إلى شاطئ النهر، تبدو لنا سفينة الكاهن الأكبر تحتضن الشاطئ في هدوء، سفينة عظيمة مصنوعة من خشب الأرز والسرو والحبال المفتولة من وبر النخيل ونبات البردي مربوطة في شكل رائع يدل على مهارة فنية للمصمم والعمال الذين نفذوها. تحلق أسراب الطيور فوق صفحة النهر وعلى شاطئيه، عدد قليل من طيور السنونو يلتقط قطرات من طين الشاطئ في خفة ورشاقة كي يبني بها عِشَاشَه، قرص الشمس كامل الاستدارة، ونسمات الهواء تنحدر فوق صفحة النهر خجلى حتى العدم، كنتُ أتأمل الكاهن الأكبر يقترب ثم ألقى نظراتي نحو بتيسي المتكوم في جانب فوق سطح السفينة التي كان يُمسك بجُملها عدد من شباب البحارة الأشداء.

كأن الكاهن الأكبر قد خرج على رأس هذه المركب رغمًا عنه، وجهه مكفهر على غير طبيعة المكان وما حصل عليه من رحلته هذه، ترقبتُ في حذر اقترابه، ولمَّا دنا أكثر من بتيسي تنحيتُ جانبًا، ولا أعلم لماذا أتحرك

CamScanner

كما يتحركون، وأنظر إلى الأرض، وداخلي يرتعد. يشير الكاهن الأكبر بيمناه نحو بتيسي المتكوم وعلى وجهه رُسِمت علامات كراهية من تلك المختزنة داخل ثري تجاه فقير يشعر برغبته الدائمة في سرقته، ثم يمط شفتيه، يلقي كلمات يصبغها بشراسة الضباع: «أما زلتَ مصرًّا على عدم الحديث عن الطريقة التي خُرِبت بها هذه المدينة؟!» كما توقعتُ لم يتحدث بتيسي، ولم يرفع رأسه؛ مما جعل الكاهن الأكبر يزداد غضبًا، يبدو أنها كانت محاولة أخيرة يحسب أن الرجل سوف يجيبه ويلقيه إلى الشاطئ مرة أخرى ليعفي نفسه عبء حمله طوال رحلته، فيقترب من بتيسي، وبطرف إصبعه يرفع رأسه من ذقنه ويلفظ بكلمات تعاني الخروج من شدة ضغطه على حروفها: «ليس أمامي غير أن أصدق بأن ما سمعته.. أنت وأسرتك التي انحدرت منها سبب خراب هذه المدينة».

كان على بتيسي أن ينطق بأي كلمات.. على الأقل كي ينفي عن نفسه وعن أسرته تلك التهمة، فما سيفعله الكاهن الأكبر ببساطة شديدة أن يخبر «دارا» حاكم البلاد أنه ذهب إلى مدينة «الحيبة» كي يستطلع أسباب خرابها بعد توقف خيراتها، أسرة واحدة تسببت في ذلك، وأنه أُلقي القبض على كبيرها، وبمنتهى البساطة سوف يأمر الحاكم بإعدام المجرم، الحاكم لا يبحث.. رجاله يفعلون وعليه التصديق، فكل ما يقومون به من أجل الحفاظ على الحاكم ابن الإله كي يستقر في مكانه إلى يوم سفره إلى آبائه في عليائهم.

CamScanner بـ

لا أعلم لِمَ مر على خاطري أسرة العجوز، فأين هم الآن؟! فجأة تتحرك شفتا بتيسي.. يهمس بكلمات جعلت الكاهن الأكبر ينحني كي تلتقطها أذناه، أما أذناي فقد استطالتا لتماثلا أذني بغل، يهمس: «كلما أكثرتَ في سؤالي كلما زاد صمتي».

يا له من رجل! إنه... وقبل أن أتمادى في تفكيري سمعتُ الكاهن يصرخ: «يا لك من رجل أخرق! لعلك تنتظر أن أتعامل معك بما هو طبيعي.. أن أضربك.. لا.. لن يحدث ذلك أيها المسن، فقد تموت تحت يدي، لن تنال ذلك.. سوف آخذك إلى ابن الإله.. أيها الشاب.. وأنتم أيها الحراس.. ألقوه في قاع السفينة، ولا تغفلوا عنه حتى نصل إلى أهناسيا».

****

CamScanner

(٧)

أهناسيا[١]

بعد مسيرة نهار وليل، ومع انتصاف النهار التالي وصلت السفينة إلى مدينة أهناسيا، ترسو على الشاطئ مع صياح بحارتها وحركتهم المتلاحقة حتى لا ترتطم بصخور المرفأ. من بعيد تكاثرت الأصوات وتباينت، للمرة الأولى أشاهد مثل هذا الزحام، أصعد ومعي بتيسي يتقدمنا عدد من الحراس إلى المكان المخصص للكاهن الأكبر، نجده ممددًا تاركًا مساحة كبيرة من جسده عارية يقوم بتدليكها شاب مفتول العضلات لمعت يداه من أثر زيت الخروع المخلوط بخلاصة زيت الكافور المخصص لتدليك جسد الكاهن الأكبر، ثم يمدُّ يده بقطعة من الكتان الأبيض الرقيق ليمسح بها ظهره قبل أن يعتدل في جلسته ويضع شاب آخر رداء كتانيًا فضفاضًا على كتفي الكاهن الذي يتمطى وهو يتابع بتيسي يخطو في وهن ونحن حوله، بإشارة من إصبعه تلتصق أقدامنا بأرض السفينة، يمد يده ناحية فتاة، لم ألحظها من

---

(١) أهناسيا القديمة وكانت تسمى «نن - نسو» أو «ننسو» بالمصرية القديمة، كانت مدينة ننسو تقع جنوب مدينة الفيوم بالقرب من أهناسيا المدينة الحالية، وفي أيام الإغريق ترجع تسميتها «هيراكليوبولس» إلى المعبود الإغريقي هرقل الذي يعده الإغريق معادلًا للإله المصري القديم حرشف، الذي زاع صيته بعد الدولة الحديثة في القرن الثامن قبل الميلاد.

قبل، تقترب حاملة أبريقًا تصب منه جعة، يتناول كأسه التي تهتز لحظة اهتزاز السفينة بأكملها.. يبدو أن أسفلها قد شق قاع النهر قرب الشاطئ، سوف يمد العمال الطريق الخشبية من جانب السفينة حتى الشاطئ الجاف، تستغرق العملية بعض الوقت، وأحسب أن الكاهن أراد أن يقتله بمداعبة بتيسي فريسته، يرفع شاربه مثل قطٍّ، ويسأل: «ألن تخبرني عن الطريقة التي خُرِبت بها مدينة **الحيبة** يا بتيسي.. إني أعطيك الفرصة الأخيرة قبل أن أُلقيك أمام الحاكم بجرم لن تتحمل عقوبته؟!».

بهدوء يرفع بتيسي عينيه ليواجه الكاهن الأكبر ويتحدث بصوته الواهن بكلمات ثابتة يقول: «كل ما أريده حقًّا هو أن أكون أمام الحاكم لأخبره بكل ما حدث». أبتلعُ أنفاسي وأنا أتأمل بتيسي بطرف عينيّ.. يا لك من رجل! هدفك أن تصل إلى الحاكم لتخبره بكل التفاصيل؟! ماذا إن لم يستمع إليك واكتفى بما يُسِرُّه إليه رجاله؟! ماذا لو قدَّموك إليه كما قالوا مجرمًا تجب معاقبته؟! انتظرتُ الكاهن الأكبر الذي يرتشف جعته قبل أن يتكلم: «ستُرغم على قول الحقيقة كاملة لي.. فأنت رجل صعلوك.. لا وزن لك لتحظى بمقابلة الملك».

يتحرك الكاهن بين موكب بعضه كهنة وبعضه حراس، بينما يقف حولنا أنا والعجوز بتيسي أربعة أشداء، ينتظرون رحيل موكب الكاهن ليتحركوا بنا إلى مكان ما.

CamScanner

يغادر موكب الكاهن الأكبر السفينة ليختفي عن الأنظار، وقد أبعدَ الحراسُ العامَّةَ من طريقه، ينطلق بنا الرجال لنغادر السفينة ونسير بين الناس في اتجاه لا نعلمه. كانت الأنظار مسلطة نحونا بشكل غريب، علامات الشفقة تظهر على بعض الوجوه بينما تعتلي وجوه أخرى شماتة وتشفٍّ ولا أعلم لماذا؟! يبدو، من مشيتنا والحراس من حولنا، أنهم يعلمون ما ينتظرنا، فيرفق بنا البعض ويتشفّى الآخر. يتخلل تفاصيل ملامحي قلق وتوتر.. أتأمل اتجاه تفكيري فأجدني أتحدث عنا، أنا وبتيسي، كأننا رفيقان ارتكبا جرمًا ما!

يجب أن أفكر هكذا: «تُرى ماذا سيفعل كبير الكهنة بهذا الرجل المسن؟!» فأنا مجرد مرافق.. لا يجب أن أُقحم نفسي فيما يحدث. بداخلي- في تلك اللحظات - يقين تام أني لا أنتمي إلى هذا الزمان أو المكان، وإن كنتُ أتحرك كأهله بالضبط، أشاهد الفتيات يتأملنني كالغريب الذي يدخل شارع يعرف أهله بعضهم بعضًا، أتأمل أجسادهن خلف أقمشة الكتان الرقيقة، جميلات وتفوح منهن عطور جميلة تملأ صدري، حتى مَن تبدو عليها علامات الفقر، من ملابس أو أدوات زينة تبدو كأنها غير ذات قيمة، تتقاطر من عينيها أنوثة ودلال. كأن نظراتي نحوهن أظهرت ما بداخلي من إعجاب بهن فزاد تأملهن حتى إني ارتبكت في مشيتي، فدفعني ضبع حقير من المصاحبين بقوة، نظرتُ نحوه في عنف وأنا أخبره بأني مبعوث «معبد الحبية» لمرافقة الرجل المسن، فلا يجب أن أعامل

CamScanner ـبـ

هكذا، لكنه لم يأبه بحرف واحد من كلماتي بل يدفعني من كتفي حتى أسير في طريقي دون أن أتحدث، فآثرتُ الصمت كيلا يزيد في تعديه، يبدو أنه ضبع غبي جُبِلَ على تنفيذ تعليمات لا يحيد عنها.

حينما وصلنا إلى أطراف المدينة من الجهة الشمالية شاهدتُ مبنى عظيمًا، بعد سور مزين بتماثيل «أبي الهول» وكباش جرانيتية، بداخل هذا السور قصر عظيم، الحراس بأجسادهم القوية التي ألهبتها أشعة الشمس يحملون حِرابًا ذات رؤوس نحاسية مدببة، يتابعوننا في قوة توحي بأن القادم سيئ، ما إن اقتربنا منهم حد تبادل الحديث، حتى أشار أحدهم ناحية بتيسي: وسأل مَن الضباع المرافقة؟ «هل هذا هو بتيسي القادم من الحيبة؟» فأجابوهم بأنه هو بالفعل. يتقدم أكبرهم جسدًا وأقواهم ليمسك بيد الرجل المسن ويجره خلفه في عنف، كنتُ أتأمل ما يحدث في ذهول ولا أجد قدرة على الحديث، يصعب التفاهم مع الضباع. بعد عدة خطوات بعيدًا عن القصر، وفي مكان لا بناء فيه ولا شجرة أجلسه في عنف أو لنقل أنه ألقاه إلى الأرض وهو يقول: **«لا تغادر هذا المكان أيها العجوز المخرف.. أوامر سيدي الكاهن الأكبر.. أن تمكث في الضُّحِّ حتى تتحدث بما طلبه منك»**.

يترك كبير الضباع العجوز بتيسي في المكان المكشوف تحت أشعة الشمس وأمام ألسنة الهواء المحملة بحبات الرمال، قابلتُه وهو في طريق عودته إلى مكانه بجوار البوابة، على وجهي تجسَّد سؤالي: «ماذا أفعل

أنا؟» فقال دون أن أسأله: «تعالَ أنت أيها المرافق لتمكث في إحدى غرف المعبد الخلفية حتى الغد، فقد أمر سيدي الكاهن الأكبر بهذا.. فإن لم يتحدث الرجل حتى الغد فسوف تعود أنت إلى الحيبة وتتركه لنا.. أما إن تحدث وانتهى الأمر.. فسوف تأخذه معك».

تحركتُ خلفه بقدمين ثقيلتين وأنا ألتفت بين الفينة والأخرى نحو بتيسي في مكانه البعيد، عجيب أمر هذا الرجل، يجلس في هدوء، لم تظهر على ملامحه علامات الغضب المنتظرة بعد تلك المعاملة أو خوفًا مما ينتظره. يهدأ داخلي وأنا أتوجَّه مع حارس آخر نحو المكان المحدد لي الإقامة فيه، بدأتُ أشعرُ بالجوع، وأتمنى أن أحصل على وجبة طعام شهية بعد هذه الرحلة الطويلة التي ما نلنا فيها غير كسرات من خبز الشعير.

في الحجرات الخلفية أُلقيتُ إلى حجرة صغيرة لا تسع لفردين معًا، وبعد قليل أتى فتى صغير، يبدو أنه دخل إلى المعبد منذ أيام، ملامحه تحمل طفولة بكر لم يشُبْها مكر كهنة المعابد، يمد يده بخبز الحنطة وقطعة من جبن وأعواد من خس، بالإضافة إلى بصلة صغيرة مع كوب فخاري به قليل من الماء، يتركهم الفتى ويرحل، يصارع أسئلة تبدو على وجهه.. يود لو يسألني عن تهمتي! نعم.. أنا أشعر بهم يتعاملون معي مثل مرتكب جرم.. أو أن مرافق مرتكب الجرم يُعامل المعاملة نفسها.. ولو أني أتيتُ مرافقًا لأحد الأبطال أو الأثرياء لما نزلت مثل تلك الغرفة الحقيرة أو أُلقي نحوي تلك الفضلات. يا لك من رجل أحمق يا بتيسي! ماذا جنيتَ من عنادك غير الذل وما فاض منه ألقوه نحوي؟!

يجب أن أتحرك.. أن أفعل شيئًا كي أنقذ هذا الرجل، وأنقذ نفسي قبل فوات الأوان، تناولتُ لقيمات سريعة على عجلٍ، ولم أقرب البصلة الصغيرة، يبدو أنهم لا يعلمون أني كاهن في الأساس، ولستُ مجرد حارس، نحن لا نأكل البصل هكذا مثل العامة، إننا نقف بين يدي الإله معظم أوقات النهار ولا يجب أن تنبعث منا رائحةٌ كريهة.

خرجتُ من غرفتي الضيقة، وعدتُ أدراجي ناحية المكان الذي يجلس فيه بتيسي، يعترضني أحد الحراس، لم يتلقَ أوامر تسمح لي كوني حارسًا بالتجول، أخبرته أني كاهنٌ ولستُ حارسًا، ثم إني ذاهب إلى العجوز بتيسي كي أقنعه بالعدول عن عناده ودفعه إلى تلبية مطلب الكاهن الأكبر. يتشاور الحارس مع رفاقه وينتهي أمرهم إلى أن يرافقني أحدهم كيلا أهرب ويتحملوا مسؤولية هروبي وهم في غنى عن أي عقاب يجلبه إليهم غريب مثلي.

كانت الشمس تغادر على مهلٍ ونسمات الهواء الصافية تتماوج في المكان، من بعيد شاهدتُ بتيسي في مكانه وقد بدأ يخط بأصبعه على الرمال بجواره.. لا أعلم ماذا يفعل، ولكني استبشرتُ من حركته خيرًا، المهم أنه بدأ يعبر بأي شيء بدلًا من البقاء مثل قطعة صخر جرانيت صماء. ألقيتُ عليه التحية، فرفع وجهه ناحيتي في هدوء، ثم عاد إلى مداعبة الرمال بأصبعه، تأملتُ فإذا بها حروف لكلمات مثل «ظلم.. قتل.. إله.. ضباع».

CamScanner ـبـ

جلستُ قبالته، وعاد الحارس المرافق لي خطوة واحدة إلى الخلف، وتسمَّر مكانه كي يضمن الاستماع إلى حديثنا واللحاق بي إذا أطلقتُ ساقيَّ للريح، هززتُ رأسي لأنفض عنه الانشغال بهذا الحارس، توجهتُ كلية إلى بتيسي، تأملتُ وجهه فإذا به قد ظهر عليه الإعياء الشديد من أثر جلسته هذه ومن كثرة ما لاقاه من سوء معاملة، حدثتُه عن شيبته وعدم تحمله تلك الإهانات، بل الضرب الذي ينتظره، في النهاية سوف يتحدث.. الأفضل له أن يتحدث الآن بما يخفيه.. فلا طائل من عناد يماثل جبل! بعد لحظات كف فيها عن العبث في الرمال، يبدو أنه يتأمل كلماتي أو يراجع نفسه بعدما تعرض له، بعد قليل رفع عينيه ناحية الحارس الذي يراقبنا، أومأ بعلامة «أن اقترب»، يدنو الحارس وينحني قليلًا ليسمع همس بتيسي، يقول بصوت مشروخ ما سمعته إلا قليلًا خلال اليومين الماضيين: «أخبر سيدك أني أرغب في محادثته». لم يذهب الحارس ليخبر سيده الكاهن الأكبر، بل مدَّ يده في قوة ورفع بتيسي من إبطه، وقف العجوز معه كأن يد الحارس ترفع طفلًا ثم جذبه من يده ونظر نحوي أن أتبعهم.

ينطلق بنا الحارس إلى داخل القصر، ثم يسير في اتجاه الاستراحة الشمالية المجاورة للمعبد الصغير المطل على بحيرة واسعة من جهة الغرب، بينما قصر الحاكم يطل عليها من جهة الشرق، فالملوك يفضلون استقبال الشمس حين بزوغها، بينما الكهنة يودعونها وقت الرحيل. يتركنا الحارس بجوار أحد الأعمدة المرتفعة إلى عنان السماء وينتهي بزهرة لوتس عظيمة، وقد نُقش بقصص وحكايات عن بطولات الحاكم، يستند

CamScanner

بتيسي بظهره إلى العمود، فقد أخذوا منه عصاه التي يتوكأ عليها، بينما بدأتُ في تأمل النقوش، قرأتُ أن الملك صرع ذات يوم في رحلة صيد ثلاثة من الأسود بقوة ساعديه، وأنقذ وزيره الذي كان يرافقه لحمايته، وكم تضرع الوزير وركع تحت قدمي ابن الإله يشكره على إنقاذه من بين فكي الأسد الغادر، وبكى الوزير حتى ابتل ثوبه من كثرة الدموع، لكنه يقول إنها دموع الفرح والولاء العظيم لابن الإله الذي اشتم رائحة الغدر في المكان، وعَلِمَ ببصيرته أن هناك شرًا مستطيرًا سوف يأتي بعد قليل، وصَدَق حدثه حينما ترددت أصوات زئير الأسود في المكان، وفي الوقت الذي ارتعد فيه الوزير وسرى الرعب في جسده لدرجة أنه خَر على الأرض يبكي موقنًا أنها النهاية حتى يظهر القائد وحاكم البلاد ليطلق زئيرًا ترتعد منه الأسود، ويواجههم بجسارة وقوة أذهلت الأسود أنفسها، ويقسم الوزير في الفقرة التالية من النقوش أنه شاهد الرعب في عيني أسد من الأسود الثلاثة.. وأن هذا الأسد حاول الفرار قبل أن يلحق به ابن الإله، إلا أنه فشل في الهرب، فقد انقض عليه ابن الإله، وأمسك بفكيه بقبضتيه القويتين، وصرخ صرخة واحدة وهو ينزع فكي الأسد عن بعضهما البعض ليلقيه صريعًا على الأرض يلفظ آخر أنفاسه، وعيناه دامعتان في ذعر، وهذا ليس بغريب على الحاكم لأنه القوي الوحيد.

قبل أن أنتهي من قراءة باقي التفاصيل المنقوشة على العمود الضخم يأتي الحارس ويأخذنا إلى قاعة واسعة بداخل المعبد، تُقابِلنا روائح طيبة تنثر الخدر في النفوس، هي مختلفة عن العطور التي نستخدمها في معبدنا

في مدينة **الحيبة**، بدأ تأثيرها يسري في جسدي فشعرتُ بشيء من الهدوء، تبعته راحة أثقلت جفوني، حتى إنني رغبتُ لو يتركونني لأنام في أحد الجوانب.

ما كدنا نصل إلى منتصف القاعة حتى يظهر الكاهن الأكبر من غرفة جانبية، يجلس فوق المقعد الحجري الذي يتوسط صدر القاعة، يشير نحو بتيسي بأن يتحدث فهو له منصت. يقترب بتيسي خطوات كيلا يُجهد نفسه في رفع صوته، يخاطب الكاهن الأكبر قائلًا: «عليك يا سيدي أن تأمر رجالك بإعطائي إضمامة بردي وأحبارًا كي أكتب لك كل ما حدث، ولتكون تلك البردية وثيقة بين يديك تقدمها للملك دارا وتحتفظوا بها، فسوف تحمل التفاصيل والأسرار العظيمة كافة التي حدثت في الحيبة وأدت إلى انهيار المدينة».

يفكر الكاهن الأكبر لحظات، ويبدو أنه وجدها فكرة جيدة تكفيه على الأقل جهد الإنصات إلى هذا العجوز وكلماته الضائع نصف حروفها. يشير نحو أحد رجاله قائلًا: «أعطوه إضمامة بردي وأحبارًا تكفيه.. وأنزله، (ثم يشير نحوي كأنه يراني للمرة الأولى) هو وهذا في مكان بالقرب منا، وأعطوهم طعامًا وجعة»، ثم يشير بيده علامة الانصراف. يأتي الحارس المصاحب، يرشدنا إلى مكان إقامتنا الجديد، لكنه الآن يتحرك في رفقٍ، وقد تبدَّل تجهُّم وجهه بسكينة وسِلم يبعث في نفوسنا طمأنينة كانت غائبة.. نظرتُ نحو بتيسي وبداخلي غضب، أود لو أصرخ فيه وأقول: «لِمَ أوصلتنا

إلى هذه الدرجة المتدنية أيها العجوز؟ ماذا لو تحدثتَ من البداية؟ منذ أن كنا في مدينتنا «الحيبة» ووفرت علينا كل هذا العناء؟!»

السنوات التي تمر على الفرد تطبع الكثير على جدران ذاكرته، تفاصيل وخبرات ودراية بالأنفس ودروب الحياة، تعجبتُ وبتيسي يتوقف ليتأملني، ارتبكتُ من نظراته، يبدو أنه عَلِمَ أو استشعر ما أفكر فيه! فقد قال هامسًا قبل أن يفطن الحارس لتوقفنا: «لو أني تحدثتُ من قبل ما ذهبت مظلمتي إلى الحاكم، أما الآن ونحن في قصره وتحت أنظاره فسيعلم كل شيء.. وما سأكتبه على ورقة البردي سوف يصل إليه ويقرؤه بنفسه، هذا بالطبع غير أن ما سأكتبه الآن لم أكن أمتلك الحرية في كتابته أو قوله من قبل». أتأمله أكثر في دهشة، ماذا يقصد بأنه لم يكن يمتلك الحرية في قوله من قبل؟ أمامي أنا طلب منه الكاهن الأكبر أحمس أن يتحدث بكل ما يريد، بل إن الكاهن المطهر زوبستف عنخ هو الذي اختاره بنفسه كي يسرد أمام الكاهن الأكبر أسباب انهيار الحيبة؟!

كنا قد وصلنا إلى مكان متسع، وطلب الحارس الانتظار حتى يأتي بإضمامة البردي، يرتكن بتيسي بظهره إلى الجدار الرخامي وعلى وجهه يظهر شبح ابتسامة وهو يقول: «لم تسأل نفسك أيها الشاب: لماذا أرسلك زوبستف عنخ في طلبي؟ ولِمَ أنا خاصة الذي تَوجَّه إليه بهذا السؤال أمام الكاهن الأكبر؟»، بسطت راحتي أمامي وأنا أقول في هدوء كأنه أمر بديهي: «لأنك فيما يبدو رجل كبير، وأدركت الكثير من الأحداث التي مرت على المدينة، بالإضافة إلى أنك أحد كتبة المعبد، ومؤكد فيما مضى دوَّنت

CamScanner

للمعبد أو عن المعبد الكثير من هذه الأحداث التي سُئلت عنها». قلتُ ذلك والتزمت الصمت حتى يقرر صدق حدثي أو يرفضه ويخبرني بصحيح أمره، يهز رأسه علامة الرفض وهو يُخرج صوت الرفض عبارة عن فرقعة بسيطة بلسان رخو ويقول: «لا.. لا أيها الشاب المسكين.. الحقيقة التي لا يعلمها أحد غيري أنا وزوبستف عنخ أنني أمتلك الكثير من المعلومات والحقوق».. فهمستُ ولم أكن أرغب في مقاطعته: «الحقوق؟!».. أكمل بنفس الهدوء: «نعم.. الحقوق.. لي ولأسرتي الكثير من الحقوق.. والكاهن المطهر يعلمها جيدًا.. وقد استدعاني من قبل، وطلب مني في ودٍّ ونعومة أن أنسى ما حدث وأتنازل.. وألا أتحدث إلا بالخير الذي يضمن له بقاءه في إدارة المعبد والحصول على كل القرابين، والهبات، ودخل أوقاف المعبد، ولما لم يكن أمامي غير الصمت.. فأنا.. وأسرتي لم يعد لدينا القدرة على تحمل ولو جزء بسيط مما تحملته عائلتي منذ حياة أجدادي التي كانت مأساة.. وما استدعاني أنا خاصة أمام الكاهن الأكبر إلا كي أخبره بما أملاه عليَّ من قبل ليبرِّئ نفسه وطائفته».

أستوعبُ كلمات الرجل وأنا أتذكر الكاهن المطهر زوبستف عنخ، وكيف كان هدوؤه وتعلقه بعبادة الإله في خشوع تام، لم يبدُ عليه ذات يوم أنه متكالب على إدارة المعبد أو السطو على ممتلكاته وهباته وقرابينه!

أتذكر الكاهن التقي ينحاور ونظراته الأخيرة، أهز رأسي كي أعود إلى بتيسي وأنا أكمل كلماته وأقول: «وما أملاه عليك من قبل أن تخبر الكاهن الأكبر أو أي شخص آخر بأنك أنت وأسرتك لا دخل لكم فيما حدث من

CamScanner ـب

خراب للمدينة؟!»، يجيب وهو يرفع يديه أمام وجهي ويحرك سبابته في الهواء: «لا.. بل يريد أن أقول إن أسرتي هي الجانية، وهي التي تسببت في خراب الحيبة.. وبالطبع لم أكن أستطيع قول هذا لأنه منافٍ تمامًا لما حدث، وأيضًا يا بني كان هذا الاعتراف سيقذف بي إلى السجن أو القتل على يد رجال الحاكم، وبذلك تنتهي قضية أسرتي التي تؤرق حياة الكاهن زوبستف عنخ وأسرته».

يظهر الحارس وقد حمل إضمامة البردي، واتخذ طريقه في اتجاه ما.. يتحرك بتيسي خلف الحارس، بينما أقف لحظات أتأمل كلماته.. كل ما مررنا به حتى اللحظة كان يدبره ويرغبه.. يا لك من رجل أيها العجوز بتيسي! شككتُ من قبل فيما يصبو إليه.. أتوقف عن بحث الأمر في رأسي حينما أشار الحارس نحوي بأن أُسرع خلفه.

****

CamScanner

(٨)

حب عذري

كنتُ بين الحياة وانعدامها في تلك اللحظة التي ارتفعت فيها أصوات الأجهزة المعلقة حولي والموصولة إلى أجزاء مختلفة من جسدي داخل ذلك المشفى الذي لم أعرف اسمه بعد، تأملتُ الأشباح المهرولة وهي تدلف إلى الغرفة خلف الطبيب، الذي يميزه البالطو الأبيض، فإذا هما والداي، وقد توترت ملامحهما إلى أقصى درجة، أصوات أجهزة طبية مرتفعة متوترة تصدر عن مريض في مثل حالتي تعني اقتراب النهاية، يُعمل الطبيب يديه لحظات في الأجهزة، فشعرت بالهواء يتدفق إلى صدري أكثر، ينشط القلب وتتدفق الدماء إلى جسدي، شعرتُ بها تسير إلى رأسي لتنعشه وتعطي عينيَّ القدرة على الإبصار أكثر، وتعطي أذنيَّ الصلاحية للاستماع.. عجيب أمر الجسد.. كله معقد، وإن بدا بسيطًا، لقد أنهك هذا الجسد العلماء مئات السنين لاكتشافه، ولم ينتهوا حتى اليوم إلى سبر أغواره.

سمعتُ الطبيب يُلقي أوامره أنه لن يدع الشرطة تتحدث إليَّ مرة أخرى إلا بعد الإفاقة التامة، فما قاله الضابط من كلمات يحمل اتهامًا خفيًّا قد أعادني إلى نقطة الصفر مرة أخرى، وأن الله وحده يعلم كيف تسير بي الأمور بعد أن ساءت حالتي إلى هذه الدرجة، كأن الطبيب يتحدث

ا بـ CamScanner

إلى زملاء له تحت إدارته أو إلى إحدى الممرضات؛ لأنه توجه بالحديث إلى والديَّ بأنه يجب عليهما البقاء إلى جواري مدة طويلة خلال اليوم، وأن يتحدثا إليَّ، وفي الوقت نفسه يمنعون دخول أي أحد غير الطاقم الطبي، كأنه مشفى بلا إدارة!

تهدأ أصوات الأجهزة الطبية، تنطبق جفوني، تنتظم أنفاسي، أعود إلى غيبوبتي. يطمئن الطبيب والدي بكلمات جديدة قبل أن يرحل ومَن معه. يخرج والدي ليأتي لهما ببعض الأطعمة والمشروبات فسوف يطول بقائهما إلى جواري، تجلس أمي عن يميني، تمسك براحتي، فأشعر بيدها مبللة من أثر دموعها التي أعلم كم هي غزيرة، تعلو أنفاسها تغالب صمتًا يرغب في قتل حديث.. لحظات تتناثر كلماتها مرتعشة، تتحدث عن أي شيء تسعفها به ذاكرتها، المهم أن تنفذ أمر الطبيب وتتحدث إليَّ. الأم هي الراوية الأولى في حياة كل كاتب، فما تحدث أحدهم ذات يوم إلا وقال إنه تعلم الحكي من أمه التي كانت تحكي له قبل النوم، وتحكي له عن الماضي البعيد الذي يحمل تعبيرات وتفاصيل الجدة الحكاءة بدورها وتركت بصمتها على ابنتها، وتحكي عن الزمن واختلاف طباع البشر واختلاف الأسعار.. أي شيء.. المهم أن تحكي.

بعد فترة صمت بدا فيها أن أمي تبحث عن نقطة بداية لحديثها، أو هي تختار أحد الموضوعات التي تُسرِّي بها عني.. كأنها تغالب خجلها وتواري ابتسامتها، تقول: «سأخبرك كيف تزوجتُ والدك، كأن هناك

CamScanner

قصة مثيرة لا أعلمها خلف زواجهما، لقد نسيتْ أمي أنها قصت لي تلك التفاصيل عشرات المرات، فيها من الطرافة ما يجعلها هي القصة الأولى في قاموس حكايات أمي، لا أمتلك حرية الاختيار بين الإنصات والرفض وطلب حكاية أخرى، فأنا كتلة من لحم ودم تتنفس بانتظام فوق سرير بأحد المستشفيات.

كانت أمي هي همزة الوصل بين أبي ذلك الشاب الوسيم حينها، وبين صديقتها الحميمة «إجلال»، بذل الكثير من الجهد كي ينقل إليها ما يموج به فؤاده، لم تصده إجلال ولم تفتح أمامه بابها على مصراعيه، تركته مواربًا، دائمًا ما كانت تتركه في حيرة من أمره، تُنهي الحديث عند منتصفه وترحل لتتركه معلقًا، يلجأ إلى صديقتها الحبيبة «بسمة» (أمي) ويحكي لها عن عذاباته وعن صد إجلال له.. تطلب منه التحلي بالصبر، تخبره أن إجلال مترددة بعض الشيء، ولكنها تحمل له الكثير من المشاعر، وإن كانت لا تستطيع التعبير عنها، تَعده بأنها سوف تنقل إليها أشواقه، وبالفعل تنقل إليها كل كلمة وكل حرف نطق به بل تنقل إليها مشاعره التي يعجز عن صياغتها والمرسومة على وجهه والحارة مع أنفاسه، لكنها، أي إجلال، لا تجيبها بكلمات شافية، مجرد ابتسامات متدللة، ثم في النهاية تخبرها بأن تتركه يتلظى على نار الشوق.

تذهب بسمة إلى الشاب فاروق لتخبره وفي قلبها صدق، وعلى وجهها علامات غضب شديد بما تفعله إجلال من دلال. تكثر اللقاءات بين فاروق

وبسمة التي كانت تجد سعادة وقت اللقاء، وبعد مدة كانت تنتظر اللقاء وإن كانت لا تدري!

يتحدثان عن الشوق.. هو يحكي عن فتاة تهمله وهي تستمع إلى فتى يهملها، حتى يأتي يوم يُصارح فيه فاروق نفسه، فهو يتخذ من الحديث عن إجلال سببًا لمقابلة بسمة، يبتسم في سعادة، إنه يحب لقاء بسمة، يختلق الأسباب التي تُقربه منها وتُجلِسه معها أطول مدة ممكنة، تبادله الشعور نفسه على استحياء، تعترف فجأة أمام مرآتها أنها تنتظر الوقت الذي تقابله فيه، لكنها تخشى إجلال، تحاول الابتعاد، لكنها تفشل في الابتعاد يومًا أو بعض يوم.

تتلاشى إجلال من أحاديثهما تمامًا، تسأله عن نفسه ويسألها عن نفسها، ماذا يحب هو؟ وماذا تأكل هي؟ إلى أي المطربين يستمع هو؟ وأي الألوان تحب هي؟ يزداد بينهما الشوق وتكثر اللقاءات بلا أسباب.. يشعران فقط براحة عظيمة وهما معًا.. حتى إجلال نفسها شعرت بأن هناك جديدًا في الأمر حينما تلاشى حديث بسمة معها عن أشواق فاروق، تتحدث إليها وتسألها عنه.. تجيبها بأنه قد برئ.. وهما يلتقيان كصديقين، تبتسم إجلال ابتسامة صفراء وقد ارتعشت يداها (تُقسم أمي أنها لاحظت رعشة يديها مع اصفرار يكسو وجهها كأنها فقدت لتوها عزيزًا) وهي تقول إن فاروقًا قدر برئ منها، لكنه ابتُلي بمرض جديد اسمه «بسمة»، ثم تنصرف عن أمي، وتقطع علاقتها بها، وتنشر بين الصديقات أن «بسمة» اختطفت منها حبيبها! الأمر الذي كان له تأثيره الشديد في

والدي، فقد اعترف لبسمة بأنه يتمسك بها، يعترف لها بمشاعره وأنه كان يؤجل هذا الاعتراف مدة من الوقت حتى يبرأ تمامًا، وأما أقوال إجلال فما هي إلا رفرفات عنيفة كدجاجة مذبوحة قبل أن تفارق الحياة، لا يجب أن يهتما بها.. تتمنع بسمة وتؤكد استحالة ارتباطها بفتى قالت عنه صديقتها إنه حبيبها! ترفض مقابلته عدة أيام حتى تبرهن للجميع ولنفسها قبلهم أنها ما اختطفت أحدًا.. ولكنها.. (تحكي ذلك بكلمات ضاحكة حتى لو كانت الحكاية معادة للمرة الألف) لم تستطع الابتعاد عنه أكثر من ذلك، فإن قلبها يخفق كلما تذكرت كلماته، صورته لا تفارق خيالها في صحوها ونومها، تشعر بلذة غريبة وهي تستدعي صوته وأحاديثه، إنها جزئيات الحب.. تتصل به وتقابله وتعترف له بحبها.. يتفقان على أن ما حدث بين فاروق وإجلال لم يكن غير تمهيد قدري للتفرقة بين نزوة وإعجاب ظاهري يفشل رغم السعي إليه، وبين حب حقيقي يصمد أمام الاختبار.

يعود أبي من الخارج وقد حمل المأكولات والمشروبات ليضعها أمام أمي.. وتقسم أنها لا تريد أي طعام، ولكنها سوف تُعد إلى أبي ساندوتشًا مع مشروب.. فيقسم بصوته الغليظ المرتعش أنه لن يأكل قبل أن تأكل هي.. يشعران أن صوتيهما قد ارتفعا قليلًا فيصمتان قبل أن يهمس أبي بكلمات مبهمة لا تصلني.. لكن الهمس يستمر.. ويستمر.. ثم يعلو شيئًا فشيئًا.. فإذا به بتيسي يخبرني أنه انتهى من كتابة مظلمته على ورقة البردي.

****

CamScanner ـب

(٩)

الخادمة

روائح البخور الذي يُحرق بكثرة في غرفة **قدس الأقداس** تنتشر في أرجاء المكان، أفتح عينيّ بهدوء على صوت **بتيسي** يقف منحنيًا إلى جواري وفي يده إضمامة البردي، يهمس: «استيقظ يا باتار، لقد انتهيتُ من كتابة مظلمتي كاملة.. لتحملها إلى الكاهن الأكبر كي نعود إلى الحيبة». تثاءبتُ وأنا أتمطى وأرسل ناظريّ إلى الخارج لرؤية ظل الشمس للتعرف على أي وقت نحن في هذا الصباح.

لقد حصلتُ على كفايتي من النوم للمرة الأولى منذ عدة أيام، شعور غريب يتولد داخل الفرد إن هو أحس بالأمان. ذلك ما سرى في جسدي حينما أعلن بتيسي أنه سوف يكتب مظلمته على ورق البردي وتقبل الكاهن الأكبر الفكرة، وأمر لنا بمكان للإقامة مع مأكولات تليق برجال يحظون ببركة الكاهن الأكبر.

لكن لماذا يرغب بتيسي في أن أذهب بشكواه؟ لِمَ لا يذهب بنفسه؟! سألتُه، فأجاب بصوته المشروخ ونبراته الهادئة بأنه لا يرغب في مقابلة

الكاهن، فمن المحتمل أن يسأله في بعض التفاصيل، وهو قد أخذ عهدًا على نفسه ألا يتحدث بعدما ينتهي من الكتابة.. تأملت البردية في شغف.. تمنيتُ لو قرأتُ ما كتبه العجوز، ما يخشاه الكاهن المطهر زوبستف عنخ وأسرته، ما يحفظ حقوقًا ضائعة لأسرة بتيسي، لكن المكان والزمان لا يسمحان بقراءتها، كبحتُ فضولي.. قلتُ في داخلي: «قد يخبرك بتيسي بالتفاصيل ذات يوم يا باتار».

أقنعته بأن يأتي معي.. فلربما أمر الكاهن برحيلنا مباشرة بمجرد استلامه إضمامة البردي. حملتُ عنه البردية وتركته يتوكأ على عصاه، وخرجنا إلى تلك المساحة الواسعة التي تفصل بين الغرفة التي أمضينا فيها ليلتنا السابقة والغرف الشمالية للمعبد المجاور للقصر. يعترض طريقنا بلا كلمات أحد الحراس، وعلى وجهه تساؤل: «إلى أين؟» رفعتُ البردية التي أحملها إلى أعلى قليلًا، ثم أشرتُ في اتجاه المكان الذي قابلنا فيه الكاهن الأكبر أمس. لكن الحارس أشار في اتجاه قصر الملك قائلًا: «سيدي الكاهن الأكبر ذهب لمقابلة المُعظَّم ابن الإله.. فقد أرسل في طلبه منذ قليل». تساءلتُ وأنا أنظر ناحية بتيسي ثم إلى الحارس: «وماذا عنا؟ لقد كتب المبجل بتيسي كل ما طلبه سيدي الكاهن الأكبر، فهل نتركها ونرحل؟» يتحدث بتيسي في هدوء: «لن أبرح حتى أسلمها إلى الكاهن الأكبر بنفسي».

تظهر بدايات غضب على الحارس قبل أن يرسم على وجهه تعبير اللامبالاة ويقول: «عليكم انتظاره حتى يعود ويأذن لكم بمقابلته». يقول

يا بـ CamScanner

ذلك وهو يشير في اتجاه الغرفة التي أمضينا فيها ليلتنا السابقة، إذًا علينا العودة والمكوث فيها حتى يبتَّ الكاهن في أمرنا، تحركتُ وخلفي العجوز بتيسي حتى وصلنا إليها.. كانت باردة بعض الشيء مقارنة بدرجة حرارة الساحة الغارقة بأشعة الشمس في بداية اليوم.

يتمدد بتيسي في أحد الأركان التي تتيح له رؤية الساحة والطريق المؤدية إلى القصر، أبتسم في داخلي، سوف يراقب عودة الكاهن الأكبر. جلستُ بالقرب منه بعد أن وضعت البردية في جانب وسألته كي يمر الوقت: «هلّا حدثتني عن أسرتك وما مرت به في الحيبة؟» يتأملني مليًّا كأنه فوجئ للمرة الأولى بوجودي، يسألني: «مَن أنت أيها الفتى؟ لم أشاهدك في الحيبة من قبل؟!» أوشكتُ أن أخبره أنني لا أنتمي إلى هذا المكان ولا هذا الزمان ولا أعلم كيف أعيش هكذا بينكم.. فأنا نصف عائش بين ماضٍ أنتم أهله، وبين حاضر أعيشه كالحلم أرى فيه جسدي ممددًا فوق سرير بأحد المستشفيات بعد أن ضربني لصوص أذناب فاسد يسود. لم أتحدث بهذه الكلمات التي ما علمتُ من أين أتت.. إنما تحدثتُ بكلمات جديدة لم أعلم أيضًا من أين أتت، ألفيتني أقول: «أنا باتار يا سيدي المبجل بتيسي.. باتار ابن بسمتيك منخ». يتأملني بعينيه الدامعتين باستمرار، وتظهر على ملامحه علامات دهشة وإن بدت ضعيفة، يقول: «ابن سقاء الجبانة؟!».. أتعجب من معرفته والدي ثم تتلاشى الدهشة وأنا أقول في نفسي إنه رجل مسن يعلم **الحيبة** أكثر من أي شخص، ويعرف أهلها، أجيبه قائلًا: «نعم أنا

CamScanner ـب

ابنه.. وقُبلتُ في المعبد منذ أن تبرع والدي بعشر أرورات من أرض آمون، وهذه الأرض كانت جزءًا من اثنين وعشرين أرورا اشتراها من المدعو «سن» في شهر بئونة».

يتأملني وهو يضرب فخذه بيده الواهنة ثم يتأمل الفضاء، يقول: «هذه الأرض التي تتحدث عنها كان قد اشتراها المدعو «سن» من رجل يدعى «وننفر» ابن «حاروز»، أما «وننفر» هذا فكان قد اشتراها من «اسخنس» زوج الابنة الملكية «نيتوكريس»، وكان قد تسلم الأرض من والدها «بدوزير» بما يعدُّ مهرًا».

بعدما استوعبت كلماته سألته مندهشًا: «أتعني أن تلك الأرض كانت في الأصل أرضًا ملكية؟!».. أجاب: «نعم يا بني.. وها قد انتقلت من يد إلى يد، ومن ملكية إلى ملكية حتى ذهبت في النهاية عطية إلى المعبد كي يتم قبولك كاهنًا في معبد الإله!».

لم أعلق وآثرتُ الصمت، أحيانًا تبدو بعض الأمور صادمة، ولكنك لا تملك أمامها أن تفعل أي شيء.. كل ما في الأمر أن بداخلك يتعاظم الشعور بالضيق.. ولا أعلم لماذا انتابني هذا الضيق حينما علمتُ أن الأرض التي أعطاها والدي سقاء الجبانة منحة إلى المعبد كانت أرضًا ملكية. لم أكن من قبل مزارعًا ولا انتويتُ أن أكون، فلماذا الحزن؟! أظنُّ أن حزني يعود لأنها أرض ذات قيمة.. فكيف تذهب هكذا إلى المعبد.. تذهب كهبة، إن

CamScanner

لم نقل رشوة، من أجل أن أدخل المعبد لمساعدة الكاهن الطبيب قبل أن أنتقل إلى الكهنة الأتقياء.

لم يمر وقت طويل حتى تأتي خادمة تحمل الطعام وقربة ماء مصنوعة من جلد الماعز، بالإضافة إلى إبريق جعة وكوبين من الفخار. وضعت الطعام وعيناها تتابعانني في خجل، تجاهلتْ بتيسي كأنه غير موجود وهي تدفع الطعام نحوي، تمتمتُ بكلمات الشكر وأنا أتفرس جسدها، تصغرني بعامين أو ثلاثة على الأكثر، جسدها ممتلئ، وإن كانت عيناها سوداوين واسعتين في جمال ملحوظ مع تعبيرات راغبة في تبادل حديث جانبي.. إنها لغة تتبادلها العيون ولا يفهمها إلا مَن يحمل شفرتها، أعلم أن الأجساد الراغبة ترسل عبر العيون رسالات خاصة تتجاذب على إثرها الأجساد. تركتُ الطعام أمام العجوز بتيسي وخرجتُ خلفها.. ألفيتُها تقف على يسار الباب كأنها تعلم أني سأتبعها، تأملتُ ابتسامتها العريضة التي ظهرت كأنها تقول: «لقد كنتُ محقة»، بادلتُها الابتسام وأنا أسألها عن اسمها، أجابت: (وهي ترنو نحو أصابع قدميها البادية من صندلها المصنوع من جلد الماعز الذي لا يخفي غير القليل) **«خيت»**، ثم قالت وهي ترفع عينيها إن اسمها الأصلي: «خيت خُنس ابنة ينحاور» لكن صديقاتها العاملات في القصر يختصرن الاسم إلى «خيت». أخبرتُها عن اسمي وأنا أتأمل تفاصيل جسدها وملابسها التي تكشف عن أجزاء كبيرة، شعرها المجدول في ضفائر ملقاة في دلال على كتفيها، على ساعديها نقوش

CamScanner

حناء مثيرة، لقد اشتهيتها ولا أعلم لماذا؟ قد تكون رائحة رغبتها قد تسللت إليّ، لكني انتظرتُ الخطوة التالية، وقررتُ أن أستهلك الوقت في حديث بلا معنى، فأخبرتها من أين أنا وعن سبب زيارتي للمكان، وقبل أن أسترسل في حديثي عن عملي، أشارت إلى أحد الأماكن الخفية عن أنظار الحراس الذي يقع خلف الغرف الجنوبية ويطل على الأسوار الجنوبية.. نظرتُ فإذا بشجيرات النخيل والكثير من الأعشاب والحلفاء والبوص. فذهبتُ خلفها.

تميل الشمس إلى طريق المغادرة، وتخفُّ حِدتها وأنا أعود إلى العجوز بتيسي.. أجده لم يأكل غير لقيمات، وتمدّد في أحد الجوانب، أُلبي نداء الجسد، وألتهمُ كل ما تبقى من الطعام، فقد كنتُ أشعر بجوع شديد. قبل أن أنتهي من تناول طعامي يأتي الحارس كي يخبرنا أن الكاهن الأكبر في انتظارنا، أحمل البردية، وأساعد بتيسي على النهوض، ونسير خلف الحارس حتى غرفة الكاهن الأكبر.. يبدو من الرائحة المنتشرة في المكان أنه انتهى لتوه من تناول طعامه الذي كان من المؤكد يحتوي على سمك مشوي. أعطي بتيسي البردية وأعود لأقف في جانب، يتقدم منه العجوز، يمد يده بإضمامة البردي، يقول: «إليك كل شيء يا كبير الكهنة، لعل سيدي الحاكم يعلم كل ما حدث في مدينة الحيبة حينما يقرؤها بنفسه». يتناول الكاهن البردية ويطالعها بعض الوقت قبل أن يطويها ويضعها إلى جانبه ويقول فرحًا: «بحياة رع يا بتيسي.. لقد كنتُ أعلم أنك ستقول كل شيء.. فأنت رجل مبجّل». تظهر على وجه بتيسي علامات توتر وهو يتأمل الكاهن

CamScanner

الأكبر لحظات ثم يقول: «بالفعل يا سيدي الكاهن الأكبر.. لقد ذكرتُ كل الأشياء التي حدثت مع أسرتي في البردية وهي الأشياء نفسها التي أدت إلى انهيار تلك المدينة.. لكن اعلم أن كهنة مدينتنا سيقتلونني بعد ما ذكرته عنهم وما كنت لا أستطيع البوح به أمامهم». يضحك الكاهن الأكبر وهو يقول: «لا تقلق يا رجل.. فلن يجرؤ أحد على المساس بك.. لكن الآن دعنا نختم أقوالك بالخاتم الخاص بي وإلى جواره الخاتم الخاص بك».

شاهدتُهم وهم يختمون البردية بأختامهم كنوع من التوثيق وتأكيد صحة ما جاء فيها، ثم يعد الكاهن بأنه سيعرضها كاملة على الحاكم دارا ابن الإله، وأشار إلى الحراس أن يصحبونا حتى شاطئ النهر كي نعود إلى الحيبة في أحد المراكب التي تمر من هناك، وقبل أن نغادر يأمرهم أن يصرفوا لنا مؤونة تكفي رحلتنا.

****

CamScanner

(١٠)

بِكُويب

«زوبستف عنخ» الكاهن المطهر ومدير المعبد الإداري كان يقف أمام المعبد في تلك الدقائق التي وصلتُ فيها إلى هناك، على وجهه تتراقص شتى علامات الاستفهام، تذكرتُ كلمات العجوز بتيسي عنه.. لقد تغيرت ملامحه وتحول فيض النور الذي كان يكسو وجهه إلى شراسة، حتى عيناه كانتا تلمعان بشكل غريب، لا أعلم لماذا تذكرت الضباع التي تأتي في الظلام من قلب الصحراء في الليالي المطيرة، لكني حركتُ يدي إلى جانبي كأني أجبر ذاتي على الهدوء وعدم الإفصاح عن شيء، فما قاله بتيسي مجرد كلمات قليلة لا دليل على صحتها.. قد يكون متجنيًا على الكاهن المطهر، بالفعل لِمَ لا يكون الأمر كذلك؟! فما أعرفه عن الكاهن خلال.. ثم أتوقف عن التفكير وأنا أسأل نفسي: «خلال ماذا يا باتار؟! ماذا تتذكر عن ماضيك في هذه الأرض؟! الأفضل أن ألزم الصمت».

ولما شعرتُ أن الرجل يرغب في أن أطمئنه حتى ولو بنظرات عينيّ، رسمتُ ابتسامة صافية تشرح له أن الأمور سارت على أفضل وجه، استبشر الرجل وهدأ حتى وصلتُ إليه وانحنيتُ نصف انحناءة لتبجيل الكاهن

CamScanner

المطهر الذي مدَّ يده وأمسكني من ذراعي وهو يقول: «لا داعي الآن.. هلم لتخبرني بما حدث يا باتار».

في غرفة قدس الأقداس حكيتُ له تفاصيل رحلتي مع العجوز بتيسي كاملة، حتى انتهيتُ، فإذا بالرجل تتغير ملامحه، تصعد الدماء إلى رأسه فتحمر وجنتاه، ثم يقف ليتحرك في الغرفة غاضبًا وهو يكرر عليّ سؤالًا واحدًا كأنه تعلق بلسانه لا يرغب في الانفلات: «هل كتب بتيسي كل شيء في البردية ووقَّع عليها؟!». وقفتُ أتأمله في حيرة، وكنتُ أحسبه سيسعد بنهاية الأزمة، فقد تحقَّق للكاهن الأكبر ما أتى من أجله بهذا الاعتراف! وبعد دقائق من الحيرة لم أستطع التماسُك، وقد بدأت أصدق كلمات بتيسي عنه، توجهتُ إليه وسألته عن سبب غضبه، يتأملني لحظات، لكنه لم يكن يراني، كأنه يستجمع أفكاره أو يتأملها، ثم يهز رأسه ويقول: «الكاهن الأكبر أوقع ببتيسي بل أوقع بالحيبة كلها بهذه البردية الموقَّعة، ولو كانت كلامًا مجردًا لأنكره بتيسي، لكنه قد كتب ووقَّع، وتلك هي المصيبة يا باتار».

لم أفهم مغزى كلماته.. إنها ليست إجابة يا سيدي، لقد زدتَ حيرتي، يفهم علامات الاستفهام التي تتماوج على وجهي فيُكمل متسائلًا: «هل قرأتَ ما خطه بتيسي على تلك البردية يا باتار؟» فهززتُ رأسي علامة النفي وأنا أتوقع ثورته، فهل كان يجب عليّ أن أقرأ ما كتبه الرجل قبل

CamScanner

أن يسلمه إلى الكاهن الأكبر؟! وهل إن قرأته سوف يكون لي أي موقف تجاهه؟! لا أعلم.. لذلك لزمتُ الصمت وانتظرتُ سيدي الكاهن يتخذ الخطوة التالية، فأشار بيده في الهواء، ولم يكن قد توقف عن التحرك مثل ضبع خائف، وغمغم: «لا عليك».. وبعد عدة خطوات وكنتُ أتابعه في صمت يُكمل: «وإن كنتَ قرأتَ البردية يا باتار.. ما كان في يدك أن تفعل أي شيء، المشكلة ليست عندك أنت، إنها عند ذلك الرجل العنيد بتيسي..».. يهدأ لحظات كأنه قد هُدِيَ إلى الحل العظيم، لكنه ما قال غير «هيا يا باتار نتضرع إلى الإله كي يكون بنا رحيمًا.. هيا».

دلفنا بعدها إلى غرفة قدس الأقداس ولزمنا الصمت تضرعًا.. لم أشعر بأي شيء غير الإجهاد، أرغب في الذهاب إلى حجرتي كي أنام، لا أريد الانغماس أكثر في هذا المكان، لكني لا أجرؤ على المغادرة حتى يتحرك الكاهن المطهر ويغادر أولًا.. يمضي الوقت والصمت يقتلني حتى يستأذن كاهن شاب ويهمس بأن المدعو «**بفتو عو خنس بن حريو باستي**» ومعه رجال آخرون في الخارج ينتظرون. تتغير تعبيرات وجه الكاهن المطهر ويظهر عليه شبح ابتسامة ظفر وهو يسرع للخروج دون أن يكلف نفسه النظر نحوي.. فأتبعه في خشوع.

لا أعلم مَن هو ابن حريوباستي هذا الذي أتى ويطلب مقابلة الكاهن المطهر مدير المعبد، ما إن دلفنا إلى القاعة الكبرى التي يقابل فيها الكاهن

المطهر أبناء المدينة حتى أجد رجلًا كسيرًا ذليلًا إلى أقصى درجة، ظهر خنوعه بدرجة واضحة بسبب وجود خمسة عشر رجلًا يقفون في صف عرضي خلفه، وقد بدت وجوههم هادئة يتأملون تفاصيل المكان في لا مبالاة، كأن ما يحدث لا يعنيهم، زادت دهشتي وأنا أتابع الكاهن المطهر يتخذ مكانه في منتصف القاعة على مقعد خشبي عريض أتى به أحد الخدم.. ثم قال وهو ينظر إلى الرجل الذي ما فارقت عيناه الأرض: «هل أتيتَ للاعتراف يا رجل؟» فقال بن حريو باستي: «نعم يا سيدي.. وهؤلاء هم الشهود الخمسة عشر قد أتيتُ بهم ليشهدوا ويوقعوا على البردية بعد اعترافي وتوقيعي».

يشير الكاهن المطهر إلى رجل يقف في جانب، ويبدو أنه يعلم ماذا سيفعل جيدًا؛ لأنه أتى وجلس على الأرض عن يمين الكاهن المطهر وفرد ورقة بردي، وبدأ يكتب عليها ما يمليه عليه ابن حريو باستي الذي قال وعيناه تفيضان بالدمع:

«اعتراف مني بعبوديتي إلى الكاهن المطهر ومدير البيت زوبستف عنخ..

السنة الثانية من حكم الملك له الحياة والفلاح والصحة، أعلن أنا بفتو عوخنس ابن حريو باستي وأمي هي «كا وسنسي» أمام مُهدى قلب الوالد وهو الكاهن والد الإله، المسمى زوبستف عنخ بن حور.. إني خادمك إلى الأبد، ولن يكون في استطاعتي بعد

الآن أن أعمل بوصفي مواطنًا حرًّا بالنسبة لك، وبالنسبة لأي فضة أو غلال ملك لي فهي لك، وبالنسبة لأي نوع من الملكية في الأرض، وكذلك أولادي الذين ولدوا، والذين سيولدون لنا، وكل ما هو ملك لنا، وكل الأشياء التي سنكسبها، وكذلك الملابس التي على ظهورنا.. كل شيء هو لك، ولن يكون في استطاعة أي رجل أن يفرض سلطانه علينا في الأرض غيرك من اليوم وإلى الابد».

ابتلعتُ دهشتي فكانت مُرة المذاق.. إن الرجل يعترف بأنه هو وأسرته، وكل ما يملكون، وكل ما سيكسبونه هو ملك للكاهن! تأملتُ الكاهن في مرارة وأنا أتذكر ما كان عليه الكاهن منذ قليل وما هو عليه الآن، ما هو معروف عنه من تُقًى وزهد، وما يتم من عبودية الآن، كيف تستقيم الأمور في مدينة كمدينتنا وكبيرها يستعبد رجالها هكذا؟!

لم أرهق نفسي بالبحث خلف هذا الرجل المستعبَد، ولماذا يقدم نفسه وأسرته إلى الكاهن بهذا الشكل؟! فمهما تكن أسبابه فلا يجب أن يقبل الكاهن هذا الأمر!

آيات الهدوء المعجونة بسعادة والمرسومة على ملامح الكاهن المطهر لم تترك بداخلي أي اطمئنان، إنما تركت الكثير من التساؤلات والمخاوف، بحثتُ

كثيرًا عن أسباب غضبه مما فعله بتيسي، وعن قبوله هذا الاعتراف بالعبودية، تداخلت التفاصيل في عقلي وتاهت.. تشويش يحتويني.. أنا لا أدرك أبعاد ما يحدث، فكيف لي بالوصول إلى حل أو تفسير؟! ليتني قرأتُ ما كتبه بتيسي على برديته.. ولكن ماذا كنتُ أنا فاعلًا؟! فأنا مجرد كاهن صغير في معبد المدينة ويوجد عشرات.. بل مئات الكهنة وكبار الرجال في المدينة وفي البلاد قاطبة.. أنا في الحقيقة لا شيء. أي مكان أُلقيت فيه؟! ما هؤلاء القوم وكيف هي حياتهم؟ وفي أي فساد يعيشون؟ ولِمَ أنا هنا الآن؟!

أسئلة كادت تفتك برأسي فصرختُ وأنا في غرفتي وحيدًا.. لقد حبستنا عاصفة رملية قاسية تغطي كل شيء، تختفي شمس النهار، ويحل ظلام بلون الرمال يقبض النفس، يختفي اللون الأخضر ويسود اللون الأصفر، حتى الهواء يصعب علينا استنشاقه فيأمرنا الكاهن: «زوبستف عنخ» بأن نلزم غرفنا حتى تمر تلك العاصفة التي تحمل لعنات الآلهة لفسوق أهل المدينة، يقول ذلك ويسارع في الدخول إلى قدس الأقداس كي يتلو تعاويذ الخلاص بقلب وجِل.

بعد عدة صرخات شعرتُ معها بآلام شديدة في رأسي، تحسستُ ذلك المكان المتورم في مؤخرة رأسي، فإذا به يؤلمني أكثر.. أشم رائحة غريبة عن المكان الذي أعيش فيه.. وكأنها مواد تطهير.. يتسلل إلى أذني همهمات غريبة.. مثل أناس يتحدثون حولي في فزع.. أتأمل فراغ الحجرة من حولي..

ا بـ CamScanner

لا شيء، أفتح جزءًا صغيرًا من النافذة لأشاهد ما يحدث في الخارج.. لا شيء.

قررتُ أن أدخل في جلسة صفاء روحي من تلك التي علمنيها سيدي الكاهن التقي **ينحاور**، ولا أذكر متى علمني إياها، فجلستُ أسترجع ذكرياتي.. لكنها كانت ضبابية أو هي مثل ما يحدث خارج غرفتي.. صفراء مظلمة لا شيء واضح فيها.

يبدو أن المدة طالت وقد ذهبتُ في نوم طويل؛ لأني حينما تقلبتُ في فراشي شعرتُ براحة تسري في جسدي، تنفستُ هواءً نقيًّا بلا أتربة كما تركته، تحركتُ ناحية نافذتي، فإذا بالسماء صافية مرصعة بالنجوم ونسمات هادئة محملة بعطور من مباخر المعبد تسري في المكان، يهدأ داخلي، وتغمرني ابتسامة خفيفة، رفضتُ أن أتذكر أي شيء عن بتيسي وبرديته ورحلتي معه.

مارستُ بعض الطقوس قبل أن أفتح الباب، جزء صغير للغاية شاهدتُ من خلاله المكان، فألفيتُه خاليًا تمامًا، أغلقته بهدوء ثم عدتُ كي ألتقط بردية من بين عشرات البرديات الموضوعة فوق رفٍّ صخري في جانب غرفتي، بردية لا تُميز بين البرديات ولا تلفت الأنظار إليها، وجودها في حجرتي قد يضع رقبتي فوق مذبح الإله آمون الذي يبعد عن حجرتي خطوات، قرأتُها من قبل، ولكني أحب قراءتها كلما تهدأ نفسي وتصفو أو حتى كلما زاد تعكرها بحثًا عن الصفاء، كل كلمة فيها كانت تشغلني

CamScanner

أوقاتًا طويلة، كيف تأتَّى لهذا الرجل أن يصل إلى تلك المرحلة من الصفاء الروحي منذ مئات السنين؟! قرأتُ فيها:

> **«يا آتون الحي، ما أكثر تعدد أعمالك وهي على الناس خافية! يا أيها الإله الأحد الذي لا يوجد بجانبه شأن لأحد، لقد خلقت الأرض على حسب رغبتك وحينما كنت وحيدًا ولا يوجد شيء غيرك خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان وجميع ما على الأرض مما يمشي على رجليه وما في عليين مما يطير بأجنحته، وفي كل البلاد البعيدة، إنك يا آتون الحي تضع كل إنسان في موضعه وتمدهم بحاجاتهم، وكل إنسان لديه قوته، وأيامه معدودات، والألسنة في الكلام مختلفة، وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم».**

أسمع خشخشة أقدام بالخارج، فأطوي البردية في هدوء كيلا تُحدِث صوتًا، أتحرك على أطراف أصابعي حتى أضعها بين البرديات، أسمعُ دقات على الباب.. أفتح لأجد الكاهن التقي ينحاور وعلى وجهه غضبات غريبة لم أعهدها فيه من قبل، يخبرني أن الكاهن المطهر زوبستف ينتظرني الآن، ارتبكتُ في مكاني وبحركة لا إرادية ألقيتُ نظرة سريعة نحو رف البرديات، هل علم أحد بوجود تلك البردية في حوزتي؟! تحركتُ خلفه، لاحظتُ توتره حتى في خطواته، توجهنا إلى حجرة الكاهن المطهر.

CamScanner

لم تفارقني الكلمات التي قرأتُ بعضها ولم أكملها.. كلمات المبجل والحاكم أمنحتب الرابع المعروف **بـ الروح الحية لآتون** أو **إخناتون** . عبادة آتون انتهت مع نهايته الغامضة، وعادت عبادة الإله آمون بمنتهى القوة والعنف، حتى إن معظم النقوش التي كانت لآتون طُمست، وهو أمر لم يجرِ في هدوء مع مرور الزمن، بل كان بالقوة، وقد سالت دماء، وحُرِقت أجساد.

لم تكن عادة الكاهن المطهر في الصباح التوتر البادي على ملامحه، مما جعلني أتوقع كارثة وشيكة الحدوث، وبالرغم من تذكُّري بردية عبادة الإله آتون وما قد أناله من عقاب إن ضُبِطت في حوزتي، إلا أنني توقعتُ أمرًا آخر.. وقد كان بالفعل، فلم يَطُل صمت الكاهن «زوبستف غنخ» حينما وصلنا إليه، أشار ناحية التقي بأن ينصرف، لم يلحظ كما لاحظتُ، ازدياد غضب **ينحاور** حينما تلقى الأمر بالانصراف، ألا يكفي أن الكاهن المطهر قد أرسله، هو في طلبي ولم يرسل أحد الرفقاء من صغار الكهنة، الآن يصرفه لينفرد بي دونه؟! أتوقع أن يتم تصنيفي ضمن فريق الكاهن المطهر، نعم.. فهناك في المعبد صنفان من الكهنة يتبع كل منهما تيارًا مضادًّا للآخر، رجال الإله آمون يختلفون فيما بينهم! عمومًا العداء قائم على الدوام من أجل احتلال أعلى منصب في المعبد.

لم يتركني الكاهن المطهر أسبح خلف أفكاري كثيرًا، لقد توجه ناحيتي كليةً وهو يضرب بقبضته الجدار بجواره: «لقد وصلني رسول يخبرني

باقتراب سفينة بكويب»، فتساءلتُ عبر نظراتي: «مَن هو بكويب هذا؟!» فجلس وهو يزفر بشدة قائلًا: «إنه أحد القادة التابعين للملك في أهناسيا، وإن كانت تبعيته الحقيقية للكاهن الأكبر «أحمس بن بتحارمبي».

بدأتُ أدرك تعبيرات التوتر البادية على ملامحه، الكاهن الأكبر كان هنا منذ بضعة أيام، ثم ذهبتُ أنا معه بصحبة العجوز **بتيسي**، وحصل على ما يريد مكتوبًا على ورقة بردي موقَّعة من صاحبها، الآن أدركتُ معنى خوفه من أن الاعترافات كُتِبت على إضمامة بردي قد تحمل اتهامات أو تفضح أسرارًا، باختصار الأحداث بهذا الترتيب تدعو إلى التوتر، وإن كنتُ ما زلتُ أجهل الأسباب الخفية لما يدور، ولا أعلم لماذا لم أربط ما يحدث بما ذكره المبجل بتيسي من قبل حول علاقة أسرته بالكاهن المطهر.

سألتُ سيدي الكاهن المطهر عما يحدث في سذاجة، يتأملني بعض الوقت كعادته، بشرته لامعة من كثرة تدليكها بالزيوت والعطور، حليق الرأس، كثيف الحاجبين، غائر العينين، يهرش كرشه المتدلية في حركة عفوية، تدور عيناه ويتأمل اللاشيء كي يخفي أمرًا ما قد تفضحه نظراته وهو يقول: «لا أعلم ما سيحدث، وإلامَ ترمي تلك الزيارة الغريبة، ولكني أتوجس خيفة يا باتار»، يصمت بعض الوقت، ثم يقول وهو يشير إلى الاتجاه الذي خرج منه الكاهن التقي: «هذا الرجل.. التقي وأتباعه.. أنا لا أطمئن إليهم.. أشعر بأن لهم أيادي خلف ما يحدث، فقد وصلتني

معلومات تؤكد أنهم سعدوا أيما سعادة حينما أخبرتني أنت يا باتار أن بتيسي قد كتب على ورقة بردي كل شيء حدث في هذه المدينة».

همستُ وأنا أنظر في الاتجاه نفسه قبل أن أواجه الكاهن المطهر، ولا أعلم لماذا همستُ، ولا أعلم في الأصل لماذا اختصني بهذا الحديث الخطير، قلت: «وماذا يُسعد الكاهن التقي وفريقه أن يكتب بتيسي ما حدث في المدينة؟!».

يتأملني الكاهن المطهر لحظات قبل أن ينفجر ضاحكًا.. لاحظتُ أنه يفتعل جزءًا كبيرًا من ضحكاته، بل يتعمد أن يرفع صوته، يا له من كاهن! إنه يرغب في أن يصل رنين ضحكاته إلى الكاهن التقي ومَن يتنصت من أتباعه، يود لو يخبرهم بأنه رائق المزاج غير متوتر مما يحدث ومما هو منتظر. ثم يشير إليّ بأن أقترب منه، اقتربت في هدوء، فإذا به يُمسك أذني ويقربها من فمه، طاوعت يده حتى لا أشعر بألم في أذني، يهمس قائلًا: «ما لا تعرفه يا بني أن فريقًا كبيرًا من رجال هذا المعبد سوف يناله الكثير من الضرر نتيجة ما كتبه بتيسي في برديته (يصمت لحظة قبل أن يكمل بصوته العميق) هذا إن وصلت البردية بالفعل إلى الحاكم». ثم يترك أذني، فأعتدل من تلك الانحناءة الخفيفة التي صاحبت جذبه أذني وأنا أتساءل في سذاجة وقد شعرتُ بسخونة في أذني: «وما المانع في وصول البردية إلى الحاكم؟ لقد وقّع عليها بتيسي مع الكاهن الأكبر الذي طلبها في الأصل من أجل عرضها على الحاكم؟!».

CamScanner

همَّ الكاهن المطهر بأن يتحدث وقد ظهرت على وجهه عدة تعبيرات متداخلة، لكنه طوَّح يده في الهواء وانصرف عني كلية، يقف ليتأمل الفراغ من نافذة صغيرة، وكأنه قد يَئس من أن أفهم ما يدور من أحداث أو قد خشي البوح أمامي بأسرار لا يجب أن أعلمها.. أو أخيرًا يكون قد عجز عن تفسير أمر لم يظهر بعد.. فعليه أن ينتظر حتى يأتي «بكويب» هذا ويتحدث عن سبب زيارته، وسوف تتكشف الأمور بمنتهى البساطة.

الوقت الذي يمر ثقيلًا قد طال حتى أوشك النهار أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ولم يظهر «بكويب»، كنتُ قد خرجت من عند الكاهن المطهر لأبحث له من بعيد عمّن سيقابل «بكويب» وهو في طريقه إلى هنا خاصة من رجال المعبد. حينما وصلت إلى الشاطئ في المكان الذي ترسو فيه السفن علمتُ أنه قد غادر السفينة منذ وقت طويل متجهًا إلى المعبد، عدتُ إلى المعبد وسألت عنه، وهل تقابل مع سيدي الكاهن المطهر؟ فأُخبِرتُ أنه لم يأتِ إلى المعبد، لم أذهب إلى الكاهن حتى لا يصب عليّ غضبه، فكيف لم أعثر عليه؟ وأين ذهب؟! فذهبتُ كي أختبئ في قلب الأحراش القريبة من المعبد التي تتيح لي مشاهدة مَن يدخل المعبد ومَن يغادره.

أتوارى في هدوء، أستشعر رطوبة الماء تحت قدميّ، لم أتوغل كثيرًا إلى داخل الأحراش فقد يلتهمني تمساح، أجلس فوق كومة من عشب جاف، تنتابني دهشة حقيقية، أين ذهب هذا الرجل إن لم يصل إلى المعبد؟!

CamScanner

كان يجب عليَّ الوصول إلى مرسى السفن في وقت مبكر، لكني ذهبتُ حينما طُلِبَ مني ذلك، التأخير من عند الكاهن زوبستف نفسه.. هو الذي أطال في الحديث والتكهنات، لكن هل كان أحد يتوقع أن يأتي خبر وصول «بكويب» ثم لا يظهر في المعبد؟! ولماذا لم يعلم مَن أتى بخبر وصوله إلى أين ذهب؟! مؤكد أن «بكويب» هذا قد اتخذ حيطة وحذرًا من أجل تنفيذ شيء ما، لكن ما هذا الشيء؟! لا أعلم.. ولا أحد يعلم.. علينا الانتظار حتى تلد الأحداث ما في رحمها.

كنتُ أقضم أظفاري في ضيق وأنا أتابع من مكاني، فجأة تذكرتُ الكاهن التقي، لم أشاهده وأنا أغادر المعبد بعدما أُمرت بالذهاب لاستطلاع أمر «بكويب»، ولم أشاهده حينما عدتُ أتساءل عن وصول الضيف إلى المعبد.. قد يكون في غرفته الخاصة.. أو يجلس في ناصية ما يتعبد فيها كعادته، سوف أذهب في هدوء أستطلع أمره قبل أن أظهر أمام الكاهن زوبستف.. أنا على يقين أن عنده تفسيرًا لما يحدث، أو على الأقل مجرد العثور عليه سوف يأتي بنصف الحقيقة الغائبة. نعم.. سوف ينفي عن «بكويب» ذهابه إلى التيار المعادي من كهنة المعبد للكاهن المطهر زوبتسف عنخ.

خرجتُ من مكاني في قلب الأحراش وكانت ظلالها قد طالت إلى أقصى أمد بسبب اقتراب ذهاب الشمس إلى رحلتها الليلية التي تحملها فيها مراكب الشمس لتبحر بها عبر صفحة الكون قبل أن تأتي بها في صباح

الغد. ما إن وقفتُ وبدأت عظامي ومفاصلي في الانتصاب حتى شاهدتُ من بعيد جماعة من الناس يهرولون ناحية المعبد.. جم غفير وحركة متوترة تُحرك الأتربة والرمال، وأصوات متداخلة بين سباب وبكاء.. وخلف المجموعة بمسافة رجال ونساء وأطفال من الأهالي ينطلقون خلفهم مثل ذيل طويل لوحش عملاق يتابعون ما يحدث في ترقب. لم يهتم أحدهم بوجودي في مكاني، فقد انشغل عني الجميع.. حتى أنا ذُهِلتُ مما أرى، الكاهن التقي وعدد من أتباعه الذين أعرفهم جيدًا في المعبد ورجل غريب تبدو عليه هيبة ووقار وحولهم عدد من الحراس والرجال الأشداء الذين لم أشاهد أحدهم من قبل يقبضون في عنف.. بل يجرُّون في امتهان العجوز **بتيسي** وآخرين معه، من الأصوات المنبعثة أعلم أنهم أفراد أسرته، وقد ظهر عليهم الإعياء الشديد، ويبدو أنهم تعرضوا لضرب مبرح ظهرت آثاره في الكدمات وقطرات الدماء المتخثرة التي شاهدتُها بوضوح حينما مرّ الجمع من أمامي.

****

CamScanner

(١١)

الكاهن التقي

أمام البوابة الرئيسية للمعبد يتجمع عدد كبير من الأهالي وقد اشرأبَّت أعناقهم لاستطلاع ما يحدث في الداخل، بعدما منعهم الحراس من مواصلة سيرهم خلف «بكويب» ورجاله الذين يقبضون على العجوز **بتيسي** وابنه وأربعة من أبناء عمومته.

توغلتُ في قلب زحام الأهالي، وخليط همسهم وتساؤلاتهم يتسلل إلى داخلي ليستقر في حالة من الدهشة، كلماتهم كانت يائسة خانعة.. كلها حسرة على ما يحدث لبتيسي ومَن معه وما ينتظرهم داخل المعبد.. لم أستمع إلى سؤال واحد عن: لماذا أُلقي القبض على العجوز ورفاقه؟! أو عبارة واحدة ترفض تلك الطريقة الوحشية التي يتم التعامل بها مع هؤلاء!

أجتازُ البوابة في يسر، الحراس يعرفونني، فأنا «باتار» أحد صغار الكهنة في هذا المعبد، أُسرع الخطى في اتجاه الأصوات المنبعثة من القاعة الرئيسية المطلة على البحيرة.. فهي مكان متسع يستوعب هذا العدد، بالإضافة إلى أنه مجهز لاستقبال كبار زوار المعبد.

CamScanner

أقف على أطراف المكان لأشاهد الصورة كاملة، يجلس القائد «بكويب» في صدر المكان بينما يقف إلى جواره الكاهن التقي **ينحاور** وعلى وجهه خليط من سعادة مكبوتة لم يحن وقت انطلاقها مع علامات عنف وحشية غاضبة (ينطلق شررها من عينيه تارة في اتجاه الكاهن المطهر «زوبستف» وتارة أخرى ناحية الأرض أمامه). لم أشاهد الكاهن التقي **«ينحاور بن بتحابى»** بهذه الوحشية من قبل! تعاملتُ معه كثيرًا.. بل كنتُ تابعه الأمين سنوات.. إنه رجل يبدو محدود الفكر، قصير النظر.. حتى خطواته وقت السير قصيرة تتخبط قدماه إحداهما في الأخرى، كثير الالتفات والإنصات! أتعجب الآن من حاله.. لكن دهشتي زادت حينما وقعت عيناي على الكاهن المطهر «زوبستف» وقد ظهرت عليه فجأة آثار السنين.. رُسِمت هموم العمر على ملامحه.. لم يكن هكذا حينما تركته منذ قليل وإن كان غاضبًا! حتى جسده كأنه فقد حيويته وزاد ترهله.. ماذا يحدث؟!

العجوز **بتيسي** ملقى على الأرض، وابنه، وأربعة من أبناء عمومته، يظهر عليهم الإعياء الشديد من أثر ما تعرضوا له من تعذيب، نظراتهم منكسرة تعانق الأرض الصخرية أسفلهم.. دموعهم تختلط بقطرات من دمائهم تمثل بقعًا حمراء باهتة على أرضية صفراء.. أجسادهم ترتعد مثل أجساد محمومة في ليلة مطيرة، إلا العجوز **بتيسي**، روحه فيما يبدو قد غادرت المكان، فقد كان الرجل جسدًا صامتًا مثل تمثال مكوم على الأرض.

CamScanner

في نصف دائرة يقف عدد من الحراس ورجال أشداء، لا أعرف من أين أتوا، حول بتيسي ومَن معه، ينتظرون الأوامر.. هل يستكملون تعذيب تلك الأجساد المتهالكة؟ أم هناك أوامر أخرى؟!

«بكويب» فقط هو الذي يجلس في هدوء مثل ملك، وبعين القادر الذي ينفذ أوامر الآلهة التي تتوافق مع ذاته، يتأمل كل الحضور بحزم وصرامة تزيد من توترهم، حتى أنا قد نالني منه بعض الفزع، ورجعتُ إلى الخلف خطوة واحدة في حركة لا إرادية.

فجأة يرنو «بكويب» إلى يساره قبل أن يعتدل ويوجه حديث إهانة إلى العجوز **بتيسي**، أتابع نظراته، فإذا بي أشاهد إلى جواره إضمامة بردي، إنها هي بلا شك.. الإضمامة نفسها التي كتب عليها العجوز **بتيسي** اعترافه ثم وقع عليها أمام الكاهن الأكبر «أحمس»، المفترض أن تكون أمام الحاكم، ما الذي أتى بها إلى هنا؟!

لم يكن أمامي غير الصمت والمتابعة، ولم يطُل انتظاري، فقد وقف «بكويب» وتحرك في خطوات عنيفة، يتردد صداها في أرجاء المكان، يقف إلى جوار بتيسي المتكوم على الأرض بجسده الضئيل، فبدا «بكويب» فارعًا.. يركله بقدمه فينقلب الرجل على ظهره مثل وسادة من كتان مهترئ قبل أن يحاول متأوِّهًا الاعتدال جالسًا. ينحني «بكويب» نحوه قبل أن يصرخ فيه: «هل كنتَ ترغب في أن تصل تُرَّهاتك هذه إلى ابن الإله؟! يا لك من

CamScanner

رجل أحمق!». صرخ بكلماته الأخيرة حتى ارتجف الجميع، واهتزت الأرض تحت أقدامنا.

يعود «بكويب» إلى مكانه، ولكنه لا يجلس، يتأمل الجميع استعدادًا فيما يبدو لكلمات قادمة، بالفعل يقول: «أيها الحراس.. اقبضوا على هذا الرجل» في تلقائية تتوجه الأنظار ناحية **بتيسي**، ولكننا جميعًا نقف مشدوهين حينما يرفع «بكويب» ذراعه ويشير بسبابته، التي استطالت مثل سهم، ناحية الكاهن المطهر «**زوبستف عنخ**».

يعم الصمت بُرْهَةً والنظرات قذائف من لهب تنتقل بين العيون.. أتأمل الكاهن زوبستف.. أنتظره يصرخ في هذا الـ «بكويب» وينقض عليه مثل ذئب لينشب أظفاره في رقبته، ثم تسيل الدماء القاتمة لتغطى على دماء العجوز بتيسي ومَن معه، أنتظر أن يتصدى له الحراس التابعون، فيأمرنا - نحن رجاله - بسرعة التحرك والهجوم عليهم ليشتعل الصراع حتى تتحول تلك الساحة في المعبد، المخصصة لأوقات الهدوء والتأمل، إلى ساحة دماء يخرج المنتصر منها مسيطرًا على شؤون المعبد والمدينة كافة.

لكني.. ويا لدهشتي! أجد الكاهن **زوبستف عنخ** يرتعد مكانه مثل قط صغير مبلل بالماء ينكمش أمام كلب ضخم يقف أمامه مكشرًا عن أنيابه، بل يكاد يسقط في مكانه مغشيًا عليه أو بسبب أن قدميه قد تحولتا إلى عودين رخوين حينما ينقض عليه الحراس ليمسكوه من يمين

CamScanner

ويسار، تغيب أنفاسه وتتهدل كتفاه، وتتسع المساحات البيضاء في عينيه، وقد استسلم تمامًا لما يحدث، يقف الحارسان في انتظار باقي الأمر.. يُكمل بكويب أوامره: «ألقوه في السجن.. أما هؤلاء (يشير ناحية بتيسي ومَن معه) فأتركهم لك يا أيها الكاهن التقي **«ينحاور»**.. تعامل معهم كما يروق لك.. فأنت من الآن مدير هذا المعبد بدلًا من هذا المدعو **زوبستف عنخ»**.

ينتهي «بكويب».. يتحرك الحراس بالكاهن المطهر إلى خارج المعبد، يا لها من طامة كبرى! يُساق الكاهن المطهر زوبستف عنخ أمام الحراس ليُلقى في السجن؟! هكذا تتحول حياة الرجل الذي نراه عظيمًا.. بل هو أعظم رجال مدينتنا.. من أعلى قمة إلى أسفل سافلين في غمضة عين؟!

يتحرك عدد آخر إثر إشارة من الكاهن التقي **«ينحاور»** الذي من المفترض أن يتحول لقبه من الآن إلى **«الكاهن المطهر مدير المعبد»**، ويجرجرون العجوز **بتيسي** ورفاقه إلى إحدى قاعات المعبد الجانبية.

يشير «بكويب» إلى أحد رفاقه ثم إلى **«ينحاور»** ويقول بصوته الجهوري: «سوف أرحل عن مدينتكم هذه الآن.. وتنفذ أوامري ومَن يخالفها.. تعلم مصيره أيها الكاهن «ينحاور» إما الحبس وإما القتل، فلا أحد يخرج عما هو مقدر له، ومَن يتخيل من هؤلاء الرعاع أن يصل إلى الحاكم.. أو حتى تصل شكواه.. فهو حالم».

يمر «بكويب» من أمامي (فأنا أقف بين عدد من صغار الكهنة نتابع ما يحدث) وخلفه يهرول «ينحاور» وهو يلهث بكلمات الشكر والتعظيم،

CamScanner ـب

وبأنه سيكون دائمًا في خدمته، وفي خدمة الكاهن الأكبر **أحمس** المعظم، وفي خدمة ابن الإله له الحياة والصحة والفلاح.. حتى يبتعد ويختفي صوته وخلفهم رجال «بكويب».

كنتُ أنتظر أن يرمقني الكاهن التقي **ينحاور** بنظرة (تحمل الكثير من الوعيد أو حتى اللوم) لحظة مروره، لكن ذلك لم يحدث، هو مشغول الآن في أمر عظيم، هل يكون قد نسي اختيار الكاهن المطهر لي وتجاهله له؟! لا أظنُّ ذلك.. قد يكون أجّلَ أمري إلى حين.

يخلو المكان بعدما يتحرك الكهنة والخدم والحراس، كلٌّ إلى مكانه يترقب ما سيحدث، فقد تزلزل المعبد، وثارت الأمواج، وكشرت السباع عن أنيابها، لا أحد يعلم ما ستفعله الآلهة بعد قليل.

بعد أن يسود الصمت، يعود إلى صدري بعض هدوئه، أتأمل القاعة الرئيسية وقد خلت الآن بعدما كانت ساحة صراع ناري منذ قليل، فجأة تقع عيناي على إضمامة البردي الخاصة بالعجوز بتيسي التي كانت في يد «بكويب» وألقاها جانبه وقت صراخه، تحركتُ ناحيتها في تردد، وعيناي ناحية باب القاعة الواسع، أرغب في الاطلاع عليها، معرفة ما كتبه بتيسي وأشعل كل هذه النيران أمر يثير بداخلي دهشة وشغفًا يجب أن يُطفأ، من المؤكد أن بها الكثير غير ما أخبرني به بتيسي!

CamScanner بـ

كنتُ في غاية القلق، فسوف يعود الكاهن التقي في أي وقت ويبحث عنها.. أسرعتُ وأمسكتُ البردية وقد تسارعت أنفاسي وأنا أنظر في سرعة نحو الباب ثم إلى البردية، فتحتها وبدأتُ قراءة السطور الأولى منها.. لكني - بسبب انقباض شديد يصاحب انفعالي وخوفي مما قد يحدث إن ضُبطتُ هكذا، لم أعِ كلمة واحدة مما قرأتُ، وقبل أن أهزّ رأسي كي أفيق وأنتبه إلى ما أقرأ سمعتُ صوت الكاهن التقي «**يتحاور**» يقترب وهو يُلقي أوامره الصارمة بصوتٍ جهوري، لم أكن أتخيل أن يصدر عنه مطلقًا! ضممتُ البردية في سرعة وألقيتُها مكانها، أستدير مسرعًا في اتجاه باب القاعة، يدلف الكاهن التقي وخلفه عدد من الأتباع الذين تغيرت نظراتهم المستكينة إلى نظرات نارية ورؤوسهم المُطَأْطِئة التي تعانق الأرض قد ارتفعت في خيلاء غريبة.

يتوقف الكاهن التقي ويتأملني كأنه فوجئ بوجودي، نعم.. يبدو أن ما كان يحدث قد شغله عن أمر صغير مثل أمري، أما الآن وقد تغيرت لصالحه الأمور كافة يراني، بل يتأملني وهو يقترب ليدور حولي، يزداد توتري وأنتظره في صمت وخشوع، على مسافة يتوقف الجمع يرقب ما يحدث، أقول في نفسي: «كان يجب عليّ مغادرة القاعة كما غادرها أقراني.. غيابي في هذا التوقيت خطوة كان لا بد منها وقد أدركها الجميع.. يبدو أن عقلي كان قد توقف.. الآن لا مفر يا «باتار» حياتي رهن كلمة منك أيها الكاهن التقي!»

يا بـ CamScanner

كيف تأتى له تدبير هذا حتى يصل إلى هذه المكانة؟! لقد تخلص من الجميع في غمضة عين؟! هو الآن يمتلك تهمة جاهزة يُلقيها ناحية أي إنسان ويأمر بسجنه أو بقتله، جريمة تبعية الكاهن المطهر **زوبستف عنخ**، غير تهمة أخرى هي أن ثمة قرابة بالمدعو **بتيسي**.. ولِمَ لا وقد أتوا بابن بتيسي وأربعة من أبناء عمومته!

أُلقي الكاهنُ المطهر في السجن، ولا أحد يعلم أي مصير في انتظاره، انقلبت الدنيا في مدينة الحيبة بعد كلمات كتبها رجل مُسن، أوشك على الرحيل إلى العالم الآخر، على ورقة البردي.. كلمات طُلِبَ منه كتابتها! أكانت تلك البردية هي السبب الحقيقي أم كانت سببًا لتحقيق ثأر بين فريقين كان مثل نار خامدة أسفل تراب ناعم؟!

أشعر باختناق رهيب وجفاف في حلقي وأنا أنتظر كلمات الكاهن «ينحاور»، أنتظر حكمه الذي يأتي بعد برهة حينما يجلس في المكان المخصص للكاهن المدير، يلقي ذراعيه على طولهما، يملأ صدره بالهواء فتنتفخ كرشه أكثر، يقول: «اقترب يا باتار.. شخص مثلك يسهل التخلص منه الآن بإشارة من إصبعي (يفرقع بإصبعيه الوسطى والإبهام في الهواء، فأشعر برعدة تسري في جسدي وأعود خطوة للخلف).. لكن.. أنا أعلم أنك لم تكن من الموالين للكاهن «**زوبستف**»، وأنه هو الذي اختارك لبعض المهام، وما ذلك إلا لأنك شخص محل ثقة». يصمت، فحسبته سوف يقف

ليدور حولي مرة أخرى، لكنه لم يغادر مكانه في صدر القاعة، تأملتُه وهو يشير ناحية أحد الرفقاء من شباب الأتقياء الذي يُسرع ناحيته وفي يده زجاجة يصب منها بعض نقاط من زيت الكافور الذي أميز رائحته فيدلك بها «**ينحاور**» راحتيه.. ثم يقول: «شخص محل ثقة مثلك.. أنا أولى بولائه.. أنا أرغب في أن تظل إلى جواري يا «باتار».

يعمُّ الصمت، وأدرك أن الجميع ينتظر كلماتي، أقول ما أشعر به في هذه اللحظات دون أي تحريف: «أنا في خدمة الآلهة يا سيدي الكاهن التقـــ.. يا سيدي الكاهن المطهر». يبتسم في سعادة، يتأمل الجميع بنظرات هي مزيج بين الكبرياء والتشفي السعيد قبل أن يقول وهو يضرب بيده على صدره: «وأنا هنا في هذا المعبد.. في هذه المدينة كلها.. نائب عن الآلهة.. بل أنا اليد المنفذة لكل أحكامها».

****

CamScanner ـبا

(١٢)

القتل

كنتُ قد قرأتُ بعض كلمات من بردية العجوز بتيسي قبل أن يصل الكاهن «ينحاور» وأتباعه إلى القاعة، لكني لم أصل إلى جزء من المحتوى يرشدني إلى السر الذي تحويه هذه البردية، فقد بدأ بتيسي بالديباجة المعروفة عند تقديم «**مظلمة**» إلى الحاكم.. لكن كيف تكون **مظلمة** يتقدم بها **بتيسي** إلى الحاكم وقد طلبها منه الكاهن الأكبر «أحمس»، بل أجبره على كتابتها؟! وإن كانت **مظلمة** تخص بتيسي.. ما الذي جعلها تثير كل هذه القلاقل؟ وتقلب الأوضاع؟ وبسببها يُذل الكاهن «**زوبستف عنخ**» ويُسجن ويحل محله الكاهن التقي «**ينحاور**»؟! إن حملت تلك الاعترافات تجاوزات لـ زوبستف عنخ تُلقيه إلى السجن.. فلِمَ يُضرب بتيسي وعائلته ويحبسون بهذا الشكل؟!

أسئلة كثيرة كانت تدور في رأسي وأنا أتوجه - بأمر من الكاهن «ينحاور» وبصحبتي عدد من الرجال - إلى المكان المحتجز فيه بتيسي وابنه والأربعة أبناء عمومته، وهو مكان في نهاية المعبد من ناحية الشرق، لقد كلفني بوضع القفل على بابه بنفسي، وتعيين الحراس عليهم.

CamScanner

تنفيذ أمر المدير الإداري للمعبد والكاهن المطهر «ينحاور» أصبح فرضًا علينا جميعًا، ولا مجال للاعتراض أو حتى إظهار الشفقة على الكاهن المطهر «زوبستف عنخ» المحبوس في غرفة مجاورة للغرفة المحتجز فيها بتيسي ورفاقه، فعينتُ عليها أربعة حراس، اثنين نهارًا واثنين ليلًا، ثم ذهبتُ إلى الغرفة المجاورة وبابها كان على مسافة ثلاثين قدمًا من باب الغرفة الأولى، وخلفي اثنان من الحراس ليتبادلا حراستها. أوشكتُ أن أضع القفل حينما سمعتُ أنينًا يأتي من داخلها، أرهف السمع فإذا به الكاهن «زوبستف عنخ» يئن ويقول لنفسه في ألم شديد: «في أي زمن نحن..؟! تنقلب الأمور في طرفة عين ولا فضل لرجل أفنى عمره في هذا المعبد وفي خدمتهم؟!» ثم يأتي صوت آخر أكثر وهنًا وتألمًا يقول: «لقد كشفتَ يا بتيسي تلك المؤامرة التي حدثت من سنوات، وأنت تأمل أن يُرفع الظلم، فإذا بهم يكتبون فصلًا جديدًا في ملحمة الظلم.. واليوم طالتنا جميعًا أياديهم المخضبة بدماء أجدادنا».

يرقُّ قلبي وأنا أنصت لأنينهم يتحدثون عن تفاصيل **مظلمة** بتيسي، أشير بيدي ناحية الحراس بأن يلزموا أماكنهم بالقرب من الباب.. الصوت يتلاشى ليعم الصمت.. يطول انتظاري ولا جديد، كنتُ أخشى مواجهته، همستُ إلى الحراس أن يقفوا على بابه دون أي صوت، ثم تركتُ المكان دون أن أضع على الباب قفلًا كيلا أُحدث صوتًا قد يُثير الكاهن وتحدث تلك المواجهة التي أخشاها.

CamScanner ضوئيا بـ

الغد هو اليوم الثالث عشر من شهر أمشير، الاستعدادات لعيد **«شو»** في المعبد وفي مدينة **الحيبة** كلها تجري بلا كلل ولا ملل، السعادة ترفرف على الوجوه مثل طيور البلشون، إنه الاحتفال المعروف بيوم **الحرارة**، وفيه يشرب الجميع الجعة حتى الفقراء يحصلون على نصيبهم من جعة المعبد أو من تلك الآنية التي يوزعها الأثرياء. لقد أتى العيد هذا العام ليشهد صعود قوم وسقوط آخرين، مؤكد سوف يستغل الكاهن «ينحاور» هذا الاحتفال.

آثرتُ الخلوة والابتهال إلى الإله.. دلفتُ إلى غرفتي، أخرجتُ بردية إخناتون، قبل أن أتبحر في كلماتها أتأنى مَن يخبرني أن الكاهن **ينحاور** يطلب رؤيتي على وجه السرعة، هو موجود في الغرفة الرئيسية المخصصة لرئيس المعبد.. أعلم أنه لن يتركها خلال الأيام القادمة.. ولن يغفل عني أنا أيضًا! ذهبتُ إليه وأنا أرتب كلماتي، سوف يسألني عن سبب عدم وضع قفل على غرفة الكاهن «زوبستف عنخ»، وسوف أخبره أنني تركتُ الحراس على بابه وذهبتُ إلى غرفتي بعدما شعرتُ بألم شديد في بطني.

يستقبلني مهللًا على غير عادته وإلى جواره عدد من رجاله يرددون ما يقول كأنهم جوقة، لكنه كان تكرارًا مثيرًا للغثيان بأصواتهم الزلقة، آثرتُ الصمت وانتظار ما لديه، فإذا به يخبرني أن أُشرف على توزيع ثلاثة براميل من الجعة من مخزون المعبد، تعلو الدهشة وجهي حتى إن يدي اليمنى

CamScanner

ارتفعت إلى أعلى في حركة لم أقصدها، فمن أين للمعبد بثلاثة براميل من الجعة؟! أنا أعلم مدى الفاقة التي تعيشها المدينة، وأعلم أن القرابين التي تُقدم إلى المعبد من أهل المدينة لا تصل إلى أن توفر مثل هذه الكمية للمعبد، ثمة أمر غريب يحدث ولا أعلم تفاصيله!

يستشعر الكاهن «ينحاور» ما يدور بداخلي من أثر تفاصيل الدهشة المرسومة على وجهي، يضحك وتهتز كرشه وهو يتبادل النظر مع أتباعه، ضحكاته التي بدت مصطنعة هي وسعادته كلها لم تفلح في تغيير لون بشرته الذي يحاكي لون الليمون، داخله مرتبك، بصوته المرعوش الذي لم يعلُ من سنوات يقول: «لدينا الكثير يا أيها الكاهن «باتار»، كنا ندخره لمثل هذه الأيام.. أقصد أيام الأعياد»، ثم يضحك مرة أخرى، ويتبعه رجاله.

لديهم أماكن خاصة داخل المعبد يخبئون فيها القرابين! كم كنتَ ساذجًا أيها المطهر «زوبستف عنخ»! وكم كنا نحن سذجًا أيضًا حينما تحدث مثل هذه الأمور في المعبد دون علمنا! متى أتت هذه القرابين؟ وكيف دخلت إلى المعبد وخُزنت؟ وكيف لا نعلم عنها أي شيء؟! ثم لماذا أنا خاصةً أشرف على توزيعها على العامة وفقراء **الحيبة**، وليس أحد تابعيه من جوقته الذين يرددون خلفه ما يتفوه به من كلمات أو ضحكات؟!

بعدما أخبرني عن المكان الموجودة فيه براميل الجعة، يمد يده بمفتاح ضخم وهو يخبرني أنه مفتاح القفل الضخم، انصرفتُ ولم أسمع ما قاله

بعد رحيلي، لكن داخلي ظل يتقافز ليبحث عن السبب، فإذا بي أدرك قبل أن أصل إلى مخزن براميل الجعة أنه أسند إليّ تلك المهمة كي أظهر (وأنا أحد رجال زوبستف عنخ) أمام الجميع وأنا أوزّع الجعة كأني أحتفل بتوليه كهانة المعبد وإدارته.. إذًا ما يزال يظنُّ أني الرجل الأثير لدى الكاهن السابق «زوبستف عنخ»؟! فليظن ما يشاء.. وليسعَ هو ورجاله إلى ما تهوى أنفسهم، ويهوى كبار رجال الدولة.. أما أنا.. فسأفعل ما يُطلب مني فقط.. لي مهام بداخل هذا المعبد، ومنها أن طاعة كبار الكهنة واجب مقدس.

تمت الاستعدادات للاحتفال بعيد الإله «شمو» على أفضل ما يكون، وفي صباح اليوم التالي أشرفتُ على توزيع الجعة على سكان **الحيبة** الذين توافدوا أمام المعبد طوال النهار وهم في سعادة جمة غير مبالين بفاقتهم، ولا بمكائد حدثت وتحدث داخل المعبد، ينقضي معظم النهار، يتوافد الحراس من كل مكان في المدينة وحتى من المعبد لينالوا نصيبهم من الجعة، تعلو الأصوات في المدينة كلها وترتفع الحناجر بالصيحات والتهليل والغناء، ترحل الشمس وقد دارت الرؤوس وتوارى عن الأعين مَن توارى، واهتزت في عنف نباتات الأحراش، ويصدر منها أنين وغنج مع ضحكات مكتومة.. يحل الظلام وقد أُنهِكت الأجساد في كل مكان وعادت المدينة لتحاكي بيوت سكان العالم الآخر.

كنتُ قد نلتُ نصيبي من الجعة فشربتُ بعضه واحتفظتُ بما تبقى منه في إناء خزفي وضعتُه في جانب لوقت آخر، استبدلتُ ملابسي وتمددتُ في فراشي أصارع أفكاري وما حل بجسدي من إنهاك حتى ذهبتُ في النوم ولم أشعر بأي شيء، الأحلام يَئِسَتْ من زيارتي هذه الليلة، فكان جسدي يحاكي الموتى.

استيقظتُ على صراخ صادر عن الكاهن المطهر «ينحاور» وهو يقترب من غرفتي، في قفزة واحدة غادرتُ فراشي، وفتحتُ النافذة لأشاهد ما يحدث بالخارج، فإذا باليوم الجديد قد بدأ، وارتفعت الشمس من منبتها. تجسدت على وجه الكاهن «ينحاور» كل ألوان الغضب، وتبعه في الغضب مرافقوه، وكانوا عصبة من أبناء عمومته ورجاله المخلصين في المعبد.

أمام غرفتي وقفتُ أمامه لا أعلم ماذا حدث.. لا أفهم من كلماته المتداخلة غير أن هناك كارثة قد حلت، بعد قليل أشار ناحية الغرفة المسجون فيها الكاهن المطهر «زوبستف عنخ»، وقال ولعابه يتناثر من فمه: «هرب زوبستف عنخ أيها الكاهن باتار.. لماذا لم تضع على بابه قفلًا؟» وقفتُ حائرًا لا أجد ما أقوله، لقد ظنَّ أنني لم أضع على بابه قفلًا كي أتيح له فرصة الهروب؟!، أجبته بأنني تركت الحراس هناك.. أين كانوا وقت هروبه؟! لم يتفوَّه بكلمة أخرى، إنما تحرك ناحية الغرفة المحتجز فيها العجوز **بتيسي** ورفاقه، أشار فقط بيده في حركة عنيفة بأن أتبعه

مع رجاله، في الطريق سألتُ أحدهم: (وكان من أبناء عمومته، وليس من رجال المعبد، ويجري مسرعًا خلف الجمع يتعثر بسبب عصى طويلة في يده يطوحها كي يُظهر استعداده لنصرة كبيرهم **ينحاور**)، أخبرني أن الحراس كانوا قد ذهبوا في نوم عميق أو هي غيبوبة سُكر بعد ما عبوه من جعة شأنهم في ذلك شأن أهل **الحيبة** كلها. إذًا استغل الكاهن زوبستف تلك الليلة الغريبة التي مرت على **الحيبة** وهرب، السلاح الذي أراد أن يُشهره الكاهن الجديد «ينحاور» في وجه الكاهن القديم.. سلاح الاحتفال بتوزيع الجعة في عيد **شمو**، هو نفسه السلاح الذي ساعد الكاهن «**زوبستف عنخ**» في الهروب!

يقف «**ينحاور**» أمام الغرفة، نقف جميعًا خلفه وهو يأمر الحراس بفتح بابها، يبدو أن حارسها قد أغلقها بالقفل قبل مغادرته للحصول على جعته، مع حركة القفل والباب سمعتُ الأصوات بالداخل بين أنين، وصراخ، واستغاثة، وطلب عفوٍ، أميِّز من بين الأصوات صوت العجوز **بتيسي** يئنُّ شاكيًا.. يُفتح الباب فإذا بابن بتيسي يقف خلفه مباشرة يصرخ في الجميع بأن ما يحدث لا يُرضي الآلهة.. أما أبناء عمومته يتساءلون في حيرة عن سبب احتجازهم.. فإن كان بتيسي قد أخطأ فما ذنبهم هم؟ فليعاقب بتيسي وحده إن كان ثمة ما يستحق العقاب من الأساس.

CamScanner ـبـ

تلك كانت أصواتهم المتداخلة بين نداء وأنين واستغاثة، بينما يقف حارسان فقط يحتجزانهم كيلا يخرج أحدهم، فقد هرب باقي الحراس خوفًا من بطش «ينحاور» الذي يقف مكانه ونحن جميعًا نقف خلفه، تمر لحظات وتبدأ أصواتهم المرتفعة في الانخفاض درجة بعد درجة حتى يقترب، يعم الصمت المكان، فإذا بالكاهن **«ينحاور»** يصرخ في الحراس بأن يضربوهم ضربًا مبرحًا ويشير نحونا (أتباعه وأنا) بأن نساعد الحراس، وننقض على العجوز بتيسي ورفاقه لنوسعهم ضربًا.. يهجم الحراس لتنفيذ الأمر في قسوة لا تبرير لها غير إثبات الولاء والطاعة كيلا ينالهم المصير المظلم الذي ينتظر رفاقهم من حراس حجرة الكاهن **«زوبستف عنف»** الهارب. ويتبارى أتباع **«ينحاور»** وعددهم خمسة رجال أشداء في الضرب وإظهار قوتهم، وما يزال يشير بيده نحوي أن أتبعهم، فاقتربتُ حتى وقفتُ على باب الغرفة التي امتلأت برجال يضربون ويدهسون في عنف أجساد العجوز **بتيسي** ورفاقه الذين يصرخون من شدة الألم.. كانت العصي والأقدام والأيدي تضرب وتحمل وتُلقي الأجساد كأنها حصلت على أمر بالقتل وليس بالضرب.

يمرُّ وقتٌ طويل حتى يظهر التعب والإجهاد على الحراس وأعوان «ينحاور» من كثرة ما بذلوه من جهد في الضرب، فما بالنا بالمضروب! كيف هو الآن؟! إنهم أقرب إلى الموتى منهم إلى الأحياء وقد غطت الدماء معالم وجوههم، أجسادهم ملقاة على أرض الغرفة الصخرية في أوضاع

CamScanner

غريبة، حتى «ينحاور» نفسه اقترب في توجس وتأمل أجسادهم وهو يمسك بعقب الباب، فلما اطمأن داخله إلى أنهم قد فارقوا الحياة أو أوشكوا أمر أن يتم حملهم إلى ذلك **البرج القديم** الموجود في الطرف الغربي من ناحية الجنوب بالقرب من البوابة القديمة للمعبد.

نعلم جميعًا أنه بناء قديم متداعٍ ولا أحد يقترب منه؛ لأن صخوره قد تسقط في أي وقت لتقتل مَن بداخله، صخور ضخمة كان قد أتى بها عمال أشداء في القدم عند بناء هذا المعبد وقتما كانت هناك رغبات صادقة في تشييد مكان يتعبد فيه أهل **الحيبة** ويتقربون إلى الآلهة.

ماذا يريد ينحاور؟! سؤال يدور في رأسي وأتباعه برفقة الحراس يجرجرون العجوز بتيسي ورفاقه ناحية **البرج القديم**، أسير خلفهم بين متردد ومساعد، لا أعلم ما يجب عليَّ فعله، أشعر بأن حياتي مرهونة بكلمة واحدة مخالفة للكاهن «ينحاور»، أسير على حافة حادة أوشك على السقوط، أي كلمة في غير محلها أو فعل يصدر عني، سوف يصدر أمره بالتخلص مني بشكل مباشر، سوف تتغلب رغبته في التخلص مني على رغبته في استغلالي كواجهة أمام الناس.

نصل بعد مشقة إلى **البرج القديم**، بمنتهى الحذر ومن مسافة خطوات من باب البرج يقذف الحراس العجوز بتيسي ورفاقه إلى داخله مثل كومات قش متشربة بماء المطر، دماؤهم تلطخ الأيادي وأرض المكان،

CamScanner

ولا تصدر عنهم أي أصوات تؤكد أن أحدهم حي! نقف جميعًا في ترقب على مقربة، أما الكاهن «ينحاور» فقد ارتكن إلى صخرة عظيمة على مسافة من البرج يتأمل ما يحدث، بينما يبدو عقله مشغولًا بأمور أخرى، انتظرنا أوامره.. بعد برهة قال بصوت عنيف: «اهدموا عليهم البرج»، يتأمل بعضنا البعض في دهشة، كيف يتأتَّى لنا أن نهدم البرج الآن وألا يُصاب أحدنا؟! ثم إلى ماذا يرمي من ذلك؟! لو أراد التخلص منهم لأمرنا باستخدام أي وسيلة أخرى للتخلص منهم ولو بدفنهم أحياءً! يبدو أنه يخشى الكاهن الأكبر «أحمس» الذي لو أراد التخلص من بتيسي لفعل منذ حين، لقد وجد أن تلك وسيلة مُثلى للقضاء عليهم، فهي حادثة لا يد لأحد فيها.. يستطيع القول إنه حبسهم في البرج وفقًا لأوامر القائد «بكويب»، ولكن البرج انهار عليهم.

قبل أن يتحرك أحد يأتي صوت من الداخل، تعلو الدهشة وجوهنا.. أقتربُ لأشاهد فإذا به ابن بتيسي قد زحف لأقرب مكان وتعلق في نتوء صخري كي يصل صوته إلينا من فتحة باب البرج، وهي فتحة مهدمة متساقطة صخورها تعوق الحركة، يقول:

«ماذا تفعلون أيها الرجال؟! أنتم على وشك قتل أناس أبرياء في وضح النهار! هل ستنجون بفعلتكم هذه؟! لا.. ما ستفعلونه سوف يصل إلى سيد مصر.. إننا ستة من الكهنة ترغبون في قتلنا ثم تقولون: سنهدم برجًا عليهم؟! ألن يعرف الحاكم حقيقة ما حدث؟! سوف يعلم.. إن الكاهن

يا بـ CamScanner

المطهر «زوبستف عنخ» قد هرب منكم ويرصد أفعالكم وسوف يصل إلى الحاكم.. والقائد «بكويب» أمر بحبسنا ولم يأمر بقتلنا.. وحينما يعلم ما تفعلونه سيقول: الخراب الخراب للحيبة وكهنتها وأهلها الذين يقتل بعضهم بعضًا.. بل يقتل كهنتها الكبار كهنة أبرياء لم ينالوا في حياتهم غير الظلم.. اعلموا أن الحاكم والكاهن الأكبر والقادة لن يلتفتوا إلى الحيبة مرة أخرى، ولن يأتي إليكم رجل مهذب».

ينتهي من كلماته التي كانت تصارع من أجل الخروج.. يبكي.. يتألم.. يعم الصمت ونحن ننتظر أوامر الكاهن «ينحاور» الذي ذهب خلف أفكاره كأن كلمات ابن بتيسي قد أثرت فيه بشكل كبير، بالفعل إن هروب «**زوبستف عنخ**» لم يكن متوقعًا وقد يصل إلى الحاكم وتتغير الأمور في أي يوم ومهما يكن من غضب بكويب المنصب عليه فله الكثير من العلاقات والأصدقاء في قصر الحاكم، فقد استقر سنوات كاهنًا مطهرًا ومديرًا للمعبد، وقتها سوف يتم القبض على «**ينحاور**» قاتل ستة من الكهنة هم العجوز بتيسي وابنه وأربعة من أبناء عمومته. تظهر رعشة سريعة على أطراف أصابع «ينحاور» الذي يقترب في هدوء.. يتأمل الغارقين في دمائهم، يودُّ لو يقول إن زوبستف عنخ وأتباعه هم السبب في هلاك أسرة بتيسي والسبب في الدمار الذي حدث في الحيبة، وأنه كان يرغب في استخلاص اعتراف من بتيسي نفسه أمام الكاهن الأكبر أحمس بأن سبب هلاك المدينة كان عن

CamScanner

طريق كهنة أسرة بتيسي، وأن زوبستف وقطيعه لا يد لهم فيما حدث، أما وقد كتب بتيسي كل شيء على برديته وألقى الكاهن زوبستف إلى خارج المعبد فيكفي حتى هذا القدر يا بتيسي، ولتذهب أنت وأتباعك بلا رجعة حتى تستقر الأمور لي أنا «ينحاور» إلى الأبد.

لم يتحدث بكلمة واحدة، وإن كانت أصابعه تخمش الهواء في عنف، يلتفت إلينا ويأمر الحراس وأتباعه من أبناء عمومته الذين أتوا ينتصرون له، قائلًا: «احملوهم وألقوهم خارج المعبد، فما أمام العجوز بتيسي غير ساعة قبل أن يفارق الحياة».

كنتُ أرى في عينيه ذلك الصراع الرهيب الذي ينظر من خلاله إلى بتيسي الذي كان سببًا في إزاحة زوبستف عنخ من أمامه، ولكنه أيضًا تجرأ وكتب تفاصيل دقيقة يتهم فيها المعبد بكل رجاله بأنهم سبب خراب هذه البلدة، وهو (أي ينحاور) أحد هؤلاء الرجال، وقد يُتهم في وقت ما بتقصير سابق أو تراقبه الأعين في المستقبل وهو مدير هذا المكان، أو تصل تفاصيل البردية إلى ابن الإله حاكم البلاد في أي وقت، ويرق لحال أسرة بتيسي، ويأمر باعتلائهم مقعد كهانة الحيبة! الحل هو استغلال ما يحدث ويتم التخلص من بتيسي تمامًا، فلم يعد مرغوبًا فيه من أي فصيل.. أمر طبيعي أن تتوافق رغبات قوى الشر، وإن أكل بعضها بعضًا، ضد الخير.

CamScanner

مرة أخرى يجرهم الرجال لتختلط الدماء بالرمال حتى إذا خرجوا بهم من البوابة الرئيسية وأصبحوا خارج المعبد ألقوهم على الرمال المخلوطة بحصى صغير حادة أطرافه، ثم عادوا ينفضون أياديهم ويغلقون البوابة ويأمرنا «ينحاور» أن يعود الحراس إلى غرفهم، وأنا إلى غرفتي، ويذهب هو إلى مكانه وخلفه رجاله، ولا نعلم مصير بتيسي ورجاله خارج المعبد، لكني بعد هُنيهة ومن نافذة حجرتي أشاهد طيور جارحة تحوم فوق الأرض الممتدة أمام المعبد.

* * * *

CamScanner

(١٣)

ابنُ بتيسي

كأني كنتُ في نوم عميق أصحو منه برأس ثقيل وجفون تحاكي جفون الموتى، بصعوبة شديدة فتحتُ عينيّ، أتأمل المكان أبحثُ عن صوت ابن بتيسي الذي ما يزال صداه يتردد في أذني، أجدني في تلك الغرفة في مستشفى أجهل اسمه، تضارُب الأحداث في عقلي يجعلني أتأمل في ذهول، لا يعيدني إلى المكان إلا يد أمي الحانية التي تمسح راحتي، وتمسد شعرى في حنان، أرنو نحوها.. يبدو أن حركة عينيّ كانت مفاجئة لها، لقد شهقت في سعادة وانهمرت دموعها وهي تقف لتقبلني، تتناثر كلماتها بين الدمع والقُبل «أيمن.. حبيبي.. حمدًا لله على سلامتك.. يا حبيبي». لقد أصبحتْ خبيرة بتلك الأسلاك والأنابيب التي تصل إلى جسدي، فكانت تتعامل معها في دربة ومهارة.

أخبرتني بأن غيبوبتي قد طالت هذه المرة، صاحبها كثير من تشنجات ورعشات كادت تسقط قلبها من بين ضلوعها، فكانت تهرول في طلب الطبيب الذي يأتي مسرعًا ليمارس بعض تفاصيل عمله، في بعض الأحيان ينجح في السيطرة، وفي أخرى يفشل حيث تستمر **النوبة** كما يطلق عليها

الطبيب في الاستمرار، الطبيب كان يخرجها من الغرفة، لكنها كانت تتابع حركاتي من خلف الحاجز الزجاجي فما كانت تسمع صوتي.

تعتدل وتسأل في فضول: «قبل أن أخبر الطبيب بأنك قد أفقتَ يا أيمن.. أحيانًا تردد بعض الكلمات الغريبة، ما تلك الكلمات؟!» حاولتُ أن أسألها: أيُّ كلمات يا أمي، ولكن لساني لم يتحرك في مكانه، أحاول مرة أخرى.. لكني لم أجد القدرة الكافية على تحريكه.. يظهر الاستفسار على ملامح وجهي، تبتسم وهي تربت على راحتي التي تحتضنها بين كفيها، وتقول: «كلمات غريبة.. الإله.. الكاهن الأكبر.. كِمت.. بتيسي.. ينحاور.. وغيرها؟!».

«هي مفرداتي الجديدة في عالمي الآخر».. كنتُ أرغب في قول ذلك لكن لساني يعجز عن الحركة، تمسح وجهي، وتربت على يدي علامة ألا أجهد نفسي وهي تُكمل قائلة: «لا أخفي عليك يا أيمن.. شعرتُ بالرعب وأنا أقول إن ما بك هو مسٌّ من عمل الشيطان»، لا أعرف إن كانت علامات الدهشة قد ظهرت على ملامحي المتألمة أم لا.. لم تدع لنفسي فرصة استكشاف ملامحها وهي تضيف ضاحكة «وبّخني أبوك بنظراته التي تعرفها جيدًا وهو يقول إنها كلمات من صميم تخصصك في دراسات الفراعنة.. وأكد الطبيب صحة ذلك فاطمأن قلبي».

كأني بذلت في لحظات اليقظة هذه جهد كبير، فألفيتُ جسدي يتألم ويطلب السكون، لم أقاوم لحاجتي الفعلية إلى الراحة ورغبتي الغريبة في معرفة ما آلت إليه أمور العجوز بتيسي الذي أجد بداخلي ناحيته شعورًا بالذنب.

تتلاشى من أمامي تفاصيل الغرفة وأصوات الأجهزة ليحل محلها بالتدريج صوت رياح خفيفة في صحراء مترامية الأطراف، الهواء المحمل بحبيبات الرمال يلسع بشرتي وجزءًا كبيرًا من جسدي العاري.

تترك قدماي أثرهما في رمال الطريق، تهفهف ملابسي الكتانية أمام رياح تلك الموجة الآتية في هذا الشهر الذي يتعكر فيه صفو الإله **شمو** فتتقلب الأجواء بين ساعة وساعة، أقف لأستدير كي أدع لوجهي فرصة الهدوء.. أتنفس وأفتح عينيَّ، أشاهد المعبد يقبع في مكانه، وقد عمَّ السكون، واختفى الحراس والكهنة.. أعود إلى وجهتي ناحية المدينة.. لا يوجد أحد من أهل **الحيبة** خارج منازلهم إلا عدد قليل للغاية من العمال والفلاحين يعودون إلى مساكنهم، فقد خفَّت أسراب الطير إلى أعشاشها منذ قليل، وذاك مؤشر لهبوب عاصفة وأمطار غزيرة.

اخترت هذا التوقيت خاصةً لزيارة بتيسي في منزله؛ لأني أعلم أن كل مَن في المعبد سيلزم حجرته أو صومعته، ولن يلحظ غيابي أحد، أيضًا لن يأتي زوار للمعبد في هذا الطقس المتقلب.

مرت عدة أيام على إلقائه مضرجًا في دمائه خارج المعبد هو ورفاقه، ولم أستمع إلى أي أخبار تشير إلى وفاته، إذًا هو في منزله حتى اليوم، ولا أحد يعلم في أي حال يعيش.. بعد طول تفكير قررتُ زيارته متخفيًا في الليل.. لكني استشعرتُ تكدر صفو الإله **شمو** ، وأن عاصفة آتية.. فقررتُ الخروج الآن.

أقتربُ من منزل بتيسي، أقفُ كي أستطلع حركة الطريق الخالي من المارة، وجود كاهن مثلي في هذا المكان وفي هذا التوقيت يلفت الأنظار بشكل كبير، وسوف يجتمع أطفال المنطقة ونساؤها طلبًا لمنحٍ قد أحملها من الآلهة، أو كلمات أهمس بها تصاحب حركة من يدي على رأس أحدهم لنثر البركات.

يطمئن قلبي فأقترب من الباب الخشبي الضخم الذي يتوسط الواجهة الصخرية للمنزل، أرفع **المدق** النحاسي المصنوع على هيئة عصفور، أدق به عدة مرات ثم أعود إلى الخلف خطوة وأقف وقد ضممتُ يديَّ متقاطعتين على صدري في منتظرًا، يُفتح الباب فإذا بابن بتيسي يظهر متوكئًا على عصى وقد تورم وجهه من أثر ما تعرض له من ضرب، يتأملني في صمت، ولم يبدُ عليه أنه يتذكرني؛ لأنني كنتُ دائمًا في نهاية المتعاملين معهم (أعني العجوز بتيسي ومَن معه)، لكنه يتأمل رداء الكهنة الذي أرتديه في نفور، ابتسمتُ له في وداعة كيلا يعتقد أنني تابع لمَن ضربوهم،

CamScanner

يهدأ بعض الشيء قبل أن يسألني عن مطلبي، أخبرته أنني ما أتيتُ إلا كي أطمئن على المبجل بتيسي بعد ما تعرض له على يد الكاهن «ينحاور» ورجاله.

بعد قليل كنتُ أجلس في غرفة جانبية تطل نافذتها على الشارع، ويحدثني ابن بتيسي من بين آلامه عن أبيه، وقد دمعت عيناه وهو يخبرني أن الرجل العجوز الذي كان يجب أن يُكْرم في أيامه الأخيرة يُهان ويضرب حتى الموت؛ لأنه فقط كتب مظلمته على ورقة بردي، وأرسلها إلى حاكم البلاد. وقد أوشك بالفعل على المغادرة إلى العالم الآخر، لولا أن تدخل الأطباء على مدار الأيام الماضية حتى عادت إليه الحياة، واستطاع أن ينظر نحونا ويتقبل قطرات الدواء من قنينة الطبيب الفيروزية.

لم أجد عند ابن بتيسي شيئًا يذكر، فقط علمتُ أن المبجل بتيسي على قيد الحياة، وأنه بدأ يدرك ما حوله، ثم أصبحتُ غريبًا عن المكان غير مرحَّب بي على الإطلاق فطلبتُ الرحيل. غادرتُ إلى الطريق المؤدية إلى المعبد وأنا عاقد العزم على العودة في الأيام التالية كي أطمئن على الرجل، لا أعلم لماذا كنتُ أرغب في الجلوس والإنصات إليه، وحزنتُ على أيام مضت كنت رفيقه فيها ولم ألح عليه في السؤال عن التفاصيل كافة، ربما أمكنني أن أجد الخلاص له مما أوقع نفسه وعائلته فيه.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

تُظلم السماء بعد أن غطتها السحب الكثيفة، يتتابع البرق ويليه الرعد ليهز المدينة بأكملها، تذكرتُ **البرج القديم** على أطراف المعبد، كان الكاهن «ينحاور» يرغب في اتخاذه برجًا لإعدام بتيسي ورفاقه.. هل يصمد أمام غضب الآلهة؟! فجأة يسقط المطر في غزارة.. لا أبالي وأنا أشق طريقي في وحل الطريق، الماء يتسرب عبر ملابسي الكتانية إلى جسدي، شعرتُ على غير توقع بشيء من الحيوية والانتعاش.

أستقرُّ في غرفتي الخاصة بداخل المعبد، أتجول بين بردياتي، أرتلُ الترانيم لأتقرب إلى الآلهة بحثًا عن هدوء داخلي، بدأتُ أشعر باضطراب ورغبة مُلحة في مغادرة المكان، لا أشعر بأنني أنتمي إليه كما كنتُ في السابق، أتقلب في فراشي بعدما حل الليل وتوقف المطر، وبدأت الذئاب في العواء من مسكنها في قلب الأحراش البعيدة والمنتشرة على الجانب الآخر للبحيرة.

بعد يأس من اقتراب طائر النوم ليحتويني أغادر الفراش، أشعل ذُبالَةً مغمور طرفها في الزيت فيعلو ضوؤها ليخترق عتمة المكان في تردد وخوف، أحلِّق خلف انقباض صدري هُنيهة، أزفر بشدة، ترتكز عيناي على قطعة صخرية ضخمة ضمن صخور جدار الغرفة، بجوار الفتيل المشتعل، عليها بعض النقوش، أشاهدها للمرة الأولى، أقترب.. إنها نقوش قديمة.. أقرأ.. أكتشف أنها كانت جزءًا من لوحة كبيرة كانت قد نُقِشت في أحد

يا بـ CamScanner

العصور الماضية لتمجيد أحد الحكام.. اسمه غير واضح في هذا الجزء من النقوش.. كلمات مبهمة غير مكتملة المعنى عن انتصارات حربية أقرأ فيها عن ملك مثل أسد يثور ليفترس كل من يجده في طريقه، وتتساقط أمامه الأجساد، ويصد الرماح في قوة، وإن كانت ذات نصل نحاسي.

أتعجب من تلك الصفات التي يستحيل أن يتصف بها رجل وإن كان ملكًا، هي كلمات كُتِبت للتمجيد لا أكثر.. أتعجب أكثر من مكانها هنا.. في جدار غرفة في معبد الحيبة! هو معبد مُشيد بصخور من أبنية قديمة، ولم تشق صخور وتُنحت من أجله هو، صخور تحمل نقوش بطولات، تُحطم وتُحمل من مكانها لتُنهي مجدًا قديمًا لبناء مجد جديد!

أحمل الضوء، وأبحث عن صخور أخرى تحمل نقوشًا أخرى أمضي بها ليلتي الرهيبة تلك، يبدو أنني كنتُ أهرب من داخلي المحترق، لا أعلم ماذا أفعل، كل ما يدور بداخلي يلفظ هذا المكان، لكن إلى أين؟!

بعد طول تفكير يصاحب سهادًا مريرًا ينتهي بإغفاءة مؤلمة لجسدي أكثر منها مهدئة له، تقفز الفكرة من رأسي لتتجسد أمام ناظريّ «سوف أترك المعبد اليوم وأستقر في صحبة المبجل **بتيسي**. فأنا أمتلك مهارات طبية، وأستطيع معالجته»، أستيقظ وقد هدأ الذهن، يبدو أنه استملح ما استقر عليه، أتمطى في فراشي وأنا أتأمل شعاعًا وحيدًا من شمس الصباح تسلل من النافذة، أفتحها كي تتيح لحزمة من أشعة الصباح التسلل إلى تلك الغرفة الصامتة.

CamScanner ـبـ

أذهب إلى كاهن المعبد العالم بمبادئ الطب وتأثيرات العقاقير والأعشاب، يخبرني الرجل أنني كنتُ قد تعلمتُ الكثير من الوصفات الطبية في بداية دخولي المعبد منذ سنوات لولا انتقالي مع الكاهن التقي **ينحاور**، أحرك يدي في الهواء علامة أن «تلك رغبة الآلهة ولا مهرب منها يا سيدي الكاهن». أستمرُّ بينهم مدة ثلاثة أيام ولا أحد يعلم مقصدي، ينتشر بين الكهنة أني أرغب في هجر الأحداث الجارية على أرض المعبد، وأهتمُّ بشؤن الطب، فتلك كانت رغبتي الأولى.

في اليوم التالي طلبتُ منهم أن أضمِّد بعض الجروح لعدد من أهالي **الحيبة**، وكنتُ بذلك أخفِّف عنهم زحام المرضى، وأخفِّف عن المرضى آلامهم، وكم كانت عملية مضنية ممتعة. أن تبذل الكثير من الجهد كي ترى الحياة تعود لتدبَّ في الأجساد أمر يستحق التبجيل والتقديس، فلا غرابة أن يتحول الطبيب المصري «**إيمحوتب**» إلى إلهٍ للطب يتقدس اسمه ويسمو ليستقر بين الآلهة.

بعد عدة أيام من ممارسة تفاصيل عمل الكهنة الأطباء ووصفات الأدوية المستخلصة من الأعشاب والزيوت، أحمل قدرًا كبيرًا منها وأغادر المعبد، أخبرهم أني خارج إلى جولة أبحث فيها عن مرضى الفقراء لعلاجهم، لم يهتم أحد لخروجي بعدما استقرت لهم الأحوال في المعبد، وتوارت أحداث هروب الكاهن «زوبستف عنخ» والعجوز بتيسي ورفاقه، فقد كان

CamScanner

الكاهن «ينحاور» وأتباعه في سباق مع الأيام لتوطيد مكانتهم والحصول على كل الامتيازات الممكنة بعدما ولدت الأيام ما كانت فيه حبلى، وأتت الريح بما اشتهته سفينتهم، وانقلبت العواصف ضد مكايد زوبستف ومظلمة بتيسي، فيسقط الظالم والمظلوم، ويفوز ينحاور، ويتولى أبناء عمومته مناصب كبار الكهنة في المعبد، ويحصلون على كثير من الأراضي التي كانت وقفًا للمعبد إضافة إلى الثيران التي لا أحد يعلم من أين ظهرت، وبدأت حركة غريبة لاستقدام صخور جرانيتية ضخمة من أجل نحتها تماثيل عظيمة تُمثّل الكاهن «ينحاور».

توجهتُ إلى منزل المبجل بتيسي وأخبرتهم أني تركتُ المعبد إلى غير رجعة، وأتيتُ لتقديم العون ومساعدة المريض حتى يُشفى تمامًا.

****

CamScanner ـبا

(١٤)

منف

تمر الأيام وقد خصص لي ابن بتيسي غرفة في جانب المنزل وتحولتْ تعاسة أهل هذا البيت إلى سعادة وهم يلاحظون عودة الرجل وتعافي جسده بعد أن كانوا قد استعدوا لرحيله إلى العالم الآخر. في أول يوم ظهرتُ فيه (وأخبرتهم بأني أتيتُ من أجل تقديم يد العون إلى المبجل بتيسي والبقاء بجانبه حتى يبرأ) تعاملوا معي بجفاء تام حتى كادوا يلقونني وحقيبتي إلى منتصف الطريق، لكني لاحظتُ على وجه ابن بتيسي شحوبًا شديدًا وتقلصات مع بتر بعض الكلمات، تلك علامات تؤكد أنه يعاني آلامًا ما، فسألتُه: «هل يعاني آلامًا في البطن؟» وأشرتُ في اتجاه الجانب الأيسر من منتصف البطن، تتغير ملامح وجهه، وقد نظر ناحية سيدة الدار (زوجة بتيسي التي ستكون خلال الأيام التالية كأمٍّ لي) التي تهلّل وجهها، وأجابت وهي تشير نحو ابنها قائلة: «هو بالفعل يعاني آلامًا في بطنه منذ أيام، لكن حزنهم من أجل المبجل بتيسي أجّل أي آلام أخرى». اقتربتُ في هدوء وضغطتُ برفق جانب البطن الأيسر، فتألم وارتد إلى الخلف خطوة مع انحناء خفيف إلى الأمام، ابتسمتُ لهم وأنا أخبرهم أن الأمر بسيط، لكنه قد يتضاعف ويؤذي الجسد إن لم يتم إفراغ البطن

CamScanner

سريعًا، أخرجتُ من حقيبتي قليلًا من نبات «دجم»[1] المخلوط بجذر الرمان وعشبة العرعر مع الشعير المذاب في الماء، أعطيته قليلًا من هذا الخليط وأنا أخبره أنه يجب أن يتناوله مدة أربعة أيام، ثم أوصيتهم بنقع بذور الأنيسون في الماء وغليها على النار كي يشرب هذا المنقوع على فترات.

كنتُ بالفعل قد انشغلتُ بشحوب وجهه، لو تجاهل مرضه في خضم ما يمرون به من أحداث لتضاعف وعجز عن الحركة بعد أيام قليلة، أمراض البطن كما علمني كاهن المعبد هي الأكثر خطورة إن تُرِكت، على العكس من أمراض الأطراف، وجسد ابن بتيسي برئ من آثار الضرب وأحداث المعبد، لكنه كان أضعف من مقاومة أمراض البطن. يبدو أن تأثري بحالته قد ظهر أثره على ملامحي، فرقّ قلب سيدة المنزل ودعتني إلى الدخول، بعدها رَغِبَتْ في وجودي لمتابعة ما تصير إليه حالة الابن والإشراف على علاج المبجل بتيسي.

الحقيقة أنني وجدتُ فيهم أناسًا ذوي صفات رائعة غير مَن يقبعون في المعبد، أسرة المبجل بتيسي وفقًا لما علمتُ كانت فيما مضى من أيام الأجداد صاحبة مكانة عظيمة في هذه المدينة، وقد تدهورت أحوالهم بسبب الكثير من الأحداث، وتلك التي أخبرني عنها بتيسي نفسه التي كتب بعضها في برديته، وقد فضح الكثير من الكهنة وأفعالهم، وطالب

(١) «دجم» هو نبات الخروع.

CamScanner

بحقوق أسرته المنهوبة، وهذا بالطبع كان نتيجته ما حدث، لكنه (أي بتيسي) لن يترك حق هذه الأسرة ليضيع، وكنتُ أدهش لتصميمه، أنظر إلى جسده النحيل المتداعي وإصراره الشديد فأتعجب، لكني كنتُ أبتسم في داخلي وأنا أتعلم منه عناده، أبتكر في الوصفات الطبية وتركيب الدهون والأعشاب حتى أستخلص منها ما يساعده على الاستشفاء، فكان أول ما لاحظته على الرجل أنه لا يستطيع الحركة، فما تعرض له من ضرب وهو في هذه السن المتأخرة أصاب عظامه بالكثير من الكدمات، استخدمتُ عصارة نبات الصندل لتدليك جسده وخاصة أماكن التقاء العظام، كنتُ أدلكها مرتين في اليوم الواحد حتى بدأ يشعر بتحسن ملحوظ في الأسبوع الثالث.

أوصيتُ بأكل الكثير من البصل الذي ينشِّط الجسد بشكل مستمر ويزيد شفاء المفاصل، أما عن القروح المتخلفة عن الإصابات التي لحقت به، وكان بعضها عند الابن أيضًا وأبناء عمومتهم (في اليوم التالي لمجيئي أتى أبناء عمومته الأربعة طلبًا للعلاج، فكنتُ أفعل معهم ما أفعله مع بتيسي وابنه) فكنتُ أستخدم لها عجين الكمون المخلوط ببذور الكتان، وقد أينعت ثمار أشجار **الخوت** [1] في هذا الوقت من العام فحملتُ إليهم

(١) الخوت: التوت.

CamScanner

بعض ثماره كي تزيد من قدرتهم على هزيمة الأمراض وحالة الضعف التي ألمت بهم، خاصة الرجل المسن.

يتماثل المبجل **بتيسي** تمامًا للشفاء بعد أكثر من شهرين، كنتُ معهم مثل فرد من الأسرة، أو بالأدق أحد أفراد هذه المنطقة، فقد اشتهرت بأني طبيب قد خصصه **شريفٌ** مقرب من الحاكم المقيم في **منف** كي أضمد وأعالج المبجل **بتيسي** حتى يبرأ ويكشف ألاعيب المعبد وخباياه، فكان بعضهم يأتي كي يستطلع أمري فأحدثه بأني ما أتيتُ إلا محبة في المبجل بتيسي، وبعضهم يأتي للعلاج، فأقدم له يد المساعدة قدر ما أستطيع.

يقرر بتيسي الخروج إلى **منف** لمقابلة ابن الإله، فهو الحاكم، وسوف ينتصر له إن هو عَلِمَ الحقيقة كاملة. عودة إضمامة البردي التي كتب عليها كل التفاصيل من قبل وأعطى الكاهن الأكبر «**أحمس**» إياها قبل أن تُعرض على الحاكم تؤكد أن الكاهن الأكبر قد خالف وعده ولم يسلمها الحاكم خينما إياها، كان هناك ولم يرسلها من **أهناسيا** إلى الحاكم في **منف** بعد سفره. عليه أن يصل هو إلى الحاكم.

يعلو الحزن وجوه أفراد أسرة **بتيسي** حينما ضاعت محاولاتهم في إقناعه بالعدول عن فكرة السفر إلى **منف** ومقابلة الحاكم، حتى إن ابنه قال في يأس: «**حاكمٌ.. هؤلاء رجاله.. لا تنتظر نصرته**» لكن العجوز كان عنيدًا إلى درجة لا توصف، يبدو أنه عناد النهايات.. فلم يعد لديه ما

CamScanner

يخسره ليخاف عليه حتى سنوات العمر قد مضت ولم يتبقَّ غير أيام قرر أن يمضيها في الوصول إلى الحاكم وإظهار الحقيقة.

لم أجد أنا أيضًا ما أخشاه.. فأنا أشعر بداخلي أنني لا أنتمي إلى هذا المكان، فكرة الرحيل تسيطر على تفاصيل حياتي، ولا أسرة لي في هذه المدينة، فلم يعد عندي ما أخاف عليه، لذا اتخذتُ قراري بمرافقته إلى **منف**.

لم يحدد بتيسي يوم الرحيل إلى **منف**، وكان الجميع يتوقع أن تكون بعد عدة أيام، لكني فوجئت به يوقظني من نومي في مساء اليوم نفسه، تأملتُه في صمت وأنا أتابع لهب القنديل يهتز في جانب الغرفة والصمت يعم المكان، ينتظر الرجل حتى يتيقن من تمام يقظتي، فيطلب في همس الإسراع بحمل أشيائي للرحيل، ثم يشير علامة الصمت، ويرنو بعينيه إلى خارج الغرفة في إشارة منه إلى رغبته في الرحيل والجميع نيام.

بعد برهة كنا نشق طرقات **الحيبة** الغارق أهلها في نوم عميق، حتى إن بعض حيوانات الليل قد تجولت في الشوارع بلا خوف، ونعيق البوم يشق الصمت، فتضيع خشخشات ثيابنا وحركتنا الهامسة ونحن في طريقنا إلى شاطئ النهر.

لم يجد المبجل **بتيسي** مشقة في الاتفاق مع صاحب سفينة تحمل البضائع كي تقلنا حتى **منف**. كنتُ أتابع العجوز في دهشة، إنه يتصرف

كمن يعلم كل شيء، خبرته في هذه المدينة عبر سنوات عمره المنصرمة جعلته يحفظ مواقيت حل السفن وترحالها وطريقة التعامل مع أصحابها.

يجلس في المكان الذي يشير إليه صاحب السفينة، أضع حقيبتي إلى جواره، أراه صامتًا يتأمل الظلام تارة والحركة على السفينة تارة أخرى، أحاول بدء حديث، لكنه يشيح بوجهه ناحية أخرى، تلك عادته حينما لا يوافق الحديث رغبة بداخله، خلال الأسابيع التي أمضيتها في رفقته كانت هذه طبيعته وإن كنتُ في البداية اعتبرتُ صمته أثرًا من آثار الضرب والإهانة، لكني أتذكر رحلتنا إلى أهناسيا في صحبة الكاهن الأكبر «**أحمس**»، وكيف كان **بتيسي** صامتًا، أجزم أنه رجل صموت، أعيد التفكير مرات ومرات وأجد في كل مرة لصمته أسبابًا، فأعود عن الجزم بأن تلك صفة من صفاته، حتى ما نحن فيه الآن وصمته الرهيب قد يعود إلى تفكيره المستمر فيما هو مُقبِل عليه.

بعد قليل يعلو صوت رجل السفينة مناديًا بحارته بأن وقت الرحيل قد آن، تتحرك السفينة مع انحدار الماء فتنساب على صفحته مسرعة، يبدأ الهواء المشبع ببرودة الماء والليل في التسلل إلى عظامي، أنكمش طلبًا للدفء، بلا كلمات يُلقي بتيسي غطاء يستخرجه من حقيبته الكتانية التي تضم أشياءه. أتدثر بالغطاء، وأذهب خلف أفكاري حتى أذهب في نوم يتأرجح مع موجات النهر.

CamScanner ـبا

ذهبتُ في نوم طويل تتداخل فيه الأحلام ما بين ضباع تنهش جسدي وأسود ممددة في خمول تتأمل في لا مبالاة ما يحدث مما يزيد من شراسة الضباع، أحاول الفرار، لكني لا أتحرك من مكاني وصرخاتي لا تغادر حلقي.. ألهث وأنا أشعر باختناق شديد.. استيقظتُ مفزوعًا.. تأملتُ الضباع حولي فإذا بي على سطح السفينة، الشمس اقتربت من منتصف السماء، لم أجد المبجل بتيسي إلى جواري، تأملتُ المكان فإذا بالعمال في حركة دائمة بأجسادهم العارية إلا من قليل يستر عوراتهم، البضائع مكدسة في كل مكان على السفينة من إضمامات بردي وآنية ضخمة ذات أغطية نحاسية يبدو أنها مملوءة بالجعة، وصناديق خشبية كثيرة لآنية النبيذ، ولفات كثيرة من قماش الكتان، بالإضافة إلى صفوف من جلود الحيوانات، وأقفاص مخصصة للبط والإوز ودجاجات تصيح فوق الأقفاص، وقد خرجت تنقر في زكائب الشعير والحنطة التي تحتل مؤخرة السفينة.

لا يبالي بي أحد، جمعتُ الغطاء ودسستُه تحت حقيبة بتيسي التي وجدتُها إلى جواري، وقفتُ أتمطى وأتثاءب وأنا أبحث عن الرجل العجوز، بعد برهة وجدته يجلس في مقدمة السفينة خلف كوم من تلك الأكوام المكدسة في كل مكان، كان يتحدث مع أحد الرجال.. اقتربتُ فإذا هو يساومه على بعض الأطعمة، يتأملني بعينين مريضتين خامدتين أسفل جفون مرتخية، أشار نحوي بأن ألزم الصمت.

استغرقت رحلتنا من **الحيبة** وحتى مستقر ابن الإله حاكم البلاد في مدينة **منف** ثلاثة أيام لم يحدثني فيها المبجل بتيسي إلا بكلمات تجبره

CamScanner

تفاصيل أيامنا على التفوُّه بها، لم يُفصح عن أيٍّ من ذكرياته، كنتُ أحسبه سيحدثني بها خلال رحلتنا. نغادر السفينة في هدوء، بينما يعلو صخب العمال، وقد دبت فيهم الحياة بشكل غريب حينما تبدأ مرحلة تنزيل حمولة المركب، على الشاطئ نمرُّ من بين عدد كبير من الرجال يبدو من تلك السعادة البادية على وجوههم أنهم في انتظار البضائع المختلفة.

أتطلع إلى المدينة الصاخبة المترامية الأطراف على شكل دائرة بداخلها تقاطع طريقين، إنها «**مِن نفر**» التي تضم أكبر المعابد وأشهرها وهو معبد **بتاح**. يجب أن أزور المعبد وأتعرف إلى كهنته، لكن بعدما ينتهي المبجل **بتيسي** من أمر شكايته التي أتينا من أجلها.

على أطراف المدينة من جهة اليمين يبدو بناء مرتفع على شكل هرم مدرج، أسأل أحد المارة وأنا أشير في اتجاه الهرم فيخبرني ضاحكًا: «يبدو أنك غريب عن المدينة وإلا كنتَ تعلم أن هذا هو هرم **زوسر**، أطلق عليه اسمه بعدما جدَّده وأعاد إليه أحجاره بعد سنوات طويلة من البناء الأول على يد المبجل **إيمحوتب**» يتنهد الرجل قبل أن يشيح بيديه في الهواء ويضيف: «كان منذ مئات السنين أيام كان يُطلق على مدينتنا مدينة **الجدار الأبيض**». ثم يرحل الرجل وعلى وجهه ابتسامة يشوبها بعض القلق، ولا أعلم لماذا القلق وحديثنا عن شيء حسن! من بعيد ألحظ عيني ضبع مختفيتين بين الزحام تتابعان حركة غرباء مثلنا، لا أوليها أي اهتمام، وألحق ببتيسي الذي لم يكن قد توقف وقت توقفي.

نتوجه مباشرة إلى قصر الحاكم، كنتُ في دهشة من عزم بتيسي، فهل تتاح لنا فرصة مقابلة الحاكم في يُسر؟! أحسب أن الأمر يحتاج إلى ترتيبات تستغرق عدة أيام. أنقل هواجسي إليه، لكنه يسير خلف توجيهات أبناء المدينة حينما يسألهم عن قصر الحاكم ولا يهتم بما يدور في خلدي، بعد إلحاح مني، وكنا قد أوشكنا على الاقتراب من القصر، الذي بدا من بعيد مثل كائن عظيم رابض في توحش، يقف بتيسي ليواجهني وهو يقول: «لقد وافقتُ على أن ترافقني لتعلم ما تريد أن تعلمه.. فاترك لي شأن تحركاتنا، وسوف تعرف كل شيء في حينه». ثم يتحرك خطوة يقف بعدها مرة أخرى، ويرفع سبابته في وجهي ليقول بكلمات حازمة: «لا تسألني يا باتار مرة أخرى، ولا تُبدِ رأيك في تصرفاتي.. فأنت صاحب فضول، كثير السؤال، وإن لم ترغب في ذلك فارحل عني»، تسري بداخلي علامات الضيق حتى تظهر على وجهي، وقبل أن أتحدث معبرًا عن رفضي كلماته يقول: «نعم.. ارحل واتركني لشؤوني.. يكفيني ما أعيشه من هموم.. وأنت تستطيع أن تعيش كما تشاء.. وقتما تيأس أمامك المعبد».. تتملكني الدهشة ويلاحقني الضيق اللصيق بهاتين العينين الضبعيتين اللتين أشعر بهما تلاحقاننا من الخلف رغم عدم ظهورهما، تحدثتُ إلى بتيسي بأني أشعر بعيون تراقبنا.. يمط شفتيه في سخرية ويسير بلا كلمة ولا أعلم هل يرفض إحساسي أم أنه يصدقه، لكنه لا يملك ردعًا أو مواجهة تلك العيون المراقبة!

يتحرك ليتركني في حيرة من أمري، أتبعه وقد غلبني فضولي، إنه يقرأ داخلي في يُسر، لقد أدرك شغفي بالمعرفة ولا سيما تلك الأحداث التي كاد يفقد بسببها حياته.

تذكرتُ الكاهن المطهر **زوبستف عنخ** وتغيُّر أحوال الدنيا معه، كان يرغب في السيطرة التامة على المعبد والمدينة، ويقضي على تفاصيل الماضي التي تلاحق سيرته بأن يحصل على اعتراف من بتيسي يعضد به مُلكه، فإذا بما أراده لينقذه هو نفسه الذي يقضي عليه، تساءلتُ في نفسي: «ترى.. أين هو الآن بعدما هرب من محبسه في المعبد؟!».. كنتُ أسير بجوار بتيسي الصامت تتلاحق أنفاسه من أثر السير والتفكير، تأملته بجسده النحيل، ثم سألته كنوع من التسرية، ولتخفيف حدة الحديث بيننا بعدما كانت كلماته الأخيرة تحمل غضبة أودُّ لو نسيها.. قلتُ: «ترى أين ذهب الكاهن المطهر زوبستف عنخ؟!».. لم أكن أتوقع قط ردة بتيسي الذي وقف يصعدني بنظراتٍ شرسة غضبى، ثم يقذف بكلماته المختلطة بفتات لعابه.. تخرج كلماته التي يلعن فيها **زوبستف عنخ وينحاور** وكل كهنة المعابد الذين تركوا عبادة الآلهة وبحثوا عن مكاسب يملؤون بها بطونهم وخزائنهم ويشبعون بها شهواتهم، إنهم يتحركون ويحركون معهم الجميع باسم رضاء الآلهة وإرضائهم وهم يبحثون عن إرضاء أنفسهم في المقام الأول.. ثم تختلط الكلمات في فمه، فيتوقف عن الكلام ويشيح بيديه في الهواء كأنه يقول: «يئستُ من الحديث».. يتحرك في طريقه وأنا أتبعه صامتًا، كنتُ أودُّ التقرب منه وتهدئة داخله، فإذا بي أُغضبه أكثر!

أصمتُ حتى إذا وصلنا عند بوابة القصر يُوقفنا عدد من الجنود، وقد بدت على ملامحهم الدهشة من اقترابنا، فقد وصلنا سيرًا على الأقدام

لا تحملنا عربات يجرُّها الخيل أو نمتطي صهوة أحصنة تدل على أننا أصحاب جاهٍ! يشير نحونا أحدهم في سخرية وهو يقول: «ألم يخبركم أحد بأن ابن الإله حاكم البلاد له الصحة والفلاح والعافية قد أصدر أوامره بقتل أي متسول يقترب من القصر؟!».

أختلس النظر نحو بتيسي، ثم أشير بيدي وأنا أرغب في أن أقول: «نحن لسنا متسولين، بل... » لكن بتيسي يشير نحوي بأن ألزم الصمت، ويتأمل الحارس والمكان كله قبل أن يرفع يده نحو بوابة القصر وهي بوابة عظيمة على جانبيها عمودان شاهقان، وبجوارهما برجان يحتمي فيهما الحرس وقت الحاجة، يقول بتيسي: «أخبر مدير القصر برغبتي أنا **بتيسي** بن كاهن **الحيبة** في مقابلة سيدي الحاكم له الصحة والفلاح والعافية». كان يتحدث في هدوء ورزانة جعلت الحارس يعتدل وهو يُخفي تلك الابتسامة الساخرة من فوق وجهه، ويتبادل مع رفاقه النظرات، ثم يقول: «سوف أخبره».. ولم يتحرك من مكانه مما جعلني أطلب منه أن يتحرك، يرمقني بنظرة غيظ ويقول: «هناك نظام مُتَّبع أيها الشابان.. ارحلا الآن.. وارجعا في أول ليل الغد لأخبركما بالموعد الذي سَيُحدد لمقابلة سيدي الحاكم له الصحة والفلاح والعافية».

يتحرك بتيسي ليترك المكان دون كلمة أخرى، فلا أمل في جدالهم، يجب أن ننصرف، أسير خلفه وأنا أفكر في الوقت المتبقي حتى ليل الغد، أين

CamScanner

نُمضي ليلتنا هذه وقد يُحدد اللقاء بعد ليلة أخرى أو أكثر؟ تحدثتُ بما في نفسي إلى المبجل **بتيسي** وكنا قد وصلنا إلى أطراف المدينة حيث منازل أهلها وأعداد منهم يتحركون في كل اتجاه وقد ظهرت على وجوههم طمأنينة مفقودة في مدن وبلدان بعيدة عن مقر ابن الإله.

يتخذ **بتيسي** من صخرة ضخمة ملقاة في إحدى النواصي متكئًا له يرتكن إليها بظهره، يقف وقد جعل قصر الحاكم قبلته، بعد برهة تأمل فيها المارة والمكان يضع حقيبته ويجلس القرفصاء، تعجبتُ مما يفعل وسألته، فأجاب: «سوف أمكث هنا حتى أقابل الحاكم»، أرنو في دهشة إلى تفاصيل المكان من حولي، فإذا بالناس عنا مشغولون، والمكان رغم الزحام موحش يشعرك بغربة شديدة، وما تزال عيون الضباع تلاحقني فتؤلم ظهري الملتصقة به، سألتُه: "هنا أيها المبجل **بتيسي**؟! يجب أن نبحث عن مكان للمبيت ومكان آخر يقدم الطعام و.." يقاطعني مؤكدًا رغبته من خلال الضغط على حروف كلماته: "لن أبرح حتى أقابل ابن الإله حاكم البلاد، أما أنت فافعل ما تريد".

****

CamScanner

(١٥)

تاميشا

الأيام بأزماتها قاسية على المشاعر فتذهب برقتها.. تغرس أنيابها في لحم الجسد فيشتد ويصعب مضغه.. تكون على مكونات الفكر مثل مطرقة حداد يدق بها قضيبًا متأججًا فيخلق منه سكينًا حادًّا.. فيحتد الفكر كلما قاسينا ويلات الأيام، ويزيد إدراكنا بأن صراعنا كان خلف سراب، وأن أيادينا عادت فارغة، وقلوبنا تملؤها حسرات بعدد ما مرّ من أيام العمر، فما حدث لي في الأيام التالية، بل في الشهور الأخيرة حتى يومي هذا، لم أكن لأتحمله مهما أكن أتحلى بالصبر والجلد، وبعد طول تفكير قررتُ أن أبحثُ عن حياة جديدة أعيشها في منف مدينة الحاكم.

يستقر **بتيسي** على قارعة الطريق، قِبلته قصر الحاكم، يذهب إليهم في الموعد المتفق عليه، وكنتُ أرافقه في هذا التوقيت، أخبرونا أن ابن الإله لن يقابل أحدًا من عامة الشعب حتى تمام القمر في السماء، إنه يمارس طقس عبادة جديدًا، ويمتنع عن الظهور، طلبوا منا الرحيل في هدوء. يتسرب اليأس إلى نفسي، لن يتم القمر قبل عشرة أيام، كيف نمضي هذه الأيام أيها المبجل بتيسي؟! لكن العجوز يتحرك في صمت، يجرجر قدميه، أمسكتُ بيده اليسرى خشية أن يسقط، وصلنا إلى تلك الصخرة التي أمضينا الليلة

CamScanner

السابقة بجوارها ليجلس عليها وقد تلاحقت أنفاسه، أحترم صمته هنيهة حتى إذا هدأ أعيد سؤاله، يتأملني بعض الوقت قبل أن يجيب بالكلمات نفسها: «لن أبرح حتى أقابل الحاكم». على مضض رافقتُه عدة أيام كنتُ أعاني فيها الكثير، فكنا نذهب كل صباح حتى البوابة الرئيسية لينهرنا الحراس ويطلبون الرحيل.

ما جعلني أترك بتيسي في هذا المكان وأبحث عن حياة أخرى كان آخر ما ننتظر حدوثه في هذه المدينة، إنه «**بكويب**».. لن أنسى ذلك الرجل الذي أتى إلى الحيبة وأصدر أوامره التي غيرت كل شيء، أوامره التي ألقت الكاهن «**زوبستف عنخ**» إلى السجن بعد أن كان كبير كهنة المعبد ومديره، وعيَّن بدلًا منه الكاهن المطهر «**ينحاور**».. وأمر بالقبض على بتيسي وابنه وأربعة من أبناء عمومته، هذا الرجل كان يركب عربة يجرها زوجان من الخيل يتلألأ لونهما الأبيض تحت أشعة الشمس ويتوجه إلى داخل قصر الحاكم، كنا في هذا الصباح قد ذهبنا إلى القصر، وعاملنا الحراس بمنتهى القسوة عما سبق من أيام، في هذا التوقيت ثاروا وزادت قسوتهم وهم يطلبون منا الإسراع بالذهاب؛ لأن الشريف «**بكويب**» يقترب بعربته، وقفنا نشاهده يقترب في صمت، ولا نعلم ماذا نفعل. كنتُ أدعو الإله في داخلي بألا يرانا «بكويب» الآن.. لكن إله هذه المدينة فيما يبدو يرفض تقديم العون لنا منذ أن وطئتها أقدامنا، فها هو «بكويب» يقترب، ثم يتوقف إلى جوارنا تمامًا.. لم ينظر ناحيتي.. يتأمل المبجل **بتيسي** والدهشة ترتسم على وجهه، ثم يتحرك في هدوء دون أن يتحدث بكلمة واحدة

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

قبل أن يتوقف تمامًا ليتحدث مع رئيس حراس البوابة الرئيسية للقصر، نشاهده وهو يشير ناحيتنا.. يرتد رئيس الحراس إلى الخلف، ويأمر رجاله بفتح البوابة على مصراعيها ليدخل الشريف بكويب إلى القصر بعربته التي يجرها زوجا الخيل ناصعا البياض مثل عروس تتألق، ثم تُغلق البوابة ويتحدث رئيس الحراس إلى رجل من رجاله وهو يشير نحونا، يأتي الأخير وقد احمرّ وجهه وظهرت على ملامحه تفاصيل غضب عظيم، لكنه غضب معظمه مفتعل من أجل إرهابنا، يشير نحونا بأن نرحل عن المكان، فلن نستطيع مقابلة الحاكم أبدًا بعد أوامر الشريف «بكويب»، وأننا إن اقتربنا مرة أخرى من القصر فسوف يعاملوننا على أننا لصوص.

أمسكتُ بيد العجوز **بتيسي** كي نبتعد عن المكان، يملص يده من يدي، يقف في مواجهة الحارس مثل ندٍّ عنيد وهو يقول: « أنا صاحب حقٍّ ولن أبرح.. وشكايتي أختصم فيها هذا الرجل الذي يأمر بلفظي عن المكان». أشار بيده في الاتجاه الذي سار فيه «بكويب».. جذبته.. أو لنقل إني حملته كي أبتعد وفي داخلي كلمات تتبعثر قبل أن تصل إلى لساني مفادها: «من أين تأتي بهذا الإصرار أيها المبجل **بتيسي**؟!».

عُدنا إلى المكان نفسه، يجلس **بتيسي**. تضيع سدى كل محاولاتي في إقناعه بالرحيل والعودة إلى **الحيبة**، فلن ننجح في مسعانا بعد ظهور **بكويب** هذا، لكن الرجل يرفض في عناد ويطلب مني الرحيل. أتركه وأسير في المدينة على أمل أن أعود إليه في المساء بعد أن يهدأ قليلًا.. فقد أفلح وقتها في إقناعه بالرحيل.

ا بـ CamScanner

أتجول في المدينة على غير هدًى، أمضينا الأيام الماضية نتناول كسرات خبز من شعير، فأصبح جسدي يئنُّ، يأمل في طعام مطبوخ على نيران مقدسة كتلك التي كنا نحصل عليها في المعبد كل عدة أيام، لقد تعودت أجسادنا العيش أيام طويلة على كسرات خبز وحنطة، لكنها تكون مع بداية دخول المعبد، أما فيما بعد تتغير الأحوال ويلتهم الكهنة أشهى الأطعمة، وحينما سألتُ الكاهن التقي «**ينحاور**» في السنة التالية لدخولي المعبد وكنتُ أتبعه في ذلك الحين عن سبب الحرمان من الأطعمة الجيدة رغم وجودها؟! يخبرني أن ذلك طقس تدريبي لكل الكهنة في بداية التحاقهم بالمعبد، فلا أحد يدرك كم من الشقاء قد يتعرض له في أي يوم، ويجب أن يتعلم الجسد كيف يعيش في أحلك الظروف. وها هي الأيام الحالكة تأتي، ويتحمل الجسد عنفها؛ لأنه قد تدرب فيما سبق على ما هو أسوأ.

الآن وأنا أسير بين أهل **منف** والوافدين إليها من تجار، وجنود، وعمال نحت نافرة عضلاتهم، ورسامين، وفتيات يتدللن، وسيدات يحملن أطفال، وحوانيت مفتوحة تعرض صنوفًا مختلفة من جلود، وكتان، وآنية جعة، ونبيذ، وخبز شعير وحنطة. يتخبط في أقدام المارة أطفال يلعبون ويصرخون في سعادة، بينما تنادي أحدَهم من نافذة إلى جواري فتاةٌ تصغرني بأعوام قليلة، تتأملني وما تزال تنادي بكلمات واهنة، أبادلها النظرات هُنيهة وقد أخذتني عيناها وشفتاها المكتنزتان الحمراوان مثل

CamScanner

حبوب **«رمن»**[1] رائعة، عرفتُ من كلماتها أنها تنادي أخاها الأصغر ليتناول الطعام، الطفل لا يهتم بندائها، وأظنُّ أنه سَعِدَ بتلاشي صوتها ونحن نتبادل النظرات، أفقتُ على أحدهم يمر في الطريق يلكزني في كتفي وهو يقول: «لماذا تقف هكذا مثل تمثال صخري أيها الغريب؟!».. تحركتُ في خطوات لا إرادية نحو الفتاة التي تقف بالداخل ويظهر جزء كبير من جسدها خلف فتحة النافذة، تلعثمتُ وأنا أسألها عن مكان أتناول فيه الطعام، ضحكتْ في رشاقة ومشاكَسَة وهي تشير نحو مكان يبيع خبز الملتوت والجرجوش، لم أهتم بما أشارت إليه وأنا أتأملها في سعادة ولا أعلم لماذا؟! على ملامحها شيء غريب يشدني إليها رغم بساطتها في زينتها وملابسها، شعرها ينسدل على جانبي وجهها في هدوء، بينما ترتدي رداء كتانيًا مضفرًا، ألاحظ أظفار يديها مطلية باللون الأسود وهي تضع يديها على قاع النافذة العريض المطلي بالملاط كباقي المنزل المبني من الطوب المصنوع من الطين والمحروق تحت أشعة الشمس وقليل من نيران في هشيم، أقترب منها خطوة كيلا أعوق حركة أحدهم في الطريق، وأيضًا كي أشاهد حُسنها عن قرب، لا تستطيع أن تُخفي سعادتها باقتراب غريب منها، فتبتسم في صمت، ولم تخفض عينيها، أهمسُ كأني في حضرة إلهة الجمال أو كأني أتحدث بكلمات غرام، فخرجت الكلمات متسائلة عن مكان لبيع طعام نَضِجَ على النار، فقد سئمتُ الخبز والجعة. ضحكتْ بصوت رقيق وقد تصنعت الدهشة وهي تقول: «غريب يرغب في لحم

---

(١) حبوب رمن أي الرمان.

مطبوخ؟!» ثم أردفت بعد لحظة صمت: «وأي لحم تريد أيها الغريب؟ إوز.. أم دجاج.. أم تراك تريد لحم ثور؟!» كنتُ قد اقتربتُ منها، ولم يعد يفصلنا غير نصف خطوة، أُخِذتُ بحُسنها فنسيتُ المبجل **بتيسي**، وما نلنا من نصب بسبب إصراره على الوصول إلى الحاكم، بل نسيتُ أني أقف في طريق، وهناك أناس من حولي في كل مكان، بعد هُنيهة أشعر فيها بشيء يسري من جسدها عبر عينيها إلى جسدي، فيتوغل في كل مكان لأشعر بسعادة تظهر تفاصيلها مع ابتسامتي وأنا أخبرها بأني طبيب وكاهن أتيتُ في رفقة عجوز مريض سوف يقابل الحاكم ابن الإله، ولا مكان لي أعيش فيه أو أتناول طعامي حتى يحين موعد عودتنا إلى مدينتنا.

تغيرت تعبيرات وجهها حينما علمت أني طبيب وكاهن، تعلوها جدية لم أكن أتوقعها وهي تدير رأسها وتهمس في توتر: «طبيب وكاهن.. أي آلهة أرسلتك إلينا؟!» ثم أردفت وعيناها تتأملانني، ثم تنظر إلى داخل الغرفة وتقول: «هل أدعوه؟» وبسبب الأصوات حولي لا أستطيع سماع ذلك الصوت الذي يجيبها بالداخل، فجأة تغيب داخل منزلها لأقف أنا غارقًا في حيرتي، أفكر في استدعاء أخيها من بين الأطفال ليأتيني بخبر، قبل أن أتخذ قراري إذا بباب المنزل يُصدر صوتًا مثل بكاء طفل وهو يُفتح لتظهر هي من خلفه، تأملتُ جسدها كاملًا، فإذا به يميل إلى الامتلاء بعض الشيء، وإن كان جسدًا بضًا يجذب العين كي تتأمله في اشتهاء، لاحظتُ أن نظراتي نحوها كانت شديدة على غير تناسب مع طبيب وكاهن، فتوجهتُ بنظراتي قليلًا ناحية الباب المفتوح، أتأمله، لأشغل نفسي عنها بعض الوقت،

هو باب مصنوع من الخشب منحوت عليه في نقوش بارزة وغائرة تعويذة **كف الوقاية**[1] على أكثر من شكل للحماية من الحسد وطرد الأرواح الشريرة، يتوسط كل هذه النقوش كف ضخمة مرسوم على أصابعها الخمسة رموز وطلاسم ترمز إلى «**معبودات الزمن**». فالإصبع الأولى إله الساعة، والثانية إله اليوم، والثالثة إله الشهر، والرابعة إله اليوم القمري، أما الإصبع الخامسة فإله السنة، وبطن الكف يرمز إلى برج صاحب المنزل.

تخرجني الفتاة من شرودي بصوتها الناعم الذي انكسرت جرأته مع تغيُّر الحدث، فقد كنتُ منذ قليل مجرد غريب عابر يسأل سؤالًا وينتهي أمره، أما الآن فأنا مدعو كطبيب أو كاهن لا أعلم، تشير إلى الداخل وهي تقول: «أبي ينتظرك في الداخل»، ثم تخطو فأتبعها.. في إثري يدخل الفتى وقد أخرجه دخول غريب إلى المنزل من لعبه مع أقرانه، يتأملني في صمت، وعلى وجهه السؤال الحتمي: «مَن هذا؟!» وهو يقترب كي يلتصق في جسد أخته التي تدفعه بعيدًا عنها طالبة منه التزام الصمت بالرغم من أنه لم ينطق بكلمة واحدة، إنها تهرب من ارتباك بداخلها أشعر ببعضه في داخلي، أنفض عني ما يحدث وأتوجه إلى باب الغرفة التي تشير نحوها، فإذا برجل خمسيني نحيف الجسد يتمدد فوق حاشية من القش في جانب الغرفة، يتكئ الرجل على مرفقيه ويقاوم نوبة سعال ألمَّت به على

(١) كف الوقاية تماثل اليوم الخمسة وخميسة.

أثر الجهد المبذول في الاعتدال، يرحب بي بكلمات مبتورة، هو مريض صدر من أنفاسه المتلاحقة وسعاله.

أجلس على مصطبة صخرية في جانب الغرفة تغطيها حاشية أخرى من القش والرجل يقول: «هل أنت طبيب حقًّا؟! لا أملك ما أقدمه للطبيب في المعبد، ولا حتى أستطيع تقديم قربان إلى ثالوث منف[1]».

ابتسمتُ له ثم ألقيتُ نظراتي نحو الفتاة التي تقف إلى جانب باب الغرفة، والآن تترك أخاها يلتصق بجسدها في هدوء. أخبرتُ الرجل أن الأمر بسيط وسوف أقدم له العلاج اللازم ليبرأ خلال أيام. يتهلل وجه الفتاة وتتحدث إلى أبيها في جرأة كأنها تخبره أن كلماتها قرار نهائي، تقول: «سوف أذبح الإوزة يا أبي.. فالغريب.. أقصد أنت والغريب في حاجة إلى طعام حقيقي». يبتسم لها الرجل ومن بين آلامه وسعاله يشير بالموافقة، أتحرك لأجلس بجواره، أضع حقيبتي على الأرض في هدوء خوفًا على ما تحويه من قوارير، أخرجتُ زيت الكافور، وسكبتُ منه قطرات قليلة على صدر الرجل بعد أن كشفته، تنادي الفتاة من الداخل أخاها الجالس خلفي يتأملنا، ولما لم يجبها تُكرر النداء طالبة منه أن يمسك معها الإوزة لذبحها، وسوف ينال كبدها وحده، فيترك الغرفة مسرعًا.

---

(١) ثالوث منف هم المعبود بتاح وزوجته المعبودة سخمت وولده المعبود نفرتوم.

CamScanner

أُدلِّك صدر الرجل عدة مرات حتى يتشرب جلده قطرات زيت الكافور، ثم أطلب منه أن يطلب من ابنته إناء به ماء مغلي، ينادي الرجل باسمها «ناميسا»، ولكن صوته ضعيف لا يصل إليها خاصة أن صراخ الإوزة يتعالى وهي تفرُّ منهم على ما يبدو، أتأمل بداخلي اسم الفتاة الذي يعبر عن الفتاة المضيئة المتألقة كالألماس، أسأل الرجل في تردد عن سيدة الدار، لأني ألحظ عدم وجودها، في حزن يخبرني أنها ماتت مصدورة منذ سنوات، إنه المرض نفسه الذي يعانيه هو.. وتركتْ له «ناميسا» والرضيع وقتها «**بتاري**» الذي رعته معه ابنته «ناميسا» فهي له أم أكثر منها أختًا كبرى. شعرتُ بتألم الرجل من استدعاء تلك الذكريات الأليمة، ضحكتُ وأنا أشير في اتجاه باب الغرفة والضجيج النابع من صراخ الإوزة والابن «بتاري» وأنا أقول للرجل: «لن يصل صوتك إليهم بسبب هذه الضجة التي تثيرها الإوزة.. يبدو أنها تشعر أن نهايتها الآن وتحاول الفرار»، ضحكت كي أخفِّف عنه وأنا أقف لأتوجه إلى «ناميسا» وشقيقها «بتاري» خرجتُ من الغرفة، فإذا بمكان متسع، لم ألحظه وقت دخولي مرتبكًا، يتوسط غرف المنزل ويفتح في الاتجاه الآخر من الشارع على جزء صغير محاط بسور من كسر الصخور المرصوص بعضها فوق بعض، وبين كل بضع طبقات والأخرى طبقة من الملاط، وأعلى السور طبقة أخرى من هذا الملاط لتثبيت كسر الأحجار، وهذه المساحة مزروع فيها عدد من أشجار التين بلا أوراق في هذا الوقت من العام، وعلى جانبي المساحة نخلتان تنزلق في أعلاهما العراجين، بينما يعانق سعفها السماء، أقف مبهوتًا وأنا أتأمل «ناميسا»، وقد شمرت

ـا بـ CamScanner

عن ساقيها، فظهرتا بيضاوين شاهقتين بضتين تأخذان الأبصار، هي الآن قد أمسكت بالإوزة وبرزت أطراف رجليها ذواتي الأغشية الأرجوانية من تحت قدمها اليمني، بينما جمعت جناحيها تحت قدمها اليسرى، وبيدها اليمنى أمسكت بسكين حادة، وبيدها اليسرى تمسك برقبة الإوزة من ناحية الرأس، بينما يقف «بتاري» أمامها وهي تشير إليه بطرف السكين نحو المكان الذي يجب أن يُمسك به من رقبة الإوزة، كل هذا والإوزة تنتفض أسفلها وما تزال تصرخ لعل أحدًا ينقذها من هذا الهجوم غير المنتظر بعدما كانت تعيش كسيدةٍ في الدار، وبينما تنتفض وتلوي رأسها في عنف تشاهدني أقف عند باب الغرفة أتأمل ما يحدث، تصمت الإوزة لتتأملني في استغاثة أو هي تلعنني في داخلها، فأنا الوحيد الغريب في هذا المكان الذي وافق وجودي الهجوم عليها.. فأنا سبب تعاستها إذًا.. تلاحظ «ناميسا» التي تنحني نظراتها.. تنظر ناحيتي لتفاجأ بي أبتسم إليها، كنتُ أتوقع أن تعتدل واقفة وهي تعيد طرف ثوبها الذي شمرته عن ساقيها، ولكنها صرخت في أخيها كي يجذب رقبة الإوزة في عكس الاتجاه الذي تشد هي فيه، ثم أعملت السكين في عنف لا يتوافق مطلقًا مع رقتها وجمالها حتى فصلت الرأس عن الجسد، وتدفقت الدماء لتصل إلى وجه «بتاري» الذي يصرخ في سعادة وهو يمسح الدماء عن وجهه بيده التي غمرتها الدماء فيتلطخ وجهه أكثر.. تضحك «**ناميسا**» وهي تقذف بجسد الإوزة المنتفض إلى ركن الحديقة الجاف فتتقلب في الهواء وتقذف الدماء حتى تستقر إلى جوار جذع النخلة تصارع حتى تفقد آخر أنفاسها.

CamScanner

تضع «**ناميسا**» السكين في جانب، وتطلب من أخيها البقاء إلى جوار الإوزة حتى تفارق الحياة ويأتي بها إلى الداخل، ثم وهي تنصرف ناحية إناء ضخم من الفخار مخزن فيه ماء لتغتسل منه، تؤكد ألا يغفل عنها لئلا يلتقطها كلب أو لصٌّ. أطلبُ منها الماء المغلي الذي أحتاجه لعلاج والدها.. أتبعها نحو مكان إشعال النار ولا أعلم لماذا! أعتقد أني كنتُ أبحث عن صورتها الأولى التي اهتزت قليلًا وهي تذبح الإوزة، بالفعل عادت إلى طبيعتها وهي تسألني عن اسمي، أخبرتها: «**باتار**». ثم أنهيتُ كلماتي بأن اسمها «**ناميسا**» هو اسم يناسبها تمامًا. لم تندهش لمعرفتي اسمها، طبيعي أن أعرفه من أبيها.

عدتُ إلى الرجل.. وبعد قليل لحقت بي «ناميسا» بإناء به الماء يغلي، وضعتُه أمامه ليستنشق بخاره المتصاعد.. يكرر الرجل ذلك بناء على طلبي عدة مرات.. كان يشير إلى أنه يشعر بلسعة خفيفة في صدره من أثر زيت الكافور، فقد بدأ يأتي الزيت بالمفعول المطلوب.. مع تكرار الشهيق المشبع ببخار الماء وتأثير زيت الكافور يهدأ الرجل.. فقد خفَّت حدة السعال بعدما رُطبَت رئتاه. تبادلتُ معه الكثير من الأحاديث، يهمس إليَّ من بين آلامه التي بدت متراكمة بداخله مثل طبقات صخرية عن فاقة الناس وانعدام الأمان حتى في مدينة حاكم البلاد، أحدِّثه عن سبب مجيئي إلى هذه المدينة، وكيف أنني لا أستطيع البقاء في صحبة المبجل بتيسي العنيد على قارعة الطريق وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أتركه وأرحل. ولا أعلم كم سيطول البقاء خاصة بعد ظهور الشريف «بكويب».

CamScanner ب

يسألني والد ناميسا عن علاجه من مرضه، وهل يستغرق وقتًا؟ أجبته بعفوية أنه في حاجة إلى أسبوعين يدلك فيهما صدره بزيت الكافور ويتنفس بخار الماء، وربما بعد أيام نضع في هذا الماء بعض الزيوت العطرية. يبتسم الرجل ويبدو أنه بدأ يشعر ببعض الهدوء في صدره ويقول: «هل أثقل عليك إن طلبتُ منك البقاء معنا هذه الأيام حتى أُشفى من آلام صدري، وحتى ينتهي المبجل بتيسي من أمر شكايته؟». ألقي نظراتي خارج الغرفة أبحث عن «ناميسا» ولا أعلم بماذا تحدثتُ، ولكني وجدت الرجل سعيدًا.. يبدو أني قد وافقتُ على طلبه بالبقاء. ارتبكتُ وشعرتُ بتقلب في أحشائي وأنا أجيبه بأن هذا يتوقف على رأي سيدة الدار «**ناميسا**».

****

CamScanner ـبـ

(١٦)

حلقة البعث

سبعة أشهر كاملة تمرُّ ثقيلة مثل سبعة أعوام عجاف على المبجل **بتيسي** الذي لم يستطع مقابلة حاكم البلاد بعدما أوصى «**بكويب**» الرجال بألا يسمحوا له بدخول القصر ومقابلة الحاكم. سبعة أشهر كنتُ فيها من أسعد الناس وأنا أتابع «**نبسن**» والد ناميسا وهو يتعافى، وأتقرّب إلى ابنه الظريف «بتاري»، والأهم من كل ذلك أو هو ما جعلها أفضل الأيام على الإطلاق هي «**ناميسا**» نفسها التي أصبحت شمسًا تضيء حياتي، كنتُ أشعر في قربها بذلك الاضطراب الممتع والتوتر المبهج، أتأمل عينيها فأسعد، لو لامستُ كفيها يهتز قلبي مثل عصفور يحلق في السماء، وقد أخبرتني أنها أيضًا تسعد في قربي وتتمنى ألا أغادر، حتى رسمت لي الآلهة ما لم أكن أنتظره على الإطلاق في هذه الأرض البعيدة.

في البداية كنتُ أتعامل بحذر شديد تبجيلًا للرجل المريض «نبسن» الذي اطمأن لوجودي إلى جواره، فكنتُ أرعاه وأقدم له الدواء المناسب ثم أرحل للجلوس إلى العجوز **بتيسي** لمعرفة جديد أمره، فلا أجد غير الانتظار، أدهش لصبره وجلده، وأتمنى في داخلي أن يطول انتظاره كيلا نرحل عن المدينة التي وجدتُ فيها أخيرًا زهرة أتنفس عبيرها تدعى

«**ناميسا**». أترك المبجل بتيسي وأرحل إلى الصحراء المتاخمة للمدينة أجمع العشب، وأبحث عن زيوت النباتات، وكل ما يفيد في علاج المرضى، فقد بدأ الكثير من جيران «**نبسن**» في زيارتي يسألون عن دواء لبعض الأمراض، بعضهم يأتنس بمحادثة الكاهن والطبيب الغريب عن الديار، والبعض يعجب لحال المبجل بتيسي ويشفق عليه ويأتي ليستطلع أمره مني لما علموا صلتي به، أخبرهم بما هو متاح لديَّ فترق قلوبهم، حتى إن بعضهم قد ذهب إليه ليهديه بعض الطعام والملبس وأشياء أخرى تساعده على مواصلة المعيشة، وإن كنتُ أخبرتهم أنه ليس رجلًا فقيرًا معدمًا، بل هو صاحب **مظلمة**.

مع كثرة الوافدين للعلاج وحصولهم على أدوية ووصفات بدأتُ أحصل على مقابل عبارة عن أطعمة مثل خبز الخمريت والملتوت، ومطبوخ ثمار الفول النابتة، والعدس، وخضراوات مثل حزم الخس والبصل والكراث، وزيوت السمسم والخروع، والفاكهة مثل التين والبلح والرمن والمشروبات مثل الجعة والنبيذ، وقد وصل بعضهم حينما يتم له الشفاء أن يقدم الكثير مما يملكه من بيض وأفراخ الحمام والبط والإوز. تُقدم لي هذه الأشياء في كميات صغيرة، لكن مع تجميعها طوال اليوم وتراكمها مع الأيام جعلها ثروة أدخلت على منزل المبجل «**نبسن**» ثراء لم يكن يتوقعه، فكنتُ أقدم كل شيء أحصل عليه إلى فتاتي «**نامسيا**».. في البداية كانت ترفض في إصرار مصطنع، هي تعلم أني لن أتناوله وحدي، فهي إما تأخذه كي ترتب أمور منزلها وتعد لنا وجبات الطعام وتحتفظ بما يمكن الاحتفاظ

ـيا بـ CamScanner

به، وإما أحمله وأرحل عن الدار، تبتسم وهي تخبرني أن رحيلي هو آخر شيء يمكن أن يحدث. فيطرب قلبي ويرقص في مكانه سعيدًا، لقد احتلتْ «**ناميسا**» مكانة عظيمة في قلبي، أدركتْ هي ذلك، وأدركه والدها، حتى شقيقها «بتاري» أدرك ذلك.

بدأتُ أشعر بألفةٍ عظيمة كأني نشأتُ بينهم، تأملتُ تفاصيل الأيام الأخيرة وكيف سارت سفينتي حتى رست بي في هذا المكان، أتعجب من ترتيب الأحداث، أتحدث إلى «**ناميسا**» بمكنون قلبي، فتشكر الإله بتاح، وتؤكد أنها ستقدم قربانًا عظيمًا إن تحقق حلمها، أسألها عن حلمها هذا فتضحك وتخبرني أنه لا شأن لي بأحلامها، ونضحك في سعادة.

ذات يوم يستغل «نبسن» عدم انشغالي مع المرضى ويجلس إلى جواري، كان قد تماثل للشفاء وعاد يخرج من المنزل، ويباشر بعض تفاصيل حياته السابقة، ويمارس بعض الأعمال غير الشاقة، فهو نَحَّاتٌ يعمل ضمن مجموعات النحت والنقش لدى ابن الإله، ماهر إلى درجة عظيمة، كنتُ أتابعه في إعجاب شديد وهو يُعمل أدوات النحت والحفر في قطعة صخرية فتخرج من بين يديه كهيئة صقر أو ابن آوى، وذات يوم كان يعمل وعلى مُحيَّاه ابتسامة عريضة، وينظر ناحيتي بين الفينة والأخرى، وبعد مدة، وكنتُ قد بدأت أتساءل عن نظراته فيطلب مني الانتظار، أتى وقد حمل على راحتيه تمثالًا صغيرًا لي يشبهني تمامًا، حتى إن الدهشة قد

CamScanner ـب

اعتلت وجهي وأنا أتأمل الرجل وأتأمل التمثال، هو ليس مجرد عامل إنه يمتلك موهبة عظيمة، واحتفظتُ بالتمثال الذي يشبهني ليكون تميمتي التي ترافقني في حياتي، وأوصى بأن توضع معي في تابوتي عند رحيلي إلى العالم الآخر.

في هذا اليوم الذي يجلس فيه إلى جواري يحدثني عن نفسه وحياته، ثم يخيم عليه حزن حينما يُسرُّ لي بخوفه على ولديه «ناميسا» و«بتاري» بعد رحيله إلى العالم الآخر، وفي هدوء يقول: «إذا كنت كفئًا فأسس لنفسك بيتًا»، إنها عبارة شهيرة قالها الحكيم **بتاح حتب** لابنه، وها هو يكررها لي، أنظر نحوه متسائلًا فيطلب مني الزواج بـ **«ناميسا»** على أن يقدم لي **«مال الإعاشة»**[1] بعد فترة

وسوف يكتب ذلك ويوقع عليه أمام شهود، رفعتُ يدي معترضًا وأنا أخبره أني لا أريد مال الإعاشة ويكفي ما قدموه لي في هذه المدينة منذ وطئتها وليس لي فيها أحد، فأصبحوا هم أسرتي التي أحببتها، وزواجي بـ «ناميسا» هو حلم كنتُ أراه صعب المنال، أخيرًا أمسكتُ بيديه بين راحتيَّ تبجيلًا، فكونه يقول لي: «أزوجك ابنتي» ويكسر خجلي هو أمر يستحق كل التبجيل. اتفقنا على تفاصيل كل شيء، وقد استدعى «ناميسا» و «بتاري» للمشاركة في الحديث، فتورد وجهها؛ مما زاد جمالها، وضحك «بتاري» في سعادة وهو يعانق أخته ثم يعانقني، وقبل أن يرحل كي يلعب مع أقرانه في الشارع تناديه أخته لتحذره من أن يخبر أحدًا حتى يُعلن أبوها الخبر في الوقت الذي يراه مناسبًا.

(١) ما يعادل المهر في أيامنا هذه، وكان يقدم من أهل العروس.

CamScanner

يسألني المبجل «**نبسن**» عن الموعد المناسب، فأخبره بأني لا أعلم ما قد يحدث في الغد، وليس أمامي غير انتظار أن ينتهي المبجل «بتيسي» من مظلمته ويرحل عن **منف**، وسوف أخبره أنني سوف أبقى هنا، فأنا أخشى أن يزج «بكويب» باسمي في أحداث أو أمور قد تنزعني من بينكم، فلا أحد يعلم ما قد يفعله كبار رجال الدولة، لا سيما بعد ما حدث أمامي في المعبد، فلا قداسة لكاهن أو شريف، فيقرر الرجل الاكتفاء بتقديم «**حلقة البعث**» (١)

وذلك حتى يكون لوجودي بينهم صفة حميدة فلا يذكرهم أحد الجيران بسوء، وافقته في سعادة وضحكت «**ناميسا**» وهي تقرر توفير ثمن زهور الياسمين منذ اليوم من أجل «**الكوش**» وتربية دجاجات وإوزات لإطعام الوافدين من أجل المباركة بالزواج. وفي اليوم التالي أتيتُ بحلقتي بعث مصنوعتين من الذهب عليهما نقوش ورسوم رائعة، واحدة لي والأخرى لـ «**ناميسا**» وزيّنا بهما أصبعي يدينا اليمنى وسط فرحة وبهجة وسعادة لم أمر بها في حياتي من قبل، «**ناميسا**» كانت سعيدة رائعة مثل زهرة متفتحة تفوح بأريجها الخلاب، تحلق مثل فراشة، تضحك مثل عصفور يغرد.

تمر الشهور وأنا أتابع المبجل **بتيسي** وأمارس تفاصيل عملي في منزل المبجل «نبسن»، وقد اتخذتُ جزءًا من الحديقة الخلفية مقرًا لعملي، وبالتحديد أسفل شجرة النخيل على الجهة اليمنى (حيث يتجه الهواء، وتتوارى أشعة الشمس وقت تعامد أشعتها بسبب سعفها المنتشر)، يضع

---

(١) حلقة البعث: هي الدبلة وسميت كذلك لأنها لا أول لها ولا آخر.

CamScanner

لي «**نبسن**» مقعدًا خشبيًا أجلس عليه، يجهز مكانًا واسعًا يفرشه بحصير مصنوع من نبات الحلفا لجلوس الوافدين، بينما اتخذت «**ناميسا**» من الجانب الآخر من الحديقة حظيرة لتربية البط والإوز والدجاجات التي أحصل عليها في بعض الأيام نظير جهدي.

في هذا اليوم بعد انقضاء الشهور السبعة كنتُ أجلس مع المبجل «**بتيسي**» في المكان الذي اتخذه مقرًا له بالقرب من قصر الحاكم، كان يحكي لي أنه انتظر مرور موكب ابن الإله ذات يوم وصرخ يستغيث، سمعه الحاكم فيما يبدو، لكن لم يصدر عنه أي شيء يوحي بأنه قد سمع، يقترب أحد الحراس، ويطلب من بتيسي الصمت. وتعجبتُ من أمر حاكم لا يحرك ساكنًا أمام صراخ أحد محكوميه! وقبل أن تتملكني الدهشة من اعتدال سلوك رجال الحاكم الهادئ تذكرتُ أن بتيسي قد عُرِفَ بين سكان المدينة، وأصبح من الصعب على رجال الحاكم نهره أو عقابه، فأعين أهل **منف** تتابع من بعيد كل ما يحدث.

بينما نحن كذلك بين متحدث عنيد ومنصت يائس إذا بعربة تجرُّها الخيل تأتي من بعيد وخلفها عدد من الحراس، انتبهتُ إليها فإذا بها تتوجه إلينا، أشرتُ إلى «**بتيسي**» بأن انظر أيها المبجل، حتى إذا ما توقفت إلى جوارنا فإذا برجل مهيب يهبط منها ويقترب في هدوء حتى يتوقف على مقربة من بتيسي الذي يتأمله في صمت لحظات قبل أن يقف لمصافحه الرجل وهو يرحب به قائلًا: مرحبًا أيها الشريف **سمتاوي تفنخت** بن العزيز المحبب إلى قلبي «**خون نفر**».

ا بـ CamScanner

لم أشاهد هذا البِشر على وجه **بتيسي** منذ التقيته حتى اليوم، وقفتُ في صمت أتأمل هذا الرجل الشريف وما على ملامحه من مهابة، وما حوله من مظاهر أبهة، حيث العربة المذهبة والخيل والحراس وملابسه غير شموخ النبلاء الذي يكسو وجهه.. يتحدث الرجل بنبرات مهذبة ليثني على المبجل **بتيسي**، وأنه ما إن علم بأمر وجوده في هذا المكان حتى أتاه.. وأخبره بتيسي بأنهم يرفضون أن يقابل الحاكم بوصاية من «**بكويب**»، وأنه أمضى سبعة أشهر في هذا المكان، ولن يبرح حتى لو أمضى سبع سنوات، وحينما ينتهي **بتيسي** من سرد التفاصيل في عجالة حتى يخبره الشريف «سمتاوي» بأنه ذاهب الآن لملاقاة الحاكم، وسوف يطلب منه السماح بمقابلته.

يرحل «**سمتاوي**» ورجاله في اتجاه القصر، ويجلس المبجل **بتيسي** وقد ظهر الهدوء على وجهه، وتنفس الصعداء، يتأمل الفضاء أمامه وعلى وجهه تظهر آي الراحة، كأنه أوشك على تحقيق مبتغاه، بعد هُنيهة يطلب مني أن آتيه **بـ طعام وجعة** فهو يشعر برغبة في ملء معدته.

بعد قليل، ولم يكن بتيسي قد انتهى من طعامه حتى يأتي فارس على جواد يدق الأرض في قوة، يقف أمامنا ويسأل عن المبجل «بتيسي»؛ لأنه مطلوب الآن لمقابلة الحاكم.

****

CamScanner

(١٧)

العقاب

يستند على ذراعي اليمنى المبجل **بتيسي**، وقد ظهر عليه الإعياء الشديد بعد هذه المسافة التي قطعناها من مقره على قارعة الطريق حتى دخلنا قصر ابن الإله، ولا شك في أنه أصبح يحاكي المومياوات بعد الشهور التي أمضاها في الانتظار، كان الحراس يتأملوننا حين دلفنا من البوابة الرئيسية للقصر بوجوه واجمة ونظرات ناقمة، وفجأة يعترض أحدهم طريقي، ويطلب مني الانتظار في جانب حتى يخرج هذا العجوز، لكن **بتيسي** يتشبث بذراعي ويخبره بأنه لن يستطيع السير دون مرافق يسنده، يشير حارس آخر يبدو أنه يعلوه في المكانة ويقول له: « اتركهما معًا.. الأمر ليس بذات أهمية، ثم إن الشريف **سمتاوي** قد أوصاني بمعاملة هذا الوافد المسن معاملة حسنة، وأنتم تعلمون هدايا الشريف سمتاوي ونفحاته الرائعة»، ثم يضحك ويتبعه أصحابه في الضحك لتبدو أسنانهم حادة، فأتذكر الضباع.

نتحرك أنا والمبجل بتيسي وأمامنا حارس شاب حتى نصل إلى البوابة الداخلية للقصر، ومنها إلى ممر طويل تحفُّه تماثيل صغيرة لـ «أبي الهول» خلفها صخور عظيمة تمثل جداريات الممر عليها نقوش ورسوم لمعارك حربية أتقن النحاتون نحتها لجنود فوق عربات حربية تجرها الخيل

CamScanner ـبـ

الثائرة، وفي أيديهم الأقواس والسهام، وأسفل العربات وأقدام الخيل العدو بين متأوِّه، ومستغيث، ومضرج في دمائه.

أفيق من تأملي على صوت الحارس الشاب يطلب منا الإسراع خلفه، ندق الأرض الرخامية للممر الطويل حتى ندخل ذلك البهو المكشوف السقف عظيم الضوء، وفي صدره يجلس الحاكم على مقعد مرتفع، يقبع أسفل قدمه اليسرى أسد صغير، وقد غاص رأسه بين قدميه الأماميتين، ولا أستطيع متابعة ذلك الشبل النائم لأن هناك ما يستوجب النظر، فعلى جانبي الحاكم يوجد عدد من الرجال يبدو عليهم آي الثراء والنبل، وبينهم يجلس الشريف «**سمتاوي**» الذي يقف مرحبًا بالمبجل **بتيسي**، يأخذه من يدي وهو يقدمه إلى ابن الإله، أعود خطوات لأقف في جانب أتأمل المكان، تتملكني رهبته، وتتسلل بداخلي روائحه القوية التي تموج في المكان، كأني أنقشها على جدران ذاكرتي الصخرية كيلا تُمحى بعد رحيلي، إنها مرة واحدة تلك التي قد تتاح لشخص مثلي أن يكون في معية حاكم البلاد والنخبة حوله.

أستمع إلى الشريف سمتاوي يطلب من المبجل بتيسي أن يتحدث إلى الحاكم «له الصحة والفلاح والعافية» بشكايته التي أتى من أجلها، ويحرك يديه في الهواء أمام بتيسي، كأنه يأمره بالإيجاز والسرعة، يتعجل بتيسي في حديثه، هو رجل مسن خبير بتفاصيل تلك الأماكن، يسرد لحاكم البلاد كيف أن كبير الكهنة «**احمس**» المبجل طلب منه أن يكتب أسباب دمار مدينة **الحيبة**، فكتب كل شيء على إضمامة بردي ثم وقَّع عليها.. يستمر

في سرد ما حدث في المعبد حينما أتى «**بكويب**»، وكيف ضُرِبَ حتى قيل إنه رحل إلى العالم الآخر، وضرب ابنه وأبناء عمومته، وأنه ظلّ في مرضه يعاني عدة أشهر تحت يد هذا الطبيب، يشير نحوي، ثم أتى إلى هنا وكيف منعه «بكويب» مرة أخرى من الوصول إلى هنا لولا وساطة المبجل الشريف سمتاوي.

وفي هدوء يرفع الحاكم كأس بيضاء مصنوعة من روح الخزف ليرتشف منها فيما يبدو نبيذًا، فقد تماوجت على وجهه نشوة، وبريق في عينيه، يرفع يده الأخرى ويقول دون أن يحرك رأسه «ائتوني بالكاهن **ينحاور** وأتباعه من **الحيبة**». فيتردد صوت جهوري في المكان: «أمرُ ابن الإله له الصحة والعافية والفلاح». أتابع ما يحدث في ترقب، لكن صمتًا عظيمًا يعم المكان حتى يقف ابن الإله لينصرف، فيقف الجميع وقد انحنوا قليلًا، بينما يتحرك عدد من الحراس في أكثر من اتجاه ليصطفوا على جانبي ممر وهمي يخطو فيه ابن الإله حتى يختفي من المكان.

يأتي الشريف سمتاوي إلى المبجل **بتيسي** وهو يشير نحوي كي أمسك بيده، ويطلب منا الرحيل الآن، سوف يستغرق وصول الكاهن «ينحاور» وأتباعه عدة أيام، وقبل أن نتحرك يشد الشريف **سمتاوي** على يد المبجل **بتيسي** مصافحًا إياه في إشارة أستنبط منها أنها مصافحة أخيرة، أو أنه قد قام بكل ما يمكنه القيام به ثم يرحل في صحبة شريف آخر. هنا يشير الحارس الشاب، الذي رافقنا في رحلة الدخول إلى القصر، نحونا كي نتبعه للخروج من القصر.

CamScanner

أصطحبُ **بتيسي** معي إلى منزل المبجل «**تبسن**» لمقابلته والتعرف على محبوبتي «**ناميسا**» وليضحك معنا على أفعال «**بتاري**».. وعدتُه بأن يمضي معنا أيامًا سعيدة تعوضه عن تلك التي أمضاها في بؤس الانتظار. يوافق وقد تغيرت ملامحه وتماوجت عليها آي السعادة، كنا قد اقتربنا من البيت، وقد علا صخب الصبية ونداء الباعة؛ مما اضطره إلى رفع صوته الذي يخرج متقطعًا بسبب سرعة تنفسه يقول: «الآن فقط يا باتار بدأتُ أشعر براحة عظيمة، فإن عودة الأمل بعودة الحق منصفة يا بني».

تستقبل أسرتي الجديدة ضيفي في سعادة وحبور حتى إن «**ناميسا**» تقرر أن تذبح زوج دجاج، فقد كثر الدجاج والبط والإوز في حظيرتها بسبب ما يأتيني من هدايا لعلاج المرضى، وأيضًا تبيض بعضها، وتأتي بأجيال جديدة من الأفراخ تربيها «**ناميسا**» في سعادة. كنتُ أطلب منها في كثير من الأحيان أن تعطي بعض المرضى الفقراء الذين لا يجدون ما يطعمونه البيض والملتوت وما يتوفر عندها من أطعمة أخرى، يوافقني والدها، ويدعو لي مؤكدًا أن الرزق يرافقني أينما حللتُ، فأنا ابن خير. يقول ذلك ويربت على كتفي في ودٍّ كأنني ابن له.

تمر الأيام وقد اتخذ المبجل **بتيسي** من جوار النافذة المطلة على الشارع مستقرًا له يتابع منها حركة المارة يتسلى بأفعالهم وأفعال الصبية، الحقيقة التي أدركها جيدًا أنه كان ينتظر رسول الحاكم ليخبره بوصول الكاهن «**ينحاور**» وأتباعه.

لم يأتِ رسول الحاكم، ولم يظهر الشريف «**سمتاوي**»، ولم يحدث أي شيء مما أضطر المبجل **بتيسي** أن يخرج من المنزل ويصمم على الذهاب إلى قصر الحاكم، كنتُ أمارس عملي مع مريض، ويجلس عدد من المرضى في الانتظار، ولن أستطيع الذهاب معه الآن، أطلب منه أن التريث حتى أنتهي من عملي، لكنه يرفض ويخرج دون أن يلتفت نحوي، فلا يلاحظ نظراتي خلفه أو نظرات «**ناميسا**» التي كانت تشفق عليه.

عند انتهاء النهار يعود **بتيسي** ليخبرني بأن «**ينحاور**» ورفاقه لم يظهروا، وقد كرر الحاكم طلبهم مرتين ولم يأتوا.. وسوف يطلبهم مرة ثالثة.

كنتُ أمضي معظم وقتي إما مع المرضى، وإما مع محبوبتي «**ناميسا**» التي شغلتني عن كثير من هموم كنتُ أعيشها من قبل، تغيرتُ وأنا أشاهد الإشراق على وجهها، سعادة حقيقية ما كنتُ أدرك وجودها من قبل. لم أغتم بذلك الهم الذي حط على المبجل **بتيسي**، فكنتُ أتحاشى الجلوس إليه حتى لا أكدر صفوي وأغيِّر تلك الهناءة التي أعيشها، أيضًا كنتُ أسعد مع سعادة المرضى بشفائهم، وأتقبّل أحضانهم وأهليهم وهداياهم.

للمرة الرابعة يخبرني **بتيسي** أن الحاكم أرسل في طلب «**ينحاور**» ورفاقه، وقد أرسل هذه المرة إنذارًا شديدًا يحذرهم إن لم يأتوا فسوف يكون العقاب مضاعفًا. تعجبتُ من أمر «**ينحاور**» ورفاقه، كيف لا تتم الاستجابة لأمر حاكم البلاد؟! أهي جرأة وفجور منهم أم هو ضعف وعطب أصاب قرارات حاكم البلاد وحاشيته؟!

CamScanner

حتى يأتي اليوم الذي يظهر فيه رسول الحاكم يستدعي المبجل بتيسي ويخبره أن الكاهن «**ينحاور**» وأتباعه قد أتوا ومثلوا أمام الحاكم، وأنه أمر بجلد كل واحد منهم خمسين جلدة. تظهر السعادة على وجه بتيسي، ويطلب من رسول الحاكم أن يصطحبه إلى قاعة العقاب لمشاهدتهم وهم يُجلدون كي يطفئ نيران قلبه المشتعلة منذ أن ضربوه وألقوه في البرج القديم، قبل أن يحملوه ويلقوه خارج المعبد هو وابنه وأبناء عمومته. لكن الرسول يرفض، فلم يؤمر بذلك. يرحل ويترك الرجل في حيرته.. بعد قليل يقرر أن يذهب إلى الشريف **سمتاوي** فهو الوحيد الذي قد يساعده في تحقيق أمنيته تلك.

أرافقه في الطريق إلى منزل الشريف **سمتاوي** المقام في مزرعته الخاصة على أطراف المدينة، مساحة شاسعة من الأرض تناهز عشر آلاف **أرورا**.. جانب كبير منها يلمع شعيره الذهبي، وجانب آخر تتهادى فيه أغصان الكروم، رجال يفلحون الأرض ويتغنون في سعادة بترنيمة **المحبوبة الحلوة بنت الملك**. كنا نسير أنا والمبجل بتيسي على طريق تحفه الورود حتى يصل إلى منزل الشريف الذي يعتبر قصرًا عظيمًا مقارنة بقصور الأثرياء في مدينتنا الحيبة. حينما وصلنا إلى الساحة المجهزة بعناية أمام القصر نجد الشريف سمتاوي يجلس على أريكة مفروشة بالجلد المدبوغ تحت ظل شجرة جميز تلقي أغصانها في أكثر من اتجاه، كان جسده في اتجاه قصره بحيث يتابع الحركة فيه، تقترب منه سيدة بدينة يبدو من مشيتها وشموخ أنفها أنها سيدة الضيعة، تنادي أطفالًا يلعبون فوق أرجوحة مصنوعة

CamScanner

من جذع كافورة يرتكز فوق صخرة عريضة، تحذرهم خوفًا من السقوط، لم يلتفتوا ناحيتها، هي أيضًا لم تتابعهم، وقد تعلقت نظراتها بنا ونحن نقترب، يتابع اتجاه عينيها، يلتفت حتى تتلاقى أعيننا.. فيقف ليقابلنا قبل أن نصل إلى مجلسه الخاص، تجلس زوجته في مكان خاص بها على مقربة، وما تزال تنادي أطفالها.

يختلس عدد من الفلاحين النظرات من بعيد، فالغريب مثير للتساؤلات، أياديهم تتحرك بلا عمل لتمضية الوقت والفضول يقتلهم، نجلس في مكان قصي فوق عدد من الصخور المنحوتة على هيئة سباع تحت ظلال الكروم. يشرح المبجل بتيسي أمنيته في حضور معاقبة الكاهن **ينحاور** ورفاقه. يندهش الشريف **سمتاوي** وهو يُعقِّب: «وما الفائدة من ذلك؟ كنتَ تطلب عقابهم وقد صدر أمر الحاكم بذلك.. فاترك الأمر يسير على ما يريد الحاكم ورجاله، وعُد إلى ديارك وأهلك أيها المبجل». يظهر الوجوم على وجه **بتيسي**، حتى إنه لم يجد ما يتحدث به، فيطلب الإذن بالرحيل وهو يمسك بيدي كي نغادر، يلتزم الشريف **سمتاوي** الصمت، أشعر بحرج وأنا أسير، ويتعلق في يدي الرجل المسن الذي ما إن يخطُ عدة خطوات حتى يتوقف ويدور على عقبه في خفةٍ لا تتناسب مع سنوات عمره، ويتحدث إلى الشريف **سمتاوي** قائلًا: «أخشى ألا تُنفذ العقوبة فيهم»، من بين دهشته ويأسه ينفض الشريف **سمتاوي** يديه في الهواء بلا مبالاة، وإن قال بصوت مرتفع وهو يقف ليتوجه ناحية المكان الذي تجلس فيه زوجته: «أمر الحاكم له الحياة والصحة والفلاح لا بد أن يُنفذ أيها المبجل **بتيسي**».

CamScanner

أعود وحدي إلى منزل «**نبسن**»، وتقابلني «**ناميسا**» قلقة مضطربة، فقد غاب والدها منذ الصباح ولا تعلم أين هو، وكانت تنتظرني كي أبحث عنه، ولما لاحظت علامات الضيق على وجهي سألتني، أخبرتها بأن العجوز العنيد **بتيسي** رفض أن يعود معي، وأصرَّ على الذهاب إلى قصر الحاكم، ولما حاولتُ إقناعه بالعدول رفض وتركني غاضبًا، وسار في طريقه، وقبل أن يبتعد قال لي إنه سيمكث في مكانه على قارعة الطريق الذي أمضى فيه من قبل سبعة أشهر.

لم تنشغل «**ناميسا**» بتوتري، فلديها ما يشغل تفكيرها بشكل كبير، بالفعل لم تكن عادة المبجل «نبسن» الخروج دون علم أحد والتأخر كل هذا الوقت، أو على الأقل منذ أن عرفته، كان بقاؤه في المنزل بسبب مرضه، لكنه الآن برئ ويستطيع الخروج والعمل. ذكرتُ ذلك لـ «ناميسا» فهدأتْ قليلًا، وبعد هُنيهة عادت إليها بسمتها، أمسكتُ براحتيها بين يدي في شوق كي ألفظ أفكاري السوداء التي تركها المبجل بتيسي بداخلي، هل بالفعل يُصدر الحاكم أمرًا ولا ينفذ؟! هل يستطيع الكاهن **ينحاور** ورفاقه العودة إلى **الحيبة** سالمين؟! وقتها سيُقضى على بتيسي وأسرته كاملة وسيقضى عليَّ أنا أيضًا إن عدتُ إلى **الحيبة**، ثم أتذكر الكاهن المطهر «**زوبستف عنخ**» الهارب.

تنتشلني «**ناميسا**» من بحر أفكاري الثائر حينما عانقت شفتاي شفتيها، وغِبنا في قبلة طويلة.

CamScanner

ينتهي نهار هذا اليوم ويحل الظلام يرافقه عواء الذئاب يتردد في الصحراء المحيطة، وصمت يخيم على شوارع المدينة، ولم يعد المبجل «نبسن» بعد.. كنا نقف أمام البيت في توتر أنا و«**ناميسا**» و«**بتاري**». ولم أجد ما أفعله، فسألتُ «**ناميسا**» عن أماكن قد يكون أبوها معتادًا الذهاب إليها كي أسأل عنه فيها، تفكر لحظات في قلق وقبل أن تجيب نشاهد من بعيد ظِلًّا يقترب في الظلام.. حتى يدنو، فإذا به المبجل «نبسن» وقد تلاحقت أنفاسه من أثر السير.. فهو في الأصل مريض رئة، وإن تعافى من أزمته، ولكنه يجب ألا يمارس أنشطة كما كان في السابق. يخفف عن ولديه في سعادة، وهو يشير إلينا جميعًا بالدخول إلى البيت، وسوف يخبرنا عن سبب تأخره.

في الداخل، وبينما يتناول الطعام المعد منذ وقت طويل يحدثنا المبجل «نبسن» بأنه خرج في الصباح، وتوجَّه إلى قصر الحاكم بحثًا عن عمل مقابل أجرٍ في نقشٍ أو نحتٍ يكون الحاكم قد أمر به «كبير النحاتين» في الفترة السابقة التي منعه مرضه فيها الذهابَ إلى القصر، بالفعل وجد أعمال نقشٍ ونحت كثيرة تجري هناك، وقد رحَّب رفاقه بعودته، وأتاحوا له العمل في الساحة المخصصة لنحت صخور الجرانيت القادمة من جبال الجنوب، على أطراف تلك الساحة توجد منطقة مخصصة لتنفيذ أوامر الحاكم من جلد وحمل صخور وغيرها من الأوامر، وبينما كان يعمل في مهارة وحذق كعادته مسترجعًا لمساته الرائعة (قال ذلك في سعادة وابتسامة عريضة تزين وجهه)، فإذا به يستمع إلى عامل نحت بجواره

با بـ CamScanner

يشير نحو أحد الكهنة ومعه عدد من الرجال، ويخبرنا أن كلًّا منهم سوف يُجلد خمسين جلدة وفقًا لأمر ابن الإله. أقاطِع المبجل **«نبسن»** وأخبره بمواصفات الكاهن «ينحاور» فيؤكدها لي: «إذًا نُفِّذَ قرار الحاكم بجلدهم؟» سألتُه في سعادة وأنا أهمُّ بالخروج كي أُخبر المبجل بتيسي، لكن **«نبسن»** أشار إليَّ بالبقاء، وأن أصبر حتى يُكمل حديثه، فقد تابع هو وعدد من رفاقه الرجال وهم في انتظار تنفيذ أمر الحاكم، فلن يُجلد كاهن كل يوم حتى تفوت عليهم المشاهدة، لكن الذي حدث بعد ذلك كان غريبًا، فقد أتى رجل من خدم القصر ليتحدث إلى هذا الذي يبدو أنه كبيرهم، فيظهر على وجهه بِشر بعد اضطراب، بعد هُنيهة يأتي الشريف سمتاوي، وهو رجل ذو مهابة وجاه، فكُنا نتابعه في تأمل.. لكني سمعتُ كلمات جعلتني أقترب منهم خطوات كي أحمل بعض الصخور القريبة من المكان لعلي أستمع إلى باقي الحديث، ترامى إلى مسامعي صوت الكاهن يطلب من الشريف **سمتاوي** سعيه لدى الحاكم كيلا يتم تنفيذ قرار الجلد، ثم قال الكاهن: «سوف نمنحك أنت وأخاك وأبناءك الثلاثة خمس حصص من ممتلكات معبد الحيبة وقرابينه»، فتعجبتُ من هذا العرض، وانتظرت أن ينهره الشريف **سمتاوي بن خون نفر** فهو لن يخالف أمر الحاكم أو حتى يسعى لرفع عقوبة عن رجال مخطئين، لكنه ابتسم لهم وحرك يديه في الهواء في إشارة ذات معنى مما جعل الكاهن يقسم مسرعًا بأنه صادق في قوله، ولا بد أن يأتي الآن بورقة بردي كي يكتب عليها براءة بالحصص الخمس، يبتسم هذا الشريف **سمتاوي** ويأمر بإحضار إضمامة بردي، وتم

CamScanner ـب

أمام عينيَّ عمل براءة بهذه الممتلكات والقرابين وحمل البردية بين طيات ثيابه ودخل إلى القصر.

عدتُ إلى مكاني أمارس نحت الصخور مع باقي العمال، والكل مشغول بما في يده إلا أنا يا «باتار»، كنتُ أعمل مشغول الفكر في انتظار ما يسفر عنه لقاء سمتاوي مع الحاكم، وكلي يقين أن يعود سمتاوي غاضبًا بعد رفض حاكم البلاد، بل انتظرتُ أن يأتي مَن ينفذ أمر الجلد.

وبعد قليل أتى مَن يخبرهم أن الشريف **سمتاوي** قد دخل إلى الحاكم في مجلسه الخاص وتحدث إليه حديثًا بدا كأنه بين صديقين، قال الشريف: «ليت الحاكم يبقى بقاء رع، إن قضية هؤلاء الكهنة خاسرة هنا، اصرفهم يا سيدي الحاكم»، فأصدر الحاكم أمره برفع عقوبة الجلد وصرف الكهنة.

وانصرفوا في سعادة وهم غير مصدقين، يرددون عبارات شكر وتمجيد للحاكم، وكان النهار قد ولَّى، وحلَّ الظلام، وانتهى يوم عملنا، ولكني تصنعتُ الانشغال برفع بعض الصخور وصفها حتى أتابع من بعيد ما يحدث مع الكهنة، فكان أن دُعوا إلى تناول الطعام والمبيت في مبنى صغير مقام على أطراف القصر ينزل فيه الكهنة والأمراء وأي شريف يأتي من المدن البعيدة.

كانت تلك الأحداث مبكية، وسوف يتداعى المبجل **بتيسي** عند سماعها، آثرتُ ألا أُخبره بها إلا في صباح اليوم التالي بدلًا من أن يمضي ليلته يحترق بأفكارٍ سوداء.

في الصباح ذهبتُ إليه فإذا به غير موجود، بحثتُ عنه في الجوار فلم أجده، سألتُ أحدهم فأخبرني بأنه شاهده يتوكأ على عصاه في هذا الاتجاه، إنه الطريق المؤدي إلى ضيعة الشريف سمتاوي. لماذا ذهب إليه؟! هل يكرر طلبه في حضور عقاب الكهنة أم تراه قد عَلِمَ بما حدث؟!

كنتُ أسير في طريقي ومجموعات العمال في طريقها إلى أعمالهم في مختلف الاتجاهات، في السماء أسراب الطير تحلق أيضًا في كل اتجاه، الشمس قد ارتفعت عن الأرض محلقة كي تتوسط السماء لتقل رقع الظلال أسفل أشجار الجميز والتوت والنخيل في كل مكان.. أصوات ثيران في حقل على الأطراف تختلط مع صوت أزاميل تنحت الصخر مع غناء يأتي من قلب المجرى المائي الذي يتهادى على صفحته قارب صيد مصنوع من الحلفاء والحبال، يبدو أن صاحبه قد صاد كمية أسماك أكثر من كل يوم، ففي صوته سعادة.

منذ التقيتُ «**ناميسا**» وأنا ألحظ الجمال في كل شيء حولي، تذكرتُ تلك الاضطرابات الحلوة التي تسري بداخلي حينما تتلقى يدي بين راحتيها وتحدثني عن شوقها، أضغط على راحتها المكتنزة فيحلق قلبي، أتأمل عينيها.. جميلة هي «**ناميسا**» في ثوبها الكتاني ناصع البياض، وشعرها الأسود الطويل، وذراعاها مكشوفتان تهتزان في نعومة، بشرتها البيضاء التي تدلكها بالدهن وزيت الخروع تبدو ناصعة، قدماها وبعض ساقيها حينما تُشمر الرداء مع عمل يتطلب ذلك حركة عفوية.

أرفع عينيَّ إلى السماء كي أتوجه إلى الإله الواحد الذي قرأتُ عنه في بردية إخناتون بمحبتي له في صمت.. أنا أعلم أنه يلقي قدراته العظيمة في كل شيء جميل حولي.. لو تأملتُ حياتي كلها ومنبتي الذي أجهل معظمه أجد أن هذا الإله جميل وعظيم، ويوجهنا إلى المحبة ورؤية الجمال.

قبل أن أقترب من مدخل الضيعة أشاهد عربة الشريف **سمتاوي** تخرج وهو عليها بصحبة المبجل بتيسي.. وقفتُ لا أعلم ماذا أفعل حتى اقتربت العربة ويشير بتيسي نحوي وهو يتحدث إلى الشريف سمتاوي، يشير بيده إلى قائدها فيتوقف، يشير نحوي كي أرافقهم، يخبرني بتيسي بأنهم في طريقهم إلى قصر الحاكم، أرحب بالشريف سمتاوي في حفاوة تليق بظني أنه قد تراجع عما فعله أمس من رفع العقاب عن الكهنة، فها هو يأخذ المبجل بتيسي وينطلق به إلى قصر الحاكم.

****

CamScanner ب

(١٨)

ابن الإله

تسير بنا العربة إلى قصر الحاكم، أتأمل كل شيء حولي وأنا أجلس إلى جوار المبجل **بتيسي** في المقعد الخلفي الملتصق بظهر المقعد الكبير المخصص للشريف **سمتاوي**، ويجلس أسفل منه في مكان منخفض قائد العربة التي يجرها جوادان ويسير بهما في هدوء بناء على رغبة الشريف **سمتاوي** الذي قال له: «سر الهوينى يا رجل.. فما يزال الوقت مبكرًا لزيارة الحاكم»، ثم يلتفت ليوجه حديثه إلينا، ويقول: «لكني لا أستطيع أن أرد للعزيز **بتيسي** طلبًا».

يعود إلى صمته وشروده. يهمس **بتيسي** في أذني قائلًا: «لم أنم ليلتي يا باتار، فلجأتُ إلى الشريف **سمتاوي**، استعطفته حتى يرافقني لزيارة الحاكم للتيقن من تنفيذ حكم الجلد في الكاهن **ينحاور** ورفاقه، وأخيرًا وبعد طول استعطاف يوافق على مرافقتي كما ترى». ينتهي من كلماته في سعادة توافق طفل وأنا أتأمله في دهشة، يلجأ إلى **سمتاوي**؟! إنه مَن توجه إلى الحاكم وطلب منه الصفح عنهم مقابل حصة له ولابنه وإخوته من دخل معبد الحيبة! يبدو أن **بتيسي** لم يعلم تلك التفاصيل التي كنتُ في طريقي إليه لأخبره بها!

CamScanner

الغريب في الأمر أن **سمتاوي** نفسه يسير مع الرجل ويتوجه به إلى قصر الحاكم كأنه بعيد عن كل هذه التفاصيل! تتملكني الحيرة، ولا أعلم ماذا أفعل.. هل أصارح **بتيسي** بما فعله هذا الـ **سمتاوي** أمس؟ لكن ذلك قد يكشف أمر المبجل «**بنسن**».. أم ألتزم الصمت وأتابع ما يحدث؟! لم أجد بداخلي الجرأة لفضح أمر **سمتاوي**.. ألوذ بصمت يحسبه الرائي صمت الصغار في حضرة العظماء.

نَصِلُ إلى قصر الحاكم وأشاهد بنفسي كيف تُفتح أبوابه للعظماء.. وكيف كانت تغلق في وجوهنا من قبل.. ومؤكد هناك معاملة خاصة للفقراء.. أتابع في صمت كيف هي حياة أمثالهم داخل القصور، أبحث عن نظرات الضباع الجائعة.. متلاشية هي بينهم!

يقابلنا الملك في شرفة تناول طعام الصباح المطلة على حديقة واسعة يتوسطها حوض من الرخام الأبيض مليء بالماء وتسبح فيه أسماك لامعة ذات ألوان رائعة تبدو حمراء، وأرجوانية، وفضية، وذهبية. أتأملها في ذهولٍ، بينما يشير الحاكم إلى الشريف **سمتاوي** بالجلوس على المقعد المواجه له، يتجاهل **بتيسي**، ويبدو أنه لم يشاهدني على الإطلاق.

يهمس الشريف **سمتاوي** إلى الحاكم بكلمات لم نسمعها وهو ينظر ناحية بتيسي، يرتد الحاكم بظهره إلى الخلف، يتأمل **بتيسي** هُنيهة قبل أن يطلب منه أن يتحدث بشكايته في حضرته الآن.. يتعجب العجوز وهو يتأمل الحاكم الذي يسأل عن الشكاية! لقد سمعها من قبل، بل أمر أن

CamScanner ـب

يُعاقب الكاهن **ينحاور** ورفاقه، هل نسي الحاكم كل هذه التفاصيل؟! يظهر الامتعاض على وجه بتيسي وهو يهز رأسه كأنه يقول: لا فائدة من إطالة التفكير في أمر الحاكم ونسيانه والأفضل أن أبدأ بالحديث الآن.. وبالفعل يبدأ شكايته منذ البداية فيقول:

«واقع الأمر يا سيدي الحاكم أن حصة كاهن آمون صاحب **الحيبة** كانت ملكًا لوالدي، بالإضافة إلى حصة كاهن «**الآلهة الستة عشر المبجلين في الحيبة**» كانت له أيضًا، ولكن ما حدث يا سيدي الحاكم أن والدي غادر إلى أرض سوريا مع الملك **نفر آب رع** (بسمتيك) وترك حصته هذه في المعبد.. وفي هذه الأثناء ذهب الكهنة إلى **حار زو بن حارخبي** حاكم أهناسيا قائلين: إن حصة كاهن آمون المبجل في **الحيبة** هي من الأصل مملوكة للحاكم، ولكن استولى عليها كاهن آمون الذي سافر في صحبة الملك نفر آب رع وما تزال ملك لابنه، ليتك تدع ابنك **بتاح نوفي** يأتي معنا كي نكتب له تنازلًا عن تلك الحصة التي تمثل الشيء العظيم. وهذا ما حدث يا سيدي الحاكم.. فقد أرسل معهم ابنه **بتاح نوفي** إلى المعبد في الحيبة، وكتبوا له حصة كاهن آمون من قربات المعبد وضِياعه التي كانت مخصصة لأبي، أما حصة الكهنة الستة عشر التي كانت أيضًا مخصصة لأبي فقد أخذوها ووزعوها بينهم بحيث كان نصيب كل طائفة أربع حصص.

هنا تعلو الدهشة وجه الحاكم وهو يتأمل **بتيسي** هُنيهة قبل أن يتوجه بنظراته إلى الشريف **سمتاوي** ثم ينفجر ضاحكًا.. فقد بدا أنه لم

يفهم شيئًا مما قاله المبجل **بتيسي**، والحقيقة أنا نفسي اختلط عليَّ الأمر، تابعتُ فإذا بالحاكم يهدأ ويقول: «إن هذه الحوادث التي تسردها عديدة، عُد أيها الرجل المبجل إلى بيتك.. وسوف تحصل على إضمامة بردي، واكتب فيها كل شيء قد حدث»، ثم يتوجه بحديثه إلى الشريف **سمتاوي** ويقول: «أعطِه إضمامة بردي يا **سمتاوي** من أجل أن يكتب عليها كل شيء قد حدث لآبائه منذ أن كانت هذه الحصة ملكهم.. فلتكتب يا أيها الرجل المبجل الطريقة التي أُخذت بها من والدك، واكتب الأحداث التي وقعت لك من البداية حتى الآن».

أُخِذَ المبجل **بتيسي** من المفاجأة، فلم يجد فرصة مواتية كي يسأل عن تنفيذ أمر الجلد، فها هو الحاكم يطلب منه أن يبدأ من جديد كتابة مظلمته منذ بداياتها. خرجنا أنا وهو حينما أشار الشريف **سمتاوي** لنا بالانصراف وأن ننتظره في الخارج كي يأتي بإضمامة البرديّ التي أمره الحاكم بتوفيرها.

خرجنا نجرُّ أقدامنا، العجوز بتيسي شارد لا يعي ماذا يحدث، ما الداعي لتلك المماطلة التي يتحدث بها الحاكم؟! هل سينفذ فيهم عقوبة الجلد أم لا؟! وهل يعطيه حق عائلته المسلوب من حصة أوقاف المعبد؟! أما أنا فكنتُ في حيرة من أمري ولا أعلم هل أتحدث إلى المبجل **بتيسي** بما فعله الشريف **سمتاوي** من طلبه العفو عن الكاهن **ينحاور** ورفاقه أم أنتظر حتى يكتب مظلمته ويعرضها على الحاكم.. فقد يحصل على حق

ضائع، وسوف يحتاج إلى الشريف **سمتاوي** في الوصول إلى الحاكم، فلا داعي لإثارته ضده.

أخذتُ المبجل بتيسي وانتظرنا تحت مظلة من سعف النخيل اليابس، وقد أعدت أسفلها مصطبة صخرية منحوتة كتجويف خفيف في مساحات متجاورة تناسب الجلوس عليها، وفي دائرة لطيفة حولها بعض شجيرات مزهرة ذات ألوان متداخلة تُلقي على المكان روعة كنا سنشعر بها لو أنصفنا الحاكم، لكن بعد هذا الخروج الغريب من عنده والوجوم يخيم علينا لم نلحظ تلك الزهور ولم نتنفس عبيرها، ولم نلحظ أيضًا صدح العصافير التي تسكن جريد المظلة اليابس وقت تعامد الشمس.

قبل أن ينتهي نهار اليوم كنتُ أعود إلى منزل المبجل «**بنسن**» وفي صحبتي العجوز «**بتيسي**» الذي يحمل إضمامة البردي التي حصلنا عليها من الشريف سمتاوي حينما انطلقنا معه إلى ضيعته، وقد ظهر عليه الضيق طوال الطريق، ولم يتحدث بكلمة واحدة إلا بعدما وصلنا، وأمر أحد الخدم بأن يأتي بالإضمامة من مخزن البردي ويعطي الرجل المسن إياها، وأشار ناحية بتيسي في غير اهتمام، ثم دخل إلى منزله الذي يشبه القصر دون أن يدعونا إلى تناول جرعة جعة أو كوب ماء، لم أتحدث عن ذلك، فيكفي ما فيه المبجل بتيسي من كدر، كنتُ أشعر أن الشريف سمتاوي يفعل ذلك كي يغلق الباب أمام أي حوار يفضح أمره.

CamScanner

دخلنا إلى المنزل وقابلتني «ناميسا» بابتسامة قلقة.. هي فرحة بعودتي قلقة بسبب تأخري طوال النهار حتى إنها سألتني عن سبب تأخري إلى هذا الوقت، ثم أردفت مسرعة تقول: «لقد انتظركَ أكثر من مريض، لكنهم رحلوا بعدما يئسوا من مقابلتك اليوم». تركتُ بتيسي ليجلس بجوار «بنسن» على المصطبة الصخرية المفروشة بحاشية محشوة بالقش في صالة المنزل وتوجهت مع «ناميسا» ناحية الحديقة الخلفية، كانت تنظر ناحية جانبها الغربي، لكني لم أهتم وأنا أخبرها بتفاصيل اليوم، وفي نهاية حديثي سألتها عن رأيها في موقف الشريف **سمتاوي**! تمط شفتيها ثم قالت: «الشريف **سمتاوي** هو الوحيد الفائز في هذه الأحداث، لجأ إليه المبجل **بتيسي** فاستغله واستغل شكايته وعرضها على الحاكم تحت دعوى خوفه على ثروات المعابد التي يجب أن يستفيد منها القصر، حتى أتى الكاهن **ينحاور** ورفاقه وحصل منهم هو وابنه وإخوته على حصة عظيمة من قرابين المعبد ووقفه مقابل أن يجعل الحاكم يعفو عنهم.. وهو يرى الأمر لا ضرر فيه بالنسبة إلى **بتيسي** الذي لن يجني شيئًا من جلدهم.. هو بذلك لم يظلمه، ولم يرتكب جريمة في حقه.. إنما حصل على مكاسب أتت من حيث لم يتوقع».

تصمت ناميسا وهي تتأمل وقع كلماتها على وجهي، إنها مُحقة بالفعل، وهناك ما هو أكبر من ذلك، أقول لها: «قد يُقدِّم الشريف **سمتاوي** جزءًا مما سيحصل عليه من هؤلاء الكهنة إلى الحاكم!» تعقب **ناميسا** في همس وهي تنظر إلى الاتجاه نفسها: «لا يعلم ذلك غير الآلهة»، أنظر إلى هذا

الاتجاه الذي تكرر النظر نحو ولا ألحظ أي شيء، تتابع نظراتي ثم تبتسم.. بل تضحك وهي ترفع إصبعها لتشير قائلة: «ألم تلحظ أي تغيير يا باتار؟!» أتأمل وأفرك عينيَّ ولا شيء، فتأخذني من يدي خطوات وتقف أمامها.. أتأمل.. أشهق.. شجرة **جميز** صغيرة زُرِعت اليوم، أقول: «شجرة جميز.. مَن زرعها؟!»، تبتسم **ناميسا** في سعادة وهي تخبرني بأنها هي مَن طلبتها من أبيها، فبحث عنها وحفر حول جذورها حتى اقتلعها وأتى بها وشاركته في اختيار مكانها في حديقتهم وحفرت لها حفرة واسعة وزرعها والدها وهي حملت إليه الماء حتى تم العمل، هي تعلم كم كنتُ في حاجة إلى شجرة **جميز** بالجوار للحصول على عصارتها في أغراض علاج المرضى، وكان مما أوصت به والدها أن تكون جميزة بالغة تُثمر في الشهور القادمة.

سعدتُ بهذه الشجرة وسعدتُ أكثر باهتمام «ناميسا» بشؤوني والعمل على توفير متطلباتي، شجيرة الجميز من أهم النباتات التي تساعدني على علاج المرضى، فغير أخشابها التي تصنع منها توابيت الفقراء تبركًا بتابوت الملك أوزوريس الذي صُنِعَ منها منذ مئات السنين، هناك أيضًا عصارتها اللبنية التي تُستخدم في علاج أمراض الجلد وعلاج عض الثعبان ولسع العقرب، إضافة إلى مزجها مع بعض الأعشاب لعلاج البطن والتهاب الفم، وإن وجدتُ فرصة لجمع تلك العصارة اللبنية فقد أجفِّفُها وأجعلها كأقراص وأخزِّنها في إناء خزفي، وهذه الأقراص تفيد في علاج الجروح، وأقل ما تقدمه لي هذه الشجرة أوراقها التي أستخدم مسحوقها في صنع شراب يأخذه المريض في الصباح، وقبل أن يتناول أي طعام وذلك لوقف جريان البطن.

اتفقتُ معناميسا قبل أن نعود على ألّا نتحدث عن أمر سمتاوي، بل أسرعتُ لأتركها تسأل بتيسي عن رغبته في تناول الطعام، مع أن ذلك أمر بديهي، وأستدعي أنا الوالد «نبسن» كي أطلب منه ألا يتحدث أمام بتيسي عن أي شيء مما عَلِمَه أمس.

ينشغل بتيسي في إعداد الحبر الأسود بطحن كتلة صغيرة منه ومزجها بالصمغ ليبدأ في كتابة شكايته على بردية سمتاوي، أجلس مع المبجل «نبسن» وأخبره بتفاصيل ما حدث اليوم مع هذا الرجل، وأسأله عن رأيه: فيما هو مُنتظَر؟

تأخذنا الأحاديث في أكثر من مجال حتى يطلب أن يتبعني ابنه «بتاري» في عملي ليتعلم تراكيب العلاج والتعامل مع المرضى، كان يرغب في تعليمه نحت الصخور ونقشها، ولكنه الآن يُفضل عملي، نحت الصخور ونقشها يتبع الحاكم والأمراء والأثرياء وهؤلاء لا يأبهون بعامل مثله وقت مرضه كما حدث بالفعل، أما طبيب مثلي وقف إلى جواره وعالجه وأعاد إلى بيته سعادة أوشكت أن تغيب فهي مهنة شريفة يُفضِّل أن يمتهنها ابنه.

فجأة ونحن نتحدث في همس، وبتيسي يكتب شكايته، وناميسا تُعد الطعام، ويلهو بتاري في جانب الحديقة مع بعض الديكة، نستمع إلى صوت أعرفه جيدًا ينادي من الخارج باسم بتيسي، وحوله أصوات متداخلة يغلب عليها توتر وغضب، وإن كانوا يحاولون السخرية والضحك.

CamScanner

إنه صوت الكاهن **ينحاور**! هل هو صوته أم تراه صوتًا يشبهه؟! تُرى ماذا يفعل هذا الرجل.. غريب جدًا أن يأتي إلى هنا؟! ولكني لم أتأكد بعد.. نظرتُ نحو **بتيسي** فإذا ببوصة الكتابة تسقط من يده وهو يرهف السمع، تاهت نظراته في الفضاء الذي يلهث تحت أشعة شحيحة صادرة عن شعلة زيت في ركن المكان، أقفُ لأتوجه إلى الباب كي أفتحه، ولكن بتيسي يشير نحوي علامة أن أنتظر، فالمنادي يطلبه هو، يقف في حركة مضطربة، يتوكأ على عصاه، يفتح الباب، ألقي نظراتي كي أشاهد من فوق كتفي بتيسي فإذا بالواقف أمام فتحة الباب **ينحاور** بالفعل وحوله أبناء عمومته، يبدو أن كل شيء حاولتُ أن أخفيه عن **بتيسي** سوف يُكشف الآن، لقد خرجوا وأتوا إلى هنا، وليس على أحد منهم أي أثر لجلد أو عقاب.

يتحدث الكاهن ينحاور إلى **بتيسي** في سخرية قائلًا: «أيها العجوز الخَرِف بتيسي.. هل مر بخاطرك أن الحاكم قد أمر بجلدنا بسببك أنت؟ بحياة رع.. إنه لم يأمر بضربنا بسببك.. بل أمر بضربنا؛ لأنه أرسل إلينا مرة ولم نحضر».

كلمات يرغب منها الكاهن ينحاور حرمان العجوز بتيسي من شعوره باسترداد بعض من هيبته الضائعة بأن أمر العقاب قد صدر من أجله هو. يظهر الحزن على بتيسي وتتحرك أصابعه في شبه تشنج وأنا أتابعه من الخلف وبجواري **«نيسن»**، ولم أعِ أن خلفنا كانت تتابع **«ناميسا»** وإلى جوارها «بتاري» الذي ترك الديك المشاكس ووقف هو الآخر يتابع.

CamScanner

يؤكد صوت بتيسي المرتعش قلقه واضطرابه وهو يقول: «بحياة بتاح.. لقد استدعاكم وأمر بجلدكم من أجلي أنا، وسوف ترون العقاب الذي سيوقعه عليكم بسببي».

اضطربتُ وأمسكتْ يدٌ خفية بأحشائي وأنا أستمع إلى كلماته، هل سيخبرونه بأن الحاكم قد عفا عنهم وأطلق سراحهم وأن الشريف سمتاوي الذي يلجأ إليه هو الذي توسط لهم في ذلك لدى الحاكم؟! سوف يسقط بتيسي إن قالوا ذلك.. إنه حتى الآن لا يعلم.

لكن ما حدث عقب كلماته كان حقًّا مثيرًا للدهشة، فقد تأمله الكاهن ينحاور برهة وهو يتبادل النظرات مع رفاقه وابتلعوا سخريتهم وانصرفوا دون أي كلمة، يُغلق «نبسن» الباب ويسحب مغلاقه المصنوع من الحديد، وكأنه يؤكد انصرافهم، نتبادل النظرات ونحن نتابع وجوم بتيسي الذي يعود إلى مكانه ليستكمل كتابة ما بدأه.

في اليوم التالي ينتهي **بتيسي** من كتابة شكايته كاملة، المساء قد بدأ يرخي سدوله، يقرر الخروج والذهاب ببرديته إلى الشريف **سمتاوي** ولما حاولتُ تأجيل ذلك حتى الغد يرفض في عناد، أخرج معه وفي طريقنا إلى الضيعة أحاول أن أخفف عنه وأخبره بأنه قد لا يستطيع الحصول على حقه وحق أسرته المسلوب، وقد لا يستطيع أن يسترد هيبته الضائعة، وأن يعوض عن إذلاله وضربه.. أسهبتُ في حديث متشائم كيلا يبني آمالًا ينسج حولها خيالات تدميه عند مواجهة واقع مُر سوف يلاقيه، لم ينبس ببنت شفة وإن عبر وجهه عن الكثير.

لم نجد الشريف **سمتاوي** في ضيعته، بل كان في بيت السجل لقضاء بعض الأعمال، توجهنا إلى هناك، وبتيسي يضم برديته إلى صدره، يحتضنها كأم تحتضن رضيعها.

وصلنا إلى بيت السجل الذي يتوسط المدينة، في الفناء الواسع وإلى جوار شجرة عظيمة انتظرنا خروج الشريف سمتاوي يتحدث مع أحد رجال بيت السجل، فوجئ بنا أمامه وقت خروجه من المبنى، يتقدم العجوز بتيسي في خفة ويمد يده بالبردية نحو سمتاوي، لكن الرجل لم يتناولها، يصمت بتيسي ونظراته تتأرجح بين البردية على يديه وبين سمتاوي ثم يهز رأسه ويقول: «هل أقرؤها لك؟». تمر هُنيهة والشريف سمتاوي يتأمله ويمط شفتيه، ثم يقول: «يا بتيسي.. ألا تعلم أن الحاكم قد صرف الكهنة.. لقد ذهبوا بعيدًا.. ركبوا في الليلة الفائتة مركبًا عادوا به إلى معبدهم في **الحيبة**.. وليس هناك فائدة من أخذ البردية إلى الحاكم.. فهل تنتظر أن يرسل الحاكم في طلبهم مرة أخرى.. لقد فات الوقت يا بتيسي؟!».

تخور قوى بتيسي، تتهدل كتفاه، يحتضن برديته مرة ثانية وقد ذرفت عيناه الدمع غزيرًا مثل فيض يهدم سد. رحل الكاهن ينحاور ورفاقه في الليل بعدما أتوا إلى بتيسي لإذلاله! يرفع العجوز رأسه الذي كاد يلتصق في صدره وقال: «هل أتيتُ لأمضي سبعة أشهر هنا متظلمًا للحاكم ولعظماء رجاله كل يوم من أجل هاتين الجلدتين بالسوط، ومن الأصل لم يجلد أحدهم! وفي النهاية تقول لي: لقد فات الوقت يا بتيسي.. تعني أنني كنت

يا بـ CamScanner

بطيئًا، وأنكم كنتم أحرص على عودة حقي، وأرسلتم في طلبي، وأنا مَن تأخر؟! بحياة رع.. لقد أتيتُ لأتظلم إلى الحاكم ليمنع عني الظلم الذي عانيته وسوف أعانيه مع هؤلاء الكهنة، وحتى اليوم لم أحصل على جزء من حقي».

ينتهي **بتيسي** من كلماته وأشاهد **سمتاوي** قد رقَّ قلبه، فقد اقترب من بتيسي ليربت على كتفه ويقول: «اسمع يا بتيسي.. تعالَ معي إلى الكاهن الأكبر **أحمس** كاهن **حور** وسوف أجعله يكتب رسالة إلى الكاهن **ينحاور** ورجاله، وسوف أكتب أنا أيضًا إليهم رسالة رقيقة، واعلم أنهم سوف يحترمون رسالة الكاهن الأكبر ورسالتي أكثر من احترامهم لرسالة الحاكم».

****

CamScanner

(١٩)

الأعمى

أشعر بتلك الراحة الناتجة عن الشعور بالاستقرار وأنا أجلس في منزل **«نبسن»** وقد طابت لي حياتي بجوار «ناميسا»، وفي هذا اليوم يُحدثني المبجل «نبسن» أنه يفضل أن يكون موعد الزواج مع نهاية فصل الفيضان، أوافق في سعادة.

كان المبجل بتيسي قد رحل في اليوم السابق ولم أرافقه بالطبع، فحياتي أصبحت هنا، لم تظهر عليه علامات فقد الصاحب كما ظهرت عليَّ أنا.. ودعتُه وهو يخطو إلى السفينة التي سترحل إلى **أهناسيا** ومنها إلى مدينة **الحيبة**، يحمل معه خطابين إلى الكاهن **ينحاور** ورفاقه، أحدهما خطاب من الشريف **سمتاوي**، والآخر خطاب من الكاهن الأكبر **أحمس**.

ضاعت آمال بتيسي في استرداد هيبته وحقه، يفقد الرغبة في الحياة، أضحى الآن يأمل في ألا يعترض طريقه الكاهن ينحاور ورفاقه، ووفقًا لما كُتِبَ في هذه الخطابات المخطوطة على أوراق البردي كان هناك نداء من الكاهن الأكبر والشريف سمتاوي بالسماح لبتيسي باسترداد جزء يسير من قربات المعبد التي كانت مخصصة لأسرته من قبل، كنتُ أعلم أن الكاهن ينحاور لن يوافق على هذا المطلب، ولكنها كانت محاولة أخيرة لنكء جراح بتيسي.

CamScanner

انشغلتُ مع بعض المرضى في يومي هذا بنشاط ابن المكان، وليس ضيفًا عليه كما كنتُ في السابق، في صباح الأيام الماضية كنتُ أخرج إلى الصحراء المجاورة للمدينة أبحثُ عن أعشاب ونباتات عطرية تستخدم في العلاج بعد تجفيفها وطحنها وخلط بعضها مع بعض، وهذه كانت عدتي ومعيني في الأيام التالية، وفي يومي هذا استخدمتُ تركيبة خاصة لم أتعلمها من أحد وإنما ابتكرتها، فلو نجحت فكرتي ستكون إفادة حقيقية للمرضى الذين يعانون أمراض الفم وآلام الأسنان، الشائع من قبل استخدام غصن جاف من نباتات عطرية ذات ألياف لتنظيف الأسنان، ابتكرتُ أنا مسحوقًا من قشور البيض وحجر الخرفش ممزوجًا بحوافر الثور مع عصارة من أوراق الزهر أو لبن قليل، يُدلك هذا الخليط بالأسنان باستخدام قطعة من الغصن الجاف ذي الألياف، وكانت ناميسا أول مَن استخدمها فبرقت أسنانها وتألقت واتسعت ابتسامتها ليزداد جمالها.

أوشك نهار هذا اليوم أن ينتهي، وقد شعرتُ بتعب حقيقي من كثرة العمل، تمر «**ناميسا**» وعلى محياها ابتسامة صافية وهي تشير نحو الباب الذي يفصل بين جلستي في الحديقة الخلفية وبين الصالة المتسعة، أشارت بعلامة تعني أنها انتهت من إعداد الطعام وفي انتظاري. كان أمامي مريضان فقط أحدهما سيدة مسنة تعاني من آلام شديدة في أسفل البطن، قدمتُ لها بعض الأعشاب المذابة في ماء دافئ كان «بتاري» يجهزه لي حينما أطلبه منه ويقوم بعمليات المزج والتصفية عبر قماش الكتان الرقيق.

لم أكد أنتهي من هذه السيدة المسنة وأتوجه إلى المريض الأخير وهو عامل فقير يعاني كما يبدو - من الملاحظة الأولى - من آلام في الرأس، فإذا بي أسمع صراخًا وعويلًا مستمرًا مع دق عنيف على الباب، أسرع «بتاري» ليشاهد مَن هناك ولم أحتمل الانتظار وأنا أشاهد علامات الفزع ترتسم على وجه «ناميسا، فأسرعتُ أنا أيضًا ناحية الباب، فإذا به المبجل **«بتيسي»** وقد سقط على ركبتيه أمام البيت وهو يصرخ ويكبش من تراب الأرض ويضع على رأسه، وما يزال يصرخ صراخًا مريرًا أوقع قلبي من مستقره في صدري، انحنيتُ نحوه، أسأله وأنا أرفعه من يديه عما يحدث؟! كانت الأسئلة تتسارع فوق لساني، كيف عاد ولماذا يصرخ ويبكي ويهيل التراب على رأسه؟!

بصعوبة فهمتُ من بين صراخه أن هناك رجالًا قابلوه في **أهناسيا** وعلى وجوههم حزن شديد يوحي بوجود كارثة، أخبروه بكارثة نزلت بأسرته، وعندما ألح في معرفة الأمر أخبروه بأن النار اشتعلت في داره.. أحرقوا بيته.. تشردت أسرته.. ولو عاد إلى الحيبة لقتلوه.

لم يجد بُدًّا من العودة إلى هنا كي ندبر الأمر معًا. ظل يبكي حتى شحب وجهه وخارت قواه وسقط في شبه إغماءة وليست نومًا.

في صباح اليوم التالي بذلت جهد كبير في إقناع بتيسي بأن عليه التمهل في زيارة الحاكم حتى منتصف النهار، فقد استيقظ العجوز من نومه مع

CamScanner

أشعة النهار الأولى وكان يستعد للذهاب والجلوس أمام القصر حتى يؤذن له بالدخول إلى القصر.

تُعد «ناميسا» الطعام، بينما أبذل جهدًا كبيرًا في إقناعه بتناول الطعام لأن جسده لن يستطيع الصمود دون طعام، يسيطر علينا الحزن، فالرجل مفطور القلب ولا يعلم مصير أسرته بعد حريق داره، فهل يترك أهله طوال هذه الشهور ليعود إليهم بحقهم المسلوب لينعم في نهايات حياته بتقدير يجعله مرفوع الرأس، وتأتي النهاية بحرق داره، ومَن يعلم فقد تكون أسرته مشردة الآن لا تجد الطعام بعد فقدها المأوى!

عند انتصاف النهار أمسكتُ بيد العجوز وتوجهنا ناحية القصر، ولم نجد صعوبة في الدخول إلى الحاكم، فمن كثرة دخولنا القصر أصبحت وجوهنا مألوفة لدى الحراس، ويبدو أن الحاكم قد وافق على مقابلة **بتيسي**؛ لأنه في الأصل كان ينتظر إضمامة البردي التي أمره بأن يأخذها من الشريف **سمتاوي** ويكتب عليها تفاصيل ما حدث لأسرته وله حتى اليوم، الحاكم لم يعلم بما جد من أمر خطابات الكاهن الأكبر **أحمس** والشريف **سمتاوي** وعودة بتيسي إلى الحيبة، لم يعلم أن سمتاوي أخبر بتيسي أن عليه أن يرحل دون أن يعطي الحاكم البرديةَ، والبردية الموجودة الآن لدى سمتاوي ولا أحد يعلم مصيرها.

يصلب بتيسي جسده حتى إذا ما وصلنا إلى القاعة الواسعة، التي يجلس الحاكم في صدرها والأسد الصغير يقبع عند قدميه وينتشر على

CamScanner

أبوابها عدد من الحرس والخدم، حتى ينهار باكيًا ويسقط على ركبتيه، ويلطم خديه، ويضرب على رأسه وجانبيه في حركات دامية وهو يقول: «إن بيتي قد أُحرِقَ.. إن بيتي قد أُحرِق يا سيدي الحاكم»، تظهر الدهشة على وجه الحاكم هُنيهة يتأمل فيها حركات العجوز **بتيسي**، ثم يتأملني وأحسبُ أنه يلحظ وجودي للمرة الأولى، ثم يهز رأسه في هدوء وهو ينظر إلى **بتيسي**، ويسأله: «بيتك قد أحرق؟! بفعل مَن؟!» يجيبه العجوز وقد ظهرت الدهشة على وجهه كأنه يستغرب السؤال لأن الإجابة واضحة، فيقول: «بفعل هؤلاء الكهنة الذين اتهمتهم أمامك.. إنني في مدينتك أشكوهم منذ سبعة أشهر وحتى اليوم.. وهم الذين قد سُمِحَ لهم بالذهاب دون أن يُعاقبوا».

هنا فقط ألاحظ انفعال الحاكم وتوتره للمرة الأولى، على وجهه علامات توحي برغبته في أن يقول: «هل وافقت على رحيلهم دون عقاب؟ وتكون النتيجة تماديهم في ارتكاب الجرائم؟!» لكنه يهز رأسه وهو يشير إلى أحد الرجال على يمين القاعة، فيأتيه مسرعًا في خطوات لها ضجيج على أرضها الرخامية، يأمره أن يأتي بالكاهن **أحمس** الآن، ينصرف الرجل في خطوات مسرعة، بينما يشير الحاكم نحونا بالجلوس في مكان على يسار القاعة بالقرب منه، ثم يلتفت إلى الشرفة بجانبه يتابع حركة شيء غير واضح لنا، يبدو أنه يتحرك في بركة ماء.

بعد قليل يدخل الكاهن **أحمس** بجسده الفارع ورأسه الحليق الذي يلمع مثل كثير من أجزاء جسده بفعل التدليك الصباحي بزيت الكافور

CamScanner

الذي تنبعث رائحته في المكان بمجرد دخوله، يلتفت إليه الحاكم في هدوء بعد سماعه كلمات التبجيل التي تلت وقع خطواته ويقول له: «اسمع أيها الكاهن **أحمس**.. سافر مع هذا العجوز الطيب إلى مدينة **الحيبة**، وأحضر لي الكهنة الذين أشعلوا النار في بيته»، ثم يعود إلى وضعه الأول في إشارة صامتة لإنهاء اللقاء.

يغادر الكاهن **أحمس** وهو يشير ناحية **بتيسي** بأن يتبعه وقد ظهرت على ملامحه آي الضجر، يبدو أنها مهمة ثقيلة أتت فجأة ولم توافق هوى في نفسه، أمام القصر يتوقف أحمس وهو يُصَعِّدنا بنظراته ويقول: «أخبرني بالمكان الذي ستنام فيه أيها العجوز بتيسي حتى أرسل في طلبك حينما أستعدُّ للسفر معك جنوبًا إلى الحيبة». أخبره بمكان بيت المبجل «نبسن»، فيتركنا ويخطو ليبتعد قبل أن يقف، ثم يعود إلينا ويوجه كلماته إلى بتيسي في ضيق: «منذ اليوم الأول.. في معبد **الحيبة**.. طلبتُ منك أن تتحدث.. ولكنك آثرتَ الصمت.. انظر.. إلى أين قادك صمتك!» ثم يصمت ويشيح بيديه في الهواء كأنه يقول: لا فائدة الآن، ثم يهم بالانصراف، لكن بتيسي يستوقفه حينما يقول «كنتُ أبحث عن حق أسرتي المسلوب يا سيدي الكاهن الأكبر ولو تحدثت بما رغب الكاهن زوبستف عنخ لضاعت حقوقنا». فجأة يضحك الكاهن وإن كانت علامات الضيق ما تزال منقوشة على وجهه، وينصرف وهو يقول: «حق أسرتك المسلوب؟! لقد ضُرِبتَ وضاع ما كنت تملكه وأحرق بيتك!» وسمعتُ أنا نهاية كلماته التي كانت أضعف من أن تصل إلى سمع العجوز بتيسي المنهك بفعل السنين، سمعته يقول: «أيها العجوز الغبي».

CamScanner

تمر عدة أيام ولم يقرر الكاهن الأكبر أحمس السفر جنوبًا إلى **الحيبة** مع المبجل بتيسي الذي أوشك أن يفقد صوابه واعتنق الصمت وكسره اليأس، حتى كان هذا اليوم الذي أتى فيه الكاهن أحمس ودق الباب وسأل «بتاري» الذي فتح له الباب عن العجوز بتيسي، فذهب إليه بتيسي يجر قدميه وينظر في تساؤل أنْ: هل سيرحلون؟ لكن الكاهن الأكبر أحمس الذي يقف بين مجموعة من رجاله وتابعيه مثل قائد ذي مهابة عظيمة يقول: «لقد اخترت هذا الرجل المبجل **(واح أب رع مرى رع)** كي يسافر إلى الحيبة ليحضر الكهنة الذين اتهمتهم أنت بأنهم أحرقوا بيتك، سوف يذهب إلى هناك مقابل خمس **قدات** من الفضة، تدفعها أنت له»، يُنهي كلماته وينصرف في ضيق كأنه ألقى حملًا ثقيلًا من فوق كاهله ويهرول خلفه أتباعه يثيرون غبار الطريق تاركين الرجل الذي سيسافر يقف وحيدًا إلى جوار النافذة ويتعلق بيده في نتوء صخري، يتحرك بتيسي وأتحرك خلفه لنشاهد المبجل **(واح أب رع مرى رع)** الذي اختاره الكاهن الأكبر لأداء المهمة فإذا به رجل أعمى.

* * * *

(٢٠)

عودة الحق

تمرُّ الأيام والجميع في حيرة، لا نعلم ماذا يحدث؟! ما كان أمام المبجل **بتيسي** غير الصمت والانتظار، فقد رفض الكاهن الأكبر **أحمس** أن يسافر بتيسي بصحبة الرجل الكفيف **(واح آب رع مرى رع)** الذي كُلِّف بمهمة لم يفلح فيها المبصرون، يسافر الكفيف وحده وبتيسي في انتظار قلق، لكن ما قاله «**نبسن**» عن أن هذا الرجل الكفيف معروف عنه في المدينة أنه رجل لحوح فطن، وقد أتم من قبل مهامَ يعجز عن إتمامها المبصرون، خاصة أنه قد نال أجره قبل أن يتحرك، وتعجبتُ من مهام يأمر بها الحاكم ويدفع كلفة أعبائها أصحاب الشكايات.. صاحب الشكاية في الأصل يشكو عوزه؟!

في صباح هذا اليوم يأتي خادم من طرف الشريف **سمتاوي** ليخبر بتيسي أن الرجل الكفيف قد أتى من **الحيبة** وفي صحبته الكاهن ينحاور، وهو في طريقه للمثول أمام الحاكم، وقد ارتأى الشريف **سمتاوي** ضرورة وجود المبجل **بتيسي**. ينصرف الخادم وبتيسي ينظر نحوي في صمت حزين بالرغم من أني كنتُ أرى أن ما يحدث أمر يجب أن يُسعده، ها هو الكاهن **ينحاور** قد أتى ليُقتص منه بسبب فعلته الشنعاء. لكن **بتيسي**

CamScanner ـب

أخبرني أن وصول الكاهن **ينحاور** بمفرده يعني أن بقية مجموعته ما تزال هناك في الحيبة تهدد أسرتي التي لا أعلم من الأصل كيف تعيش.

هدأتُ من روعه، وأخذت بيده، وسِرنا في اتجاه قصر الحاكم، لم نتحدث طوال الطريق، كنتُ أتابع بعض التفاصيل كي أجد ما أشغل به تفكيري، فالرجل يسير بجواري مثل مُوميا، ذاهب العقل ذاهل الملامح وأي كلمة قد يضيق بها صدره.

يستوقفني بعض المارة ممن يعرفونني كطبيب للسؤال عن بعض ما يَعِنُّ لهم، في البداية كنتُ أجيب وعيناي تتابعان امتعاض بتيسي، لكنني بدأتُ أعتذر بإشارة من يدي تصحبها ابتسامة ودود شفقة بهم وقد أرفق بتلك الإشارة من يدي بعض كلمات مثل: «سوف أكون في مقر العلاج بمنزل المبجل نبسن قبيل الغروب» فيسعدون بهذا الوعد، لا أعلم لِمَ تحولت مشاعري نحو هذه المدينة، وأصبحت تمثل لي كل شيء حتى إني نسيتُ كل تفاصيل حياتي السابقة في **الحيبة**.

ندلف إلى القاعة العظيمة التي يتصدرها الحاكم، ويؤذن لنا بالدخول، يُستدعى الكاهن **ينحاور**، الشريف **سمتاوي** يجلس على مقربة من الحاكم بين مجموعة من عظماء المدينة، إنه أحد الرجال المقربين من الحاكم، يشير الحاكم ناحية الكاهن **ينحاور** بمفتاح الحياة، المصنوع من خشب الأرز والمرصع بأحجار كريمة، ويسأله بكلمات حازمة: «لِمَ أحرقت

CamScanner

بيت هذا الرجل المبجل أيها الكاهن ينحاور؟». وكأن ينحاور قد صُعِقَ من هذا الاتهام فيشهق ويضرب بيده على رأسه وهو يقول: «أنا؟! لم يحدث هذا يا سيدي الحاكم.. أنا؟! أنا رجل كاهن يا سيدي، وأعلم أن تلك جريمة تعاقب عليها الآلهة.. ثم.. ثم لماذا أحرق بيته وقد...؟» يرفع الحاكم يده بإشارة أخرى بأن توقف أيها الكاهن عن تُرّهاتك تلك، فيبتلع الكاهن باقي كلماته ويتأمل غضب الحاكم في فزع، الجميع بمن فيهم أنا تتعلق أعيننا بفم الحاكم في انتظار كلماته، يصمت هُنيهة وهو يتأمل الجميع ثم يشير إلى أحد رجاله ويقول: «هذا الكاهن ارتكب جريمة لا تليق بكونه كبير كهنة معبد الحيبة، الأصل في عملكم أيها الكهنة هو تعليم الناس وليس التعدي على ممتلكاتهم، فليجلد الكاهن ينحاور خمسين جلدة». ثم يشير بيده في الهواء علامة أن الأمر انتهى هكذا، ولينصرف صاحب الشكاية لانتهاء مظلمته بعقاب المتسبب.

خرجتُ في صحبة المبجل **بتيسي** الذي يقف أمام بوابة القصر في شرود تام حتى إنني للمرة الأولى ألحظ دموعه تنهمر دون صوت، يرق قلبي وأنا أضمه إلى صدري مواسيًا، يتحدث بصوته المشروخ قائلًا: «هل رأيت الحاكم وكلماته؟! أيُّ نفع يعود عليَّ أنا وأسرتي من جلد الكاهن ينحاور خمسين جلدة؟! هل ستعيد هذه الجلدات بيتي الذي أحرقوه؟! من قبل ضربَني الكاهن وأبناء عمومته، فكنتُ أسعى لأن يُضرب كما ضُرِبتُ.. أما الآن فإن لي حقًّا قد أُحرِقَ، ولن يعيده جلد الكاهن.. كان على الحاكم أن

CamScanner بـ

يأمر الكاهن وأبناء عمومته بإعادة بيتي إلى ما كان عليه وتعويضي عن كل شيء أُحرِقَ بمثيله.. أليس هذا هو العدل يا باتار؟!».

باءت محاولات تهدئتي له بالفشل؛ فقد كان بداخله نيران تأكله يتزايد أوارها كلما مر الوقت ونحن نقف هكذا حتى يلمح الكاهن الأكبر **أحمس** يخرج من القصر في طريقه إلى المعبد، فيسرع ناحيته مثل غراب يحجل وهو يصرخ بكلماته المتهالكة عن أن جلد الكاهن **ينحاور** لن يفيده في شيء، يقف الكاهن **أحمس** وقد ظهرت على ملامحه شفقة غريبة، أو هي غريبة عليّ أنا خاصةً لأني الآن أتذكر تفاصيل ما حدث كافة لهذا الرجل العجوز بتيسي ولأسرته، فأجد أن الكاهن الأكبر **أحمس** هو المتسبب فيها، فإن كان سؤاله في البداية عن كيف خُرِبَت **الحيبة** في الماضي فها هو الآن بمعاونة رجاله يعيدون تخريبها!

يضع الكاهن أحمس يده على كتف بتيسي في شفقة ويقول: «اسمع أيها المحترم بتيسي.. هل ستموت من أجل هذه القضية؟!» فيرفع بتيسي رأسه لأن الكاهن أحمس رجل ضخم وبتيسي أمامه بجسده الضئيل مثل طفل أمام عملاق، يهمس قائلًا: «وهل أنا أعيش الآن يا سيدي كاهن الإله حور؟!»، يمدُّ أحمس يده ليمسك بيد العجوز بتيسي ويتحرك به وهو يقول: «هل تأتي لزيارتي في الغد كي أجعلك تقابل الكاهن ينحاور.. فلا تنسَ أنه ما يزال المدير الإداري للمعبد.. سوف أجعله يحلف لك أنه سوف يعطيك حقك في كل مسألة».

CamScanner

نعود إلى منزل المبجل «نبسن» ولم تفارق بتيسي الأحزان، أحاول أن أخفف عنه بأنه في الغد سوف يحصل على وعد باستعادة حقه، فيتأملني مليًا قبل أن يقول: «أي حق سوف أستعيده يا باتار؟ هل هو حق أسرتي المسلوب منذ سنوات طوال أم هو حقي فيما لحق بي من ضربٍ وإهانة في معبد الحيبة، وكنتَ أنتَ شاهدًا عليها وأنتَ مَن عالجتني وأنا أُصارع الموت، أم حقي فيما لحق ببيتي الذي أحرقوه وأسرتي التي تم تشريدها ولا أعلم ما هم فيه الآن؟! أي حق سوف يساعدني الكاهن الأكبر أحمس على استعادته من الكاهن **ينحاور** وهم أصل ما لحق بي من خراب!».

يصمت ليترك لأنفاسه الفرصة في التتابع فقد بلغ من الانفعال ما قد أوشك على قطع أنفاسه حتى إني رفعت كوب الماء الخزفي الموجود إلى جواري وناولته إياه كي يرتشف قطرات علّها تُهدئه. لم أجد ما أسرّي به عنه فتركته لهمومه وذكرياته يجترها وذهبتُ إلى «ناميسا» أتبادل معها الحديث، بينما كانت تغسل الثياب في الحديقة الخلفية للمنزل.

في اليوم التالي نذهب إلى الكاهن الأكبر أحمس كاهن حور في منف ونتقابل بالفعل مع الكاهن ينحاور الذي ظهر أنه متأثر جدًا بما لحق به من إهانة، فقد جُلِدَ خمسين جلده، أقسم وهو ينظر إلى الأرض تحت قدميه بأنه سوف يذهب إلى الحيبة وسوف يعطي بتيسي كل شيء هو من حقه.

بعد مشقة يقنع بتيسي أن يسافر مع الكاهن ينحاور إلى الحيبة.. يودعني كأنه يدرك أننا لن نلتقي ثانية، يسير بخطى ثقيلة وحقيبته الكتانية معلقة في كتفه، وبدا انحناء ظهره أكثر عما كان عليه من قبل، تصرخ كلبة في عويل طويل وهي تسير وخلفها جرو وحيد، يبدو أنها تبحث عن باقي صغارها.

أعود إلى ناميسا وحياتي الجديدة، وتمضي الشهور أمارس فيها تفاصيل دقيقة نابعة من قلب ابن المكان الذي يعيش بين أهله، يفرح لفرحهم ويحزن لحزن، يبذل قصارى جهده في علاج مرضاهم، ورسم البسمة على وجوه تيبّست من كثرة الشقاء.

أعلم عن طريق أحد رجال **الحيبة**، كان في زيارة إلى منف لبيع محصوله من الشعير والحنطة، أن الكاهن ينحاور لم يعطِ بتيسي أي شيء، فما حدث كان شنيعًا، بتيسي يسعى الآن عند كبار رجال **الحيبة** كي يتوسطوا له لدى الكاهن **ينحاور** من أجل أن يقبل التصالح معه ويرفع عنه مقته.. فلم يعد يطالب بأي حق من حقوقه وحقوق أسرته الضائعة، إنما يريد أن يعيش هو وأسرته بلا إذلال أو إهانة حتى يحين وقت الرحيل إلى العالم الآخر!

****

با بـ CamScanner

(٢١)

بردية بتيسي

أفقتُ مثقلًا من نوم هو أشبه بالغيبوبة.. أو هي غيبوبة كنتُ أظنها نومًا، أشعر بآلام رهيبة فلا أستطيع حتى تحريك رأسي يمنة أو يسرة.. بحثتُ بعيني عن باب الغرفة لعلي أجد **ناميسا** واقفة في مكانها كعادتها كل صباح منذ أقمتُ في منزلها وأحببتها، ولكني فوجئتُ بما لم أكن أنتظره.. أشاهد ممرضة تقف ناحية اليمين تتطلع إلى الأجهزة المعلق بها محاليل تصل إلى جسدي كأنها شبكة عنكبوت تحاصرني، أين أنا؟! سؤال يبدو أن كلماته رُسِمَت على وجهي، فقد التفتت الممرضة نحوي في دهشة في البداية، ثم ابتسمت في هدوء وهي تقول: «حمدًا لله على سلامتك.. الغيبوبة طالت هذه المرة». تقترب لتضغط على طرف أذني في حركة حانية مثل حبيبة تداعب حبيبها، اندهشتُ وقد تألمتُ منها ألمًا طفيفًا، فقالت: «هل تؤلمك؟ الأفضل أن تؤلمك يا أستاذ أيمن.. «

تخرج وتتركني وحيدًا أتأمل فضاء الغرفة في شرود، بعد قليل تعود بصحبة الطبيب الذي يبدأ في إجراء فحص دقيق لجسدي من فتح العين، والضغط على جانبي الرقبة، والإنصات إلى دقات قلبي عبر السماعة، يتأمل الجرح في مؤخرة رأسي، يحكُّ شيئًا لا أعلمه في باطن قدمي فأجذبها في

CamScanner بـ

حركة لا إرادية، يبتسم الطبيب وهو يسحب مقعدًا ليجلس فوقه عكس الاتجاه بحيث يستند بذراعيه إلى مسند الظهر ويقول: «الآن أستطيع أن أقول: حمدًا لله على سلامتك.. لقد عدتَ من غيبوبة عميقة يا أيمن.. غيبوبة حدثت لك نتيجة تضرر جزء من دماغك بعد الضربة العنيفة التي تلقيتها.. نتج عن الضربة فقدان الوعي.. أو إن أردنا الدقة **عدم القدرة على اليقظة**، جسدك لم يكن يستجيب للمحفزات المختلفة من لمس أو حتى الوخز بدبوس أو الصوت أو الضوء، الفرد المصاب بهذه الغيبوبة، التي نقول عنها **السكتة الدماغية**، يكون على قيد الحياة، ولكنه غير قادر على التفكير أو الكلام أو إبداء أي رد فعل».

يتحرك لساني بكلمات مبهمة لحظات حتى أجدني أقول: «لكني كنتُ هناك». فتظهر على الطبيب دهشة وهو ينظر ناحيتي، ثم يرنو بطرف عينه ناحية الممرضة قبل أن يقول: «هناك.. أين؟!».. تجري بعض الكلمات على لساني وملامح الغرفة تغيب عن عيني، أسمع صوتي أقول: « ناميسا.. بتيسي.. تبسن..»

تتلاشى صورهم من أمامي بالتدريج كما ظهرت.. أعود لأجد الدهشة على وجه الطبيب في تزايد غريب فألزم الصمت.

تمر الساعات والطبيب ومساعدوه يمارسون عملهم، وقد أتى والداي

CamScanner بـ

وعلى وجهيهما فرحة بعودتي إلى الحياة مرة أخرى، ويبدو أنهما كانا قد أوشكا على فقد الأمل.

في اليوم التالي يقرر الطبيب أنني قد أستطيع العودة إلى المنزل بعد أسبوعين لو استمر التحسن على المستوى نفسه شريطة أن أمارس بعض تمارين العلاج الطبيعي الذي يجب أن يبدأ خلال أيام في المستشفى.

أعاني ويتعرق جسدي وأنا أشعر به رخوًا مع تمارين العلاج الطبيعي، لكن بعد أيام ومع علاجات أخرى أشعر بالفعل بتحسن ملحوظ ترافقه ابتسامة ونوع من الصفاء الذهني، وإن كانت تفاصيل كثيرة من حياة بتيسي ولقائي بـــ ناميسا تتجسد أمامي.

يخبرني أبي بأن ضابط المباحث الذي جاء من قبل لاستجوابي.. أقاطعه.. أيُّ ضابط؟! أنا لا أتذكر شيئًا! يحدثني أن ضابطًا قد أتى للتحقيق معي فيما حدث وأني أخبرته بما دار في استراحة فاروق وما سمعته من لصوص الآثار.. وأن الضابط قد وجَّه لي الاتهام، فتعجبتُ! أيُّ اتهام؟! لكن أبي ابتسم وقال: «دع عنك هذه التفاصيل الصغيرة، أنا فقط كنتُ أظن أنك تتذكر هذا الأمر، فأحببتُ أن أطمئنك يا بني». طلبتُ منه أن يوضح لي أكثر، فأخبرني بأن عددًا من أصدقائي قد أثاروا قضيتي على صفحات **الفيسبوك** وطالبوا الجهات المختصة بالتحقيق لمعرفة مَن وراء الحادث، وكتبوا عن رجل الأعمال والسياسي توفيق زغلول ورجاله الذين ضربوك بداخل استراحة فاروق، وذكروا اسم الضابط الذي أراد أن يُبعد أصابع

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

الاتهام عن توفيق زغلول ويُلقي التهمة عليك أنت! فما كان من الجهات المختصة إلا البحث الحقيقي.. وابتعدوا عنك تمامًا، وإن كنتُ أشك في أنهم سيكشفون النقاب عن الفاعل الحقيقي».. أمط شفتيّ وأنا أقول في همس: «إنه الفساد».

بعد أيام أستطيع السير وحدي دون أي مساعدة وأنا أحفظ توازني، وتلك كانت مسألة شاقة عانيتُها في البداية.. أعود في صحبة والدي إلى المنزل كأني ولدتُ من جديد.. فرحتهم بعودتي أسعدتني بالفعل، لكن انشغالي بما يدور بداخلي كان يمنعني من إدراك ما حولي، حتى تناول الطعام الذي تعده أمي لي، وتصمم أن أتناوله كاملًا، كثيرًا ما كنت أنساه.

بعد معاملة تماثل التعامل مع طفل، وبعد منعهم لي من القراءة وفقًا لتعليمات الطبيب، أستطيع الوصول إلى مكتبي وفتح جهاز الكمبيوتر والبحث بين مئات المراجع التي أحتفظ بها عليه، التي تخص دراستي في آثار مصر القديمة، أعثر على ضالتي، إنها إشارة عن **مظلمة** شخص يُدعى **بتيسي**.. وكأني بالفعل عدتُ إلى الحياة.. إنها ليست أحلامًا أتتني في الغيبوبة.. إنها حقيقة **وبتيسي** له وجود في التاريخ.. نعم.. تذكرتُ الآن.. لقد مرت أمامي هذه الصفحات من قبل.. يبدو أني قرأتُها ذات يوم، لكن أين هي **المظلمة**؟! هذه السطور القليلة الموجودة في المرجع لا تُمثل إلا القليل؟!

تأتي أمي ثائرة في لطف وهي تحمل اللابتوب من أمامي وتأخذني إلى

CamScanner ـبـ

مقعدي المفضل في الشرفة، وتعد لي فنجان القهوة الذي أعشقه من يديها. اقتنعتُ بتأجيل البحث حتى تمام الشفاء، ولكني لم أعلم أن تأجيل البحث كان أمرًا مُقدَّرًا لس كي أستكمل رحلتي التي بدأت ولا أعلم كيف ولماذا بدأت؟ وأين ستنتهي؟!

في تلك الليلة وكنتُ فيها أشعر بآلام مبرحة في كامل جسدي وخاصة العمود الفقري، إنه تعب ما بعد غياب تأثير الأدوية.. يبدو أن تأثير العقاقير على جسدي أصبح أقل.. أو أن تقليلها، بناء على توصية الطبيب كي يعمل الجسد، هو السبب في هذا الشعور بالتعب، فعند زيارتي الطبيب في المرة الأخيرة أخبرته بهذا التعب قال: «عادي يا أيمن.. وسوف تتعب خلال الأيام القليلة المقبلة أيضًا، لكن أيام وتعود إلى ما كنتَ عليه قبل الإصابة.. سوف أكتب لك نوعًا جديدًا من الحبوب كي تستطيع النوم في هدوء»، وأضاف إلى قائمة الأدوية دواء جديدًا اسمه (Multi relax). دخلتُ إلى غرفتي، وألقيتُ جسدي المجهد فوق السرير، وسرعان ما ذهبتُ في نوم غريب.

أشاهدُني بملابس وهي إزار طويل وحرملة من الكتان، في طريقي إلى ضيعة الشريف سمتاوي، قدماي تدقان الأرض الرملية بصندل من جلد، ولا شيء يسيطر على تفكيري غير طلب الشريف سمتاوي لي.. ترى لماذا أرسل في طلبي؟!

وصلتُ إلى المدخل المؤدي إلى المنزل، وكان العمال ما يزالون يعملون في

الأرض المحيطة، أحدهم يرعى عددًا من الثيران على مقربة، بينما يتسلق آخر شجرة نخيل شاهقة ويدق جريدها بفأس صغيرة في يده، وقد ربط جسده بحبل غليظ مصنوع من الألياف يدور حول ظهره، وقدماه مثبتتان في نتوءات الجذع، وتتساقط جريدات النخيل إلى الأرض بعد كل عدد من ضربات فأسه الصغيرة.

اقتربتُ أكثر فإذا بالشريف **سمتاوي** يجلس أسفل شجرة توت تفرش ظلها على مساحة واسعة من الجانب الأيسر للمنزل الذي يشبه قصر الحاكم. يقابلني الرجل، وعلى وجهه سؤال عمن أكون؟! فأخبرته بأني الطبيب باتار الذي أرسل في طلبه. فتعجب أكثر وهو يصافحني ثم قال: «ألستَ أنت الشاب الذي كان يرافق العجوز **بتيسي** قبل رحليه إلى الحيبة؟!» أجبته بنعم ثم قلت: «أحسبك تعلم هذا وما استدعيتني إلى هنا إلا لأمر يخص المبجل بتيسي!»، لكنه أشاح بوجهه وطوح يده في الهواء وهو يتحرك في اتجاه المنزل ويقول: «لا يعنيني أمر بتيسي في شيء، ومنذ أن رحل وأنا أشعر براحة عظيمة»، يصمت هُنيهة، ثم يتوقف ليواجهني قائلًا: «لكن الآلهة تأبى أن تتركنا نحيا في هناءة».. استفسرت بحركة من يدي، فأكل: «لقد حدث ما كدر الصفو وأقلقني، وهذا ما أرسلتُ في طلبك من أجله»، يتحرك وأسير خلفه وأنا لا أعلم إلى أين، أتحيَّن الفرصة لسؤاله عن سبب استدعائي، لكنه قال: «زوجتي بالداخل مريضة منذ عدة أيام، وفشل طبيبنا في علاجها، فأخبرني عن مهارتك صديق.. لذا أرسلتُ في

CamScanner

طلبك، تعالَ من هنا».

كانت زوجته فيما يبدو تعاني آلامًا شديدة في الجزء الأيسر من البطن وهو المكان الذي تضغطه بيدها اليسرى، وقد شحب وجهها، وجفَّ لعابها، وتحشرج صوتها وهي تصف لي ألمها حتى حد الاحتباس ولازمتها كحة خشنة استمرت وقتًا طويلًا، بدأتُ أجهز أعشابي، طلبتُ نارًا لتسخين الخليط المكون من زيت الخروع وأوراق النعناع الخضراء مع الحبة السوداء والكمون، خليط لا يستسيغه كثير ممن يعالجون المرضى؛ لأنه ثقيل للغاية مع مرارة نابعة من كثافة النعناع والكمون، لكن خليطًا مثل هذا كفيل بإذابة أي رواسب وتراكمات داخل البطن، أشفقتُ على حالها فأكثرتُ من غليان الخليط حتى امتزج تمامًا وتركته ليبرد بعض الوقت، كان يتأملني فيه الشريف سمتاوي وهو يتجاذب أطراف الحديث عن بتيسي وعائلته المثيرة للمشكلات منذ سنوات طويلة، وكيف انتهى أمر تلك العائلة، ولا سبيل لعودة شكايتهم إلى الوجود مرة أخرى، البلاد مثقلة بما تعانيه والحاكم لا وقت لديه لمثل هذه الترهات فجند الفرس في البلاد الشرقية يدمرونها. فهل هذا يحدث والعجوز بتيسي يأتي ليطالب بإعادة مجد أسرته!

همستُ بكلمات قليلة أن الرجل لم يطالب بأي مجد قديم، بل يطلب العيش في هدوء كما كان قبل أن أُرسَلُ أنا في طلبه كي يتحدث عن أسباب دمار **الحيبة**، وقد أُضطر إلى كتابة تلك الأسباب على ورقة بردي مرتين..

الأخيرة كانت تلك البردية التي كتبها هنا في منف وأعطاها إياك يا سيدي الشريف **سمتاوي**. فأشاح الرجل **برأسه** وهو يتأمل زوجته المسجى جسدها الضعيف فوق السرير. تحينتُ الفرصة وتصنعت البساطة وأنا أسأله: «ولكني بالرغم من ذلك لم أقرأ ماذا كتب بتيسي على إضمامة البردي التي حصل عليها منك يا سيدي وأعطاك إياها كي تسلّمها إلى الحاكم؟». فقال الرجل في بساطة وطرف إصبعه يختبر سخونة الخليط، فلما وجده قد برد حمله وتوجه ناحية زوجته ليطعمها القليل في تتابع بيد خبيرة.. «لم أعطِ الحاكم البردية، فليس من الكياسة أيها الطبيب أن توافق هوى كل سفيه.. لقد ألقيتها في الحظيرة الخلفية مع غيرها من مخلفات البردي التي قد نستخدم ظهرها ذات يوم، فأنت تعلم أن صناعة بردية بهذا الحجم تحتاج إلى جهد كبير». فقلت بسرعة: «هل لي أن أحصل عليها يا سيدي.. أقرأ ما كتبه بتيسي وأثار ضده كهنة آمون في الحيبة إلى هذه الدرجة». مط الرجل شفتيه في لا مبالاة قبل أن يعطي زوجته مقدارًا آخر من الخليط، يقول في هدوء: «هي لك أيها الطبيب الشاب.. اقرأ ما فيها، ثم استخدم ظهر البردية في كتابة وصفاتك الطبية هذه، لعل الناس تستفيد منها في زمن ما».

قبل أن تذهب الشمس إلى مستقرها الليلي يصطحبني الشريف سمتاوي إلى الحظيرة في الجانب الآخر من منزله، ويأمر رجلًا مسنًا يعمل في الحظيرة الخلفية. وقد ظهر الإرهاق الشديد على ملامحه بالبحث عن إضمامة بردي ضخمة ملقاة في أحد الأركان، يبحث العامل، بينما ننتظره

يا بـ CamScanner

أمام باب ضخم مصنوع من خشب الجميز، بعد قليل يظهر وقد حمل البردية، يرفع الشريف **سمتاوي** طرفها كي يتيقن منها ويهز رأسه قائلًا: «أحسنت يا رجل.. إنها هي.. كنتُ أعلم أنك ستجدها بسهولة؛ لأنها أكبر إضمامة بردي في المخزن، ولم أكن أفرط فيها لولا أن أمرني الحاكم».

حملتُ البردية وعُدتُ إلى المنزل، تناولتُ الطعام مع **ناميسا وبتاري** فقط لأن المبجل **نبسن** كان قد سافر بصحبة العمال لإحضار أحجار من الجنوب لنحتها تماثيل للحاكم. أغلقتُ الباب عليَّ، وبدأتُ على هدى ضوء شحيح، منبعث من فتيل غارق طرفه في الزيت، قراءة ما كتبه المبجل بتيسي منذ شهور هنا في هذه الحجرة، فقد بدأ الرجل حديثه منذ عهد الملك بسمتيك الأول، ويقول إن وظيفة كاهن آمون في مدينة **الحيبة** هي من أكبر الوظائف، وقد حصل عليها جده الأكبر **بتيسي** الأول.

ثم يكتب التاريخ فيقول[1]: إنه في السنة الرابعة من حكم بسمتيك الأول، ثم يبدأ المبجل بتيسي بكتابة تفاصيل أكثر دقة أقرأ فيها:

«آه.. ليت آمون يمد في وجوده..

تفاصيل أكتبها للحاكم عن الحوادث التي حدثت لوالدي..

في السنة الرابعة من حكم الملك بسمتيك العظيم،

---

(١) النص التالي هو نص كتبه بتيسي على برديته أو مظلمته وقد كانت شديدة الغموض فأعملنا فيها بعض التصرف كي يتضح المعنى.

كان الوجه القبلي موكلًا حكمه إلى ب عنخ (بتيسي عنخ شيشنق) رئيس السفن، من أول بيت الحراسة الجنوبي لمدينة منف وحتى أسوان، والمبجل ب عنخ كان ابن كاهن آمون رع ملك الآلهة، وكان قد أُحضِر إلى بيت الملك قبل أن يصير كاهنًا لآمون، وقد أصبح كاهنًا للإله «حِرشف» وكاهنًا أيضًا للإله سُبِك، وكان له زميل يدعى بتيسي بن يتورو، وهو الذي كان يفتش بالفعل على الإقليم الجنوبي من أول بيت الحراسة الجنوبي لمدينة منف حتى أسوان. وفي السنة الرابعة من عهد الفرعون بسمتيك ذهب ب عنخ رئيس السفن أمام الفرعون وقال له:

«يا سيدي العظيم.. ليتك تبقى مثل «رع».. لقد تقدمتُ في السن.. لي مطلب يا سيدي وهو شيء طيب، وليت هذا الشيء الطيب يُعمل لي أمامكم.. إن لي زميلًا يدعى بتيسي بن يتورو، وهو الذي يدير الإقليم الجنوبي بالفعل ويُنمي فضته وغلته. والحقيقة يا سيدي أن الإقليم الجنوبي غني جدًا بالفضة والغلال.. وقد ازدادت من واحد إلى واحد ونصف.. دع بتيسي بن يتورو يحضر أمامكم ولتقل له قولًا طيبًا، ولتخبره أن الوجه

القبلي موكل إليه كما هو موكل إليَّ، فهو في قدرته أن يجمع الضرائب منه».

وأُحضِرَ بتيسي بن يتورو أمام الملك الذي قال له: «إن رئيس السفن قد أخبرني عنك، فأي رجل مدهش أنت يا بتيسي! إني سأعطيك سفينة وعربة.. لتذهب إلى الوجه القبلي مفتشًا، فهذا أمر مني بذلك.

فقال بتيسي بن يتورو: يا سيدي العظيم هذا الأمر موكل إلى المبجل ب عنخ العظيم رئيس السفن. لكن الحاكم رد عليه بأنه أيضًا موكل إليه، وسوف يجعلون حسابها معك والتقارير ستُوجه إليك، فوافق بتيسي بن يتورو، وأمر الملك أن يُعطى هدايا من الذهب والكتان، وخرج ليمارس عمله في التفتيش على الإقليم الجنوبي حتى أسوان.

أما «ب عنخ» رئيس السفن فقد سكن في أهناسيا، وكان يُقدم إليه التقرير عن كل شيء حدث في الإقليم الجنوبي، وقد وصل بتيسي بن يتورو إلى مدينة الحيبة، وذهب إلى المعبد، وفتش كل مكان فيه.. وقد وجد معبد الحيبة على هيئة بيت كبير جدًا غير أن رجاله كانوا قليلين بحيث إنه لم يجد رجلًا واحدًا في المعبد غير كاهن «فاتح المحراب»،

ا بـ CamScanner

وهنا أمر بتيسي بن يتورو بإحضار هذا الكاهن وقال له: «يا رجل.. لا ينقصك السن.. فأخبرني أرجوك عن الكيفية التي خُربِت بها هذه البلدة؟!». فقال له الكاهن: «لم يكن هنا كهنة إلا كهنة آمون رع ملك الآلهة، ولكن أجدادك كانوا كهنة هنا، وإنهم جعلوا هذا المعبد فاخرًا، والضِّياع الوفيرة الموقوفة أصبحت ملكًا لآمون إله مدينة الحيبة، وهذا البيت كان يُقال عنه إنه أول مقر للإله آمون رع، وعندما حل زمن الشؤم والبؤس فُرِضَ على معابد مصر الكبيرة أن تدفع ضرائب.. وهذا ما حدث هنا.. فقد أُثقِلت هذه البلدة بالضرائب الباهظة، ولم يكن في مقدور الناس دفع الضرائب؛ ولذلك هجروها، وعلى الرغم من صدور أمر إعفاء المعابد الكبيرة في مصر من دفع الضرائب فقد أتوا إلينا قائلين: ادفعوا ضرائبكم حتى اليوم».

وخرج بتيسي بن يتورو وذهب إلى أهناسيا، إذ قابل رئيس السفن ب عنخ وأخبره بكل ما سمعه من تفاصيل حدَّثه بها الكاهن المسن الذي وجده في المعبد، وأخبره أن هذا الكاهن قال له: لم يكن هنا في معبد الحيبة رجل يشغل وظيفة كاهن إلا

كهنة آمون رع ملك الآلهة. فاندهش ب عنخ رئيس السفن وقال: بحياة رع ملك الآلهة.. هل كل هذا حدث فعلًا؟! وقبل أن يقسم له بصدق كلامه أكمل ب عنخ بأنه يصدق كل كلمة؛ لأنه سمع مثلها من قبل من فم الأشراف، ثم أمر بإحضار كَتبة المقاطعة والوكلاء، وأمر بإحضار الرجال الذين يمكن أن يستجوبهم، وحضروا.. وسألهم رئيس السفن ب عنخ عما حدث في مدينة الحيبة، فقالوا: هل من المعتاد أن تؤخذ ضرائب من مدينة الحيبة قبل أن يحل الزمن المشؤوم؟! لم يكن يُدفع أي شيء من هذه المدينة؛ لأنها من الأماكن العظيمة التي يجب أن تُعامل بشكل آخر، أما حينما حدث وجُمعت الضرائب منها خُرِبت. فغضب ب عنخ وأمر بضربهم ضربًا مبرحًا بسبب عدم إخباره بهذه التفاصيل من قبل، وقال لهم: لِمَ لم تخبروني بهذا من قبل، لِمَ لم تقولوا إنكم أُجبِرتم على دفع الضرائب؟!.

ثم قال لبتيسي بن يتورو: اذهب ومُر بأخذ كشف عن الأشياء التي دُفِعَت من مدينة الحيبة منذ أن

يا بـ CamScanner

صدر قرار دفعهم للضرائب، ومُر برد المبلغ إلى كهنة آمون صاحب المدينة.

وحضر بتيسي بن يتورو وأمر بإحضار الرجال المبجلين في المعبد وأعطاهم مائتي دبن[1] من الفضة النقية. وعشرين دبنًا من الذهب، وأمرهم أن يصنعوها أقداحًا من الفضة والذهب للإله آمون، وأمرهم بعمل محراب صغير لآمون على مقصورة الإله، ثم أمر الكهنة وفاتحي المحراب وعدد من الأفراد الذين لهم الحق في دخول المعبد أن يحضروا إلى الحيبة، حتى إن كان أحدهم قد غادر المدينة وسافر إلى مكان آخر، أمر بإحضارهم جميعًا، وأمر أن تُرد ضِياع الوقف التي وجد أنها كانت ملكًا لآمون، وأمر بإضافة ألف أرورا من الأرض لضياع الأوقاف الخاصة بآمون، وأمر أيضًا بوضع قربان وكتان أمام آمون وأمام أوزير.. وقد جعل مدينة الحيبة مدينة فاخرة مثل أحد معابد الجنوب العظيمة، وجعل أولاده كهنة للإله آمون في الحيبة، وأمر ببناء بيت له، طوله أربعون ذراعًا،

(١) الدبن هو وحدة موازين في مصر القديمة. الدبن الواحد يعادل ثلاث أوقيات. والأوقية تعادل ٢٨,٤ جرامًا وبالتالي يكون الدبن الواحد ٨٥ جرامًا على وجه التقريب.

CamScanner

وعرضه أربعمائة ذراع مقدسة، وله حرم حوله، ثم أمر بإقامة معبد باسمه.

ثم ذهب بتيسي بن يتورو إلى الجنوب كي يمارس عمله مفتشًا معينًا من الحاكم، حتى وصل إلى الفنتين وأمر بقطع لوحة من أحجارها العظيمة، وأمر أيضًا بقطعتين لتمثالين من حجر تمجي، وأمر بإحضارهما إلى الحيبة ثم أمر بإحضار صناع الجرانيت والحفارين وكُتاب بيت الحياة والرسامين، وأمرهم بنقش كل تفاصيل الأعمال الطيبة التي عملها في الحيبة على لوحة صخرية عظيمة، ثم أمر بصنع تمثاليه من حجر تمجي راكعين على أقدامهما، ونقش صورة آمون على حجر واحد منهما وصورة أوزير على حجر التمثال الآخر، وأمر أن يوضع واحد عند مدخل محراب آمون، وأمر أن يوضع الآخر عند مدخل محراب أوزير.

وذهب بتيسي بن يتورو إلى أهناسيا، ووقف أمام رئيس السفن ب عنخ، وقدّم له تقريرًا عن كل شيء فعله في الحيبة. وقال له ب عنخ رئيس السفن: «إن الإله حرشف ملك الأرضين يمدحك، وإن آمون سيعطيك جزاء حسنًا، وأنك تعرف حقيقة أن حصة كاهن آمون في الحيبة وتاسوع آلهته ملكي، وبما أنك

CamScanner

قد اخترتها مسكنًا لك، فإني سأكتب لك تنازلًا عن حصة كاهن آمون في الحيبة وتاسوع آلهته.

وقد أمر رئيس السفن بإحضار كاتب مدرسة كي يكتب عقد التنازل، وكتب تنازلًا لبتيسي بن يتورو عن حصة كاهن آمون وتاسوعه في الحيبة. وذات يوم سافر بتيسي بن يتورو جنوبًا، ووصل إلى مقاطعة البهنسا كي يفتش عليها، وهناك وجد كاهنًا لآمون رع ملك الآلهة.. وجده يرعى الماشية والإوَز وهي مما يحصل عليه المعبد من سكان المقاطعة، وكان هذا الكاهن الذي يرعى الماشية والإوَزّ يدعى حاروز، وحاروز هذا كان يُلقب بـ مدير خزانة آمون، فتعجب بتيسي بن يتورو من هذا! فكيف لكاهن من كهنة آمون وكيف لمدير خزانة آمون أن يرعى الماشية والإوز؟! فجعله يترك كل شيء، وأتى به معه إلى مدينة الحيبة، وجعله يأكل الطعام معه في بيته الذي كان قد أمر ببنائه فيها من قبل.. بل طلب بتيسي من زوجته وبناته أن يحضرن ليأكلن معهم، ويشربن الجعة.

وقد رأى حاروز ابنة بتيسي وهي فتاة جميلة تدعى نتمحي، فقال حاروز لبتيسي:» ليتك تجد عملًا لي

CamScanner

يا سيدي، فأنت كاهن للإله آمون رع ملك الآلهة، وكان والدي فيما مضى كاهنًا هنا في الحيبة، وسوف أحضر لك أوراق والدي حتى توافق أن تهبني ابنتك نتمحي زوجة».

فقال له بتيسي بن يتورو: إن ابنتي نتمحي ما تزال صغيرة، إن سنها لم يأتِ بعد، ولكن إن عملت أنت في وظيفة كاهن آمون رع ملك الآلهة فسأزوجها لك، وعملك هنا أفضل بكثير من أن ترعى الماشية في البهنسا، تأمل هذا البيت.. إنه بيت مدهش، وهو بيت لكاهن، وليست هنا طائفتان من الناس.. هنا فقط الكهنة والرجال الذين يدخلون المعبد.

وابتسم حاروز ووافق على ما قاله بتيسي، وقال له: «هذا حسن».

وفي السنة الخامسة عشرة من حكم الملك بسمتيك كان الوجه القبلي يفيض بالخير، وهذا الخير الوفير كان بتيسي بن يتورو يرسل منه الكثير إلى بيت السجل، وكانت فضته وغلته قد زيد فيها من واحد إلى اثنين وأخذ بتيسي منها الهدايا وذهب إلى الحاكم في ثياب أنيقة، وقد تعطَّر بزيت البشنين، وتأمله الملك بسمتيك قبل أن يقول له: هل هناك

CamScanner ـا بـ

شيء طيب تحدثني عنه يا بتيسي؟!

فقال له بتيسي: إن والدي كاهن آمون رع ملك الآلهة كان كاهنًا في معابد إقليم طيبة وكان أيضًا كاهن الإله حِرشف، وكان كاهن الإله سُبِك.

وفهم الملك ما يرمي إليه بتيسي، فنادى الكاتب المكلف بالرسائل وقال له: اكتب رسالة للمعابد التي سيقول عنها بتيسي بن يتورو الذي كان والده كاهنًا فيها، وقل: دع بتيسي كاهنًا فيها إذا كان ذلك ملائمًا.

وكتبت الرسائل للمعابد التي قال عنها بتيسي إن والده كان كاهنًا فيها، ثم انصرف بتيسي من أمام الملك بسمتيك، وسافر إلى الجنوب، وقد أصبح كاهنًا لـ«حرشف وسُبك»، وأيضًا لـ«آمون رع» ملك الآلهة، وكاهنًا لـ«أوزير» رب العرابة، وكاهنًا لـ«أنحوري» وكاهنًا للإله مين في مدينة قفط. وذهب بتيسي بن يتورو الذي يحمل كل هذه الألقاب ليفتش على المدن الشمالية حتى يصل إلى البهنسا، وشاهد حاروز وقد أتى بالأوراق والعقود التي تؤكد أن والده كان كاهنًا لآمون في الحيبة، وعلى ذلك أمر بتيسي أن يُنصب حاروز كاهنًا لآمون في الحيبة، وأعطاه ابنته نتمحي زوجة له. وطلب

من حاروز أن يقيما حفلة قبل السفر حيث قال له:
من المستحب يا حاروز أن نمضي يومًا نشرب فيه الجعة أمام آمون قبل أن نغادر الحيبة إلى طيبة.
وقد أمضى بتيسي اليوم في شرب الجعة مع أولاده ونسائه ومع حاروز الذي قال له: تأمل.. إنك سوف تذهب إلى طيبة وتتركني.. فماذا أصنع أنا هنا؟
فأجابه بتيسي: أقم أنت هنا في الحيبة، وسوف أذهب إلى الكهنة، وآمرهم أن يعملوا حسابك، وأطلب منهم أن يعطوك المبلغ الذي سيبقى، وأي باقٍ سيكون لك غير المبلغ الذي سيصلك، وعندما يوكل إليك الرعي الذي كنتَ ترعاه من قبل في البهنسا سآمر بأن يصلك وأنت مقيم هنا في الحيبة دون أن تتحمل مشقة السفر إلى البهنسا، تأمل يا حاروز.. إن حصتي هي حصة كاهن آمون بالإضافة إلى الست عشرة حصة الأخرى، ولكنك أنت الذي ستؤدي الخدمة لآمون وتاسوعه من الآلهة، وستُعطى خُمس دخل أوقاف آمون أيضًا، ولكن ينبغي لك أن تدفع الدين الذي سيتبقى عليك في طيبه لحساب الرعي.
هنا بكت نتمحي ابنة بتيسي وقالت لأبيها: خُذني

CamScanner بـ

معك إلى طيبة يا أبي. فضحك بتيسي وقال: ولماذا تريدين الذهاب إلى طيبة؟ سوف أتركك هنا في حياة تعيشينها أحسن من كل البنات، خذي لنفسك هذا البيت، وسمي لي حصة كاهن ترغبين في أن أتنازل لكِ عنها، فصمتت نتمحي، لكن زوجها حاروز قال: لتأمر أن يتم التنازل لها عن حصة كاهن خونسو.

وسافر بتيسي بن يتورو مع أولاده ونسائه إلى طيبة أما حاروز وزوجته نتمحي ابنة بتيسي فقد بقيا في الحيبة، وظل حاروز يخدم آمون وتاسوعه من الآلهة في حين كان خُمس دخل الأوقاف يصل إليه أيضًا.

ووصل بتيسي وأسرته إلى طيبة وأسكنهم جميعًا في بيت والده هناك.

وفي السنة الثامنة عشرة من عهد الملك بسمتيك الأول ذهب ب عنخ رئيس السفن إلى آبائه، وعندئذ أمر الملك بإحضار بتيسي ابن يتورو وقال له: الآن.. وكلتُ إليك أمر الإقليم الجنوبي كله.. فأنت مديره من الآن.

فقال بتيسي أمام الملك: بحياة وجهك يا مليكي، سيكون في مقدوري أن أدير شؤونه إذا وكل أمره إلى شريف آخر معي.

CamScanner

فقال الملك: أخبرني إذًا عن الشريف الذي ترغب أن يدير شؤون الجنوب معك؟! فقال بتيسي: إن المتوفَّى العظيم ب عنخ له ابن أخ يدعى سمتاوي تفنخت، وهو رجل من حاشية بيت الملك، رجل مدهش للغاية، فلتأمر يا سيدي الملك أن توكل إليه هذه الوظيفة.

وقد سأل الملك حاشيته ورجاله المقربين عن سمتاوي فوافقوا قائلين: «إنه رجل مدهش». وعلى هذا فقد نَصَّبَ الملك سمتاوي تفنخت رئيسًا للسفن، ووكل إليه أمر الوجه القبلي كما كان الحال مع ب عنخ.

وذهب سمتاوي إلى أهناسيا بينما طلب من بتيسي بن يتورو أن يسافر إلى الجنوب كي يفتش وألا يدع أي شيء إلا ويفتش عليه، لأنه سوف يبقى في أهناسيا حتى يُدفن ب عنخ رئيس السفن.

وذهب بتيسي جنوبًا كي يفتش كما كان يفعل قديمًا، بينما بقي سمتاوي يتابع مراسم الدفن في احتفال استمر سبعين يومًا حتى دُفن في مقبرته في بيت أوزير (أبي صير). وعَمِلَ بتيسي بن يتورو على أفضل ما يكون، وكان يسجل الحساب لكل عام، وقد زاد الفضة والغلة عن ذي قبل.

وفي السنة التاسعة عشرة من حكم بسمتيك الأول عمل حساب الأرض، وذهب به إلى الملك الذي قال له: هل تريدني أن أصدر أي أمر يا بتيسي؟ فقال بتيسي: أريد أمرًا واحدًا يا سيدي الملك.. إنني رجل مرت عليه السنون.. لقد أصبحتُ رجلًا مسنًا.. فلتأمر بانصرافي يا سيدي.. لم يعد في استطاعتي تحمل مشقة السفر والتفتيش وتعبهما، هذا هو الأمر الذي أريده منك يا ملكنا المبجل.

وتأمله الملك برهة قبل أن يسأله: هل لك ابن يعرف الإدارة يا بتيسي؟ فقال بتيسي: إن خدم الملك الذين يعرفون الإدارة كثيرون، وإنهم سيقومون بالإدارة تحت يد رئيس السفن سمتاوي تفنخت، ولن يدعوا شيئًا يتلف.

فقال الفرعون: هل هناك متاع تريده يا بتيسي؟ فقال بتيسي: لا يا سيدي الملك.. ليس هناك شيء طيب لم يأمر الفرعون بعمله لي.

فطلب الملك أن يحضر سمتاوي تفنخت رئيس السفن، وحينما وصل قال له: تدبر هذا الأمر الذي يتحدث به بتيسي، إنه يقول: إني متقدم في السن.. دعني أعتزل العمل، فإذا صرفته، فهل سيكون في

ـيا بـ CamScanner

مقدورك إدارة الوجه القبلي؟ فقال سمتاوي: دعه يعتزل العمل يا سيدي العظيم، إنه والدنا، فلنرفق به كي يمضي بقية حياته في راحة، وعلى أية حال سيكون معنا كأحد حراسنا إن احتجنا إليه.

ينصرف بتيسي من أمام الفرعون، ويسافر جنوبًا إلى الحيبة، ثم يصلي أمام آمون، ويأمر بعمل قربان من البخور وقربان من الشراب أمام آمون، ثم ينقل بتيسي إلى بيته الموجود في الحيبة الذي يعيش فيه ابنته نتمحي وزوجها حاروز، ويخبرهما بأنه أعفى نفسه أمام الملك.

تظهر علامات الخوف على وجه حاروز وهو يقول لبتيسي: لا تجعل الكهنة هنا يعرفون ذلك؛ لأنهم خبثاء. فقال بتيسي: سآخذك إلى سمتاوي رئيس السفن والشيء الذي لا يعجبك أخبره عنه. وأرسل بتيسي إلى إخوته، وأمرهم بتطهير أنفسهم أمامه، وقد أمضى أيامًا يقدم فيها الولائم قبل أن يسافر إلى طيبة.

وبعد ما يزيد عن عشر سنوات وبالتحديد في السنة الواحدة والثلاثين من حكم الملك بسمتيك، في برمهات وهو شهر الحصاد، أحضرت الغلة التي

يا بـ CamScanner

تم الحصول عليها من ضياع وقف آمون في الحيبة، ووضِعَت أمام المعبد، وتجمع الكهنة عند المعبد وقالوا: بحياة رع.. ليخبرنا أحد.. هل سيستمر في أخذ خُمس الأوقاف المقدسة هكذا؟ إن هذا الطريد الجنوبي الذي يُدعى حاروز في قبضتنا.

ثم كلفوا بعض الشبان من الأخدان الخبثاء قائلين لهم: تعالوا أنتم بعصيكم في المساء، وارقدوا فوق هذه الغلة، وادفنوا عصيكم فيها حتى الصباح.

واتفق أن كان ولدان لحاروز قد كبرا، وفي الصباح أتى الكهنة إلى المعبد ليقسموا الغلة بين طوائف الكهنة، وأتى ولدا حاروز إلى المعبد قائلين: دعوا الخمس المخصص لنا. وهنا سحب الكهنة عصيهم المدفونة في الغلة، وأحاطوا بولدي حاروز وضربوهما، فهرب الولدان إلى المكان المقدس الذي كان أمامهما داخل المعبد، ولكن الكهنة جروا خلفهما حتى أمسكوا بهما عند مدخل محراب آمون وضربوهما ثم ذبحوهما وألقوهما في حجرة مخزن بداخل السور الصخري.

وكان حاروز خارج مدينة الحيبة.. كان في الغرب وبالتحديد في بلدة «تكوهي».. وقد وصل الخبر إلى

CamScanner ـبا

أمهما نتمحي، فكانت تصرخ، وقد أغلقت عليها الباب خوفًا من بطش الكهنة، وسمع حاروز أن ولديه قد ذُبحا فمزق ثيابه من الحزن، وذهب إلى رئيس شرطة تكوهي وأخبره بالأمر وهو يبكي بكاء مريرًا، فجمع رئيس الشرطة جنود تكوهي، وأخذهم إلى الحيبة مسلحين بالدروع والحراب، ووضع حرسًا على البيت الذي تسكنه نتمحي. بينما سافر حاروز في ثياب الحداد إلى طيبة، وذهب إلى بتيسي، وأخبره أن حفيديه قد ذبحا، وأن ابنته تموت من الحزن والخوف في الحيبة، فأخذ بتيسي أفراد أسرته وركب سفينته إلى الحيبة، وعندما وصلها لم يجد فيها أي رجل إلا رجال رئيس الشرطة الذين يحرسون بيت نتمحي، فقد فرّ أهلُ المدينة كلهم، فذهب بتيسي إلى المعبد، ولكنه لم يجد في المعبد غير كاهنين مسنين وفاتح المحراب.. وجدهم يختبئون في المكان المقدس خوفًا من بتيسي، فوضع عليهم رجالًا لحراستهم، وأرسل رسولًا إلى أهناسيا لمقابلة سمتاوي تفنخت رئيس السفن ليخبره بتفاصيل ما حدث، وأمر رئيس السفن ضابط الجنود بالحضور وقال له: اذهب واقبض على كل رجل يشير نحو بتيسي.

CamScanner

وأتى الضابط إلى الحيبة وأشار بتيسي نحو الكاهنين، فألقيَ القبضُ عليهما، وسافر معهم إلى مدينة الملك، وتحدث أمام الملك بكل شيء حدث، ووصف للملك كيف ذبحوا حفيديه، فأمر الملك بتوقيع العقوبة على الكاهنين. وسافر بتيسي من عند الملك إلى أهناسيا، وقابل سمتاوي الذي قال له: لقد سمعت بالأشياء التي عملها هؤلاء الأشقياء وحثالة رجال الحيبة الذين جعلتهم أنت أغنياء حينما كنت تقوم بعملك وتزيد الفضة والغلال. فبكى بتيسي وهو يقول: «إن الذي يُطعم الذئب سيموت»، وبحياة رع هذا ما أصابني من كهنة آمون في مدينتي.

وكان حاروز يرافق بتيسي في أهناسيا، فأخذه بتيسي من يده وأحضره أمام سمتاوي رئيس السفن، وقال له: هذا هو والد حفيديَّ. فلتأمر رئيس شرطة تكوهي بالمحافظة عليه. فقال سمتاوي: سأكلف كل رجل تابع لي أن يقبض على أي رجل في الحيبة لأجعله يموت في السجن هنا في أهناسيا. لكن بتيسي قال: لا يا سمتاوي.. لا تفعل ذلك.. ما حدث قد حدث، وليس كل رجال الحيبة أشقياء خبثاء، وأنا لن أعود إلى الحيبة إلا إذا زودتها بما يلزمها،

CamScanner

وأعدت إليها رجالها.

يندهش سمتاوي ويقول: يبدو أن حبك لمدينة الحيبة لم ينقطع بعد. فقال بتيسي: إنها بلدة رائعة، وآلهتها غاية في العظمة، وهي بيت يأتي إليه آمون رع ملك الآلهة الإله العظيم.. فإن الأشياء المقدسة التي عرفتها فيها عظيمة.

وصرف رئيس السفن بتيسي، فذهب جنوبًا إلى الحيبة، وأمضى فيها بضعة أيام، وأتى رئيس الشرطة ومعه خمسون محاربًا، ووقف أمام بتيسي، وقدم الطاعة وهو يقول: ماذا حدث يا سيدي المبجل بتيسي وأخبرتَ به رئيس السفن حتى يُرسل إليَّ قائلًا: دع الحراس يقيمون على أهل مدينة الحيبة؟ ألستَ أنت الذي أطعمتنا هنا من قبل؟ فمنذ ذلك الوقت الذي سمعتُ فيه أن هؤلاء الكهنة قد أحدثوا ضررًا ألم آتِ في الحال، وأضع حرسًا حول هذا البيت؛ لأنهم كانوا يضايقون هذه السيدة العظيمة.. وإذا قلت أنت يا سيدي بتيسي تعالَ إلى طيبة، فهل يمكنني أن أرفض؟!

فقال له بتيسي: إن آمون سيجعلك تحيا.. وقد جعلتُ رئيس السفن يرسل إليك كي يمنع أي مسؤوليات

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

أخرى توضع على عاتقك.. افعل هذه المأمورية لي.. اذهب إلى البهنسا وإلى حار تاي، وابحث عن رجال الحيبة الفارين واجمعهم في مكان واحد.. أي مكان يريدون أن يجتمعوا فيه، وسوف أذهب أنا إليهم كي أحلف لهم يمينًا ألا أجعل أي شيء يُفعل ضدهم، وسأقول لهم: إن الضرر الذي عملتموه قد جعلتُ عقابه هو العقاب الذي ناله الكاهنان المسنان، فهل من الصواب أن أترك باقي هؤلاء الشبان يُذبح وتُخرب المدينة؟!

وأخذ بتيسي يد رئيس الشرطة وقاده إلى داخل محراب آمون، وأقسم أمامه قائلًا: إن كل الرجال الذين ستحضرهم إليَّ إذا أتوا إلى الحيبة، فإني لن أسمح بأذى يصيبهم، وإني سأربط نفسي بيمين لهم ألا أجعل ضررًا يلحق بهم، لأنه لا يمكن أن أتركهم يقولون: إن رئيس الشرطة قد بحث عنا ليلحق بنا أذًى.

وانبطح رئيس الشرطة على الأرض وقدم الطاعة، ثم خرج إلى مقاطعة البهنسا ومقاطعة الأشمونين[1] ومقاطعة حار تاري، وجمع رجال الحيبة الفارين،

---

(١) الأشمونين قرية بمركز ملوي بمحافظة المنيا.

وأتى بهم إلى حار تاري وهو المكان الذي اتفقوا عليه، وذهب إلى بتيسي بن يتورو وقال له: لقد وصلت حتى الأشمونين، ولم أترك رجلاً من الحيبة إلا أحضرته إلى حار تاري، وقالوا: نريد أن يكون هناك قسمٌ أمامنا، ونحن لا نريد المبجل بتيسي؛ لأنه رجل مسن.. ولكن نريد ابنه أسمتو يأتي ويربط نفسه بيمينٍ لنا، وإذا لم تجد أسمتو فليأتِ أيُّ شاب آخر من عائلته. فتعجب بتيسي وقال: بحياة آمون إني أنا نفسي سوف أذهب معك إليهم.

وسافر بتيسي إلى حار تاري وأقسم يمينًا إلى الكهنة وفاتحي المحراب ولكل رجل من الحيبة، وقال لهم: إني لن أجعل أي شيء يُعمل ضدكم بسبب ما مضى. وعاد بتيسي إلى الحيبة مع كل رجالها الذين وجدهم، وكذلك أتى بكل نسائهم وأطفالهم، وأمر بتيسي بجمع كل الكهنة عند المعبد وقال لهم: والآن انظروا.. هل فعلتُ شيئًا مما كنتم تخافونه؟ هل استخدمتُ سلطتي ضدكم في يوم ما؟ لقد قلتم لي: إن أربع حصص هي التي أعطيها الكاهن حور سيد أهناسيا وكاهن أنوبيس سيد حار تاري، وقلت لكم: هل ذلك ما ستعطونني إياه؟ فقلتم:

إن حصة واحدة أعطيت تُعد حصن كاهن، وقلت لكم: هذا ما تعطونه، إن لي حصة أربعة، التي تعد نصيب كاهن آمون، ولي خلاف ذلك ست عشرة حصة باسم الآلهة الذين كنت كاهنًا لهم، فيكون المجموع عشرين حصة، وعدد الكهنة الذي تؤلفونه هو عشرين لكل طائفة، وكل طائفة كهنة تؤلف خمس الوقف المقدس الذي يعادل مائة حصة.

عندئذ رفع الكهنة ملابسهم حتى رقابهم علامة الخضوع التام وانبطحوا على الأرض أمام بتيسي وقالوا: نحن لا نعلم أنك يا سيدنا المبجل الذي أنعمت علينا بنعمة الحياة، وجعلتنا نعيش عندما أسست مدينة الحيبة وجعلتها مساوية لبيوت مصر العظيمة، وهؤلاء الشبان الذين حادوا عن الطريق وارتكبوا جريمتهم البشعة فلتأمر بإحضارهم ووضعهم في أتون مشتعل.

فقال بتيسي: إن الأعمال الصالحة التي عملتها أمام آمون.. لم أعملها من أجل أحد منكم ولا من أجل آبائكم، بل عملتها من أجل آمون، وهؤلاء الكهنة الذين ذبحوا حفيدي أليس في مقدوري أن أجعلهم يحضرون! لكني قد أمرت بإيقاع العقاب

CamScanner ـب

على آبائهم، وقد خلَّيتُ سبيلهم وتركتهم للإله كي يحاسبهم.. تأملوا.. لقد تغلبتم عليَّ حتى عندما كنتُ في قوتي.. وقد يأتي زمن يكون ابني هنا ويكون أضعف منكم، فهل تطردونه وتأخذون أنصبته التي في هذه المدينة، هل يعرف أحد الغيب؟! ثم.. هل نسيتم هذه اللوحة التي أمرتُ بإقامتها ونُقِلت إلى البيت المقدس؟ لقد أمرتُ بعملها قبل أن أصبح كاهنًا لآمون، وقبل أن يُكتب تنازل من أجلي عن أنصبة الكهنة في هذه المدينة.. هل سيأتي اليوم الذي تقولون فيه إني لم أكن كاهنًا بالرغم من وجود هذه اللوحة من سنوات طوال؟!

فأرخى الكهنة أعينهم، وقالوا لبتيسي: سنفعل أي شيء تقوله. فقال لهم بتيسي: سآمر بعمل لوحة على الطوار الحجري في الطريق الذي يمر فيه آمون وهو طريق الكباش المقدسة، وسوف أضع الأعمال الطيبة التي أنجزتها لآمون عليها، وسوف أضع وظائفي الكهنية عليها أيضًا. فقال الكهنة: إن كل الأشياء التي توافق صالحك يا سيدنا المبجل دعها تنجز، فإننا نعيش برضاك وموافقتك، وإذا كنتَ ستأمر بعمل اللوحة فلتأمر الآن.

CamScanner تم مسحها ضوئيا بـ

وأمر بتيسي بإحضار كهنة بيت الحياة والرسامين، وأمر بنقش لوحة على الطوار الحجري وقال: سيراها الكهنة والأشراف الذين سيأتون للتفتيش على المعبد.

ثم ركب بتيسي إلى الشاطئ، وقال: سأقلع من هناك إلى مدينة طيبة، لكن نتمحي ابنته وقفت أمامه وهي تبكي وتقول: إن الولدين اللذين ذُبحا لا يزالان في المعبد ولم يُؤبَّن بهما بعد. فذهب بتيسي إلى المعبد وأمر بالبحث عن الولدين وقد وُجدا في حجرة مخزن في المكان المقدس، فأمر بإحضارهما ووضع عليهما كَتانًا وأقيمت لهما محزنة عظيمة في المدينة.. ودُفِن الولدان.

بعد ذلك كان بتيسي على وشك ركوب السفينة لكن ابنته نتمحي بكت أمامه مرة أخرى قائلة: خذني معك وإلا فهؤلاء الكهنة سيذبحونني. فقال لها: لا يمكنهم يا ابنتي أن يفعلوا ذلك.. إنهم يخشونك، وسيظلون يخافونك. فقالت نتمحي: إذا كنتَ تريد أن ترحل فلتترك أخي أسمتو يمكث هنا معي ويخدم آمون.

وعلى ذلك أمر بتيسي ابنه أسمتو أن يبقى في

CamScanner

الحيبة، وقال له: خذ لنفسك نصيب كاهن آمون في الحيبة، ونصيب تاسوع آلهته. ثم أمر بإحضار بردية وكتب تنازلاً لأسمتو عن وظائف كاهن آمون في الحيبة وتاسوع آلهته.

وبقي أسمتو في الحيبة مع أخته نتمحي وزوجها حاروز. ومُنِحَ أسمتو خمس الأوقاف المقدسة لآمون، حتى أتى اليوم الذي ذهب فيه إلى سمتاوي تفنخت رئيس السفن وقال له: إني أنا المنصب في الحيبة لأخدم آمون وتاسوع آلهته، وقد كتب لي والدي تنازلاً عن هذه الحصة، وعلى ذلك أمر رئيس السفن بإعطاء خاتم من الذهب لأسمتو وقال له: أنا لم آمر بإعطائك كتانًا؛ لأن كل كتان آمون تابع لك.. اذهب يا أسمتو ولا تنسَ أن تخبرني عن أشغالك في كل فرصة.

وقد أمضى أسمتو بن بتيسي بن يتورو الأيام التي قضاها في الحياة وهو يخدم آمون وتاسوع آلهته، ويحصل على حصة الخمس من أوقاف آمون، واستمر ذلك حتى مات، وخلفه ابنه بتيسي بن أسمتو في خدمة آمون وتاسوع آلهته، وقد مُنِحَ خمس الأوقاف المقدسة أيضًا.

ا بـ CamScanner

وفي السنة الرابعة من حكم الملك نفر آب رع أُرسِلت الرسل إلى المعابد الكبرى في الوجهين القبلي والبحري قائلين: إن الملك سوف يذهب إلى أرض خارو (سوريا)، فدعوا الكهنة يأتوا مع باقات آلهة مصر ليأخذوها إلى أرض خارو، وهي الأشجار والنباتات النامية التي تحمل إلى سوريا لتقدم قربانًا هناك، وتُزرع في المعابد المصرية التي أسست على أرض البلاد الساحلية في سورية وفينيقيا،

واجتمع الكهنة في الحيبة، واتفقوا على أن يقولوا لبتيسي بن أسمتو: إنك أنت الذي تصلح للذهاب إلى أرض خارو مع الفرعون، وليس هنا رجل في هذه المدينة يمكنه أن يذهب إلا أنت، فأنت كاتب بيت الحياة، ومُدرَّب على الكتابة المقدسة والأدب، ولا يوجد شيء يسألونك عنه إلا وله عندك جواب سديد؛ لأنك كاهن آمون وكهنة الآلهة العظام لمصر هم الذين سيذهبون إلى أرض خارو مع الملك.

لقد أغروا بتيسي ليذهب إلى هناك مع الملك، فجهَّز نفسه للسفر وسافر مع الملك ولم يصحبه أي رجل إلا خادمه وحارس يدعى «وسير موسى»، ولما عَلِمَ الكهنة أن بتيسي بن أسمتو قد سافر مع الملك

بالفعل، وأن مدينة الحيبة لا يوجد فيها كاهن آمون، ذهبوا إلى حاروز بن حارخبي (وهو غير حاروز بن بفتوعوباستي زوج نتمحي ابنة بتيسي بن يتورو) وهو كاهن الإله سُبِك وحاكم أهناسيا، وقالوا له:

«إن نصيب كاهن آمون في الحيبة من المفروض أن يكون هو نصيب الملك، وأن يكون مِلكًا لك أيها المحترم حاروز، وقد استولى عليه بتيسي بن يتورو من عشرات السنين، وإن هذا النصيب في قبضة ابن ابنه بتيسي بن أسمتو حتى اليوم».

فقال حاروز: وأين هو الآن؟. فقالوا: لقد جعلناه يذهب إلى أرض خارو مع الملك.. فتلدع ابنك بتاح نوفي يأتِ إلى الحيبة لأجل أن نكتب له تنازلاً عن نصيب كاهن آمون.

أرسل حاروز ابنه إلى الحيبة، وكتبوا له تنازلاً عن نصيب كاهن آمون في الحيبة، ثم قسموا الستة عشر نصيبًا الأخرى أربعة أقسام بين طوائف الكهنة الأربع، كل طائفة أربعة أنصبة، ثم جعلوا بتاح نوفي يعطر يديه ويؤدي صلاة لآمون.

وعاد بتيسي بن أسمتو من أرض خارو، ووصل إلى

CamScanner بـ

الحيبة وعلم بكل شيء فعله الكهنة وهو في رحلته، فأسرع شمالاً إلى بيت الحاكم، غير أنه عومل باحتقار وقيل له: «ابتعد من هنا.. إن الملك مريض ولا يخرج من فراشه منذ عودته من تلك الرحلة المشؤومة».

وعلى ذلك قدم بتيسي بن أسمتو شكواه إلى القضاة، فأحضروا بتاح نوفي بن حاروز ودُونت اعترافاتهما في بيت المحاكمة قائلين: إن هذا النصيب الذي استولى عليه بتاح نوفي كان لوالده حاروز سيد أهناسيا، وهو من الأصل نصيب الملك.

أمضى بتيسي عدة أيام في بيت المحاكمة مناضلاً مع بتاح نوفي، ولكنه لم يحصل على أي شيء، فسافر حتى وصل إلى طيبة وهو يقول: سوف أذهب إلى إخواني في طيبة وهم الذين يعرفون كل شيء عن حق عائلتي الذي ورثته. وقد وجد هناك أولاد بتيسي بن يتورو (وهم أعمامه وعماته وأولادهم الذين كانوا كهنة آمون في طيبة منذ أن سافر والدهم إلى هناك وترك أسمتو ونتمحي في الحيبة)، وأخبرهم بكل شيء حدث له مع كهنة آمون في الحيبة، فأخذوا بتيسي وجعلوه يقف أمام كهنة

آمون ويخبرهم بكل شيء.

بعدها قالوا له: ماذا تريدنا أن نفعل.. هل تعلم أن تقريرًا وصلنا يفيد بأن الملك نفر آب رع قد ذهب إلى آبائه* [1]. لقد كنا نود أن نقف إلى جوارك ونرسل إلى الملك عن كل ما فعله كهنة آمون ضدك لكنه توفي، وعليك أن تقدم شكوى إلى هؤلاء القضاة الذين أعطوا اعترافاتهم كتابة في بيت المحاكمة ضد كاهن سُبِك هذا الذي يأخذ من نصيبك؛ لأنه لا يمكن أن يكون في مقدورهم الانتهاء من قضيتك في هذه المدة من الزمن.

وأمر الكهنة بإعطاء خمسة دبنات من الفضة إلى بتيسي وأعطاه إخوته خمسة دبنات أخرى ليكون المجموع عشرة دبنات من الفضة، وقالوا له: اذهب إلى بيت المحاكمة لتقف ضد هذا الرجل الذي يأخذ نصيبك، وعندما تنفق هذه الفضة تعالَ لنعطيك فضة أخرى.

ذهب بتيسي بن أسمتو شمالاً، ووصل إلى الحيبة،

(١) ذهب إلى آبائه تعني توفي وانتقل إلى جوار آبائه العظام الذين أصبحوا آلهة في العالم الآخر).

وقال له الرجال الذين وقفوا معه: لا فائدة من الذهاب إلى بيت المحاكمة، إن خصمك أغنى منك، وإذا كان في يدك مائة دبن من الفضة فإنه سيهزمك. وأقنعوا بتيسي بألا يذهب إلى بيت المحاكمة، ولم يدفعوا أي شيء.

وفي السنة الخامسة عشرة من عهد الملك أمسيس أتى المشرف على الأرض المنزرعة إلى أهناسيا وأمر كتاب المقاطعة بالحضور وسألهم: هل يوجد دخل يخص «بتاح أرتايس» في هذه المقاطعة؟، فأجابه بفتوعو باستي وهو كاتب المقاطعة الذي لم يكن كاهنًا في الحيبة: لا توجد ضرائب تخص بتاح أرتايس في هذه المقاطعة، ولكن إذا كنتَ تريد إلحاق الضرر به، فإنه يمكنني أن أفعل شيئًا سيجعله أكثر حنقًا. فقال المشرف على الأرض المنزرعة: وما هذا الشيء؟!

فقال بفتوعو باستى: لا يوجد رجل على الأرض تابع لـ بتاح أرتايس إلا كهنة آمون في الحيبة وهم إخوته الذين نصَّبهم كهنة لآمون، وتوجد تحت أيديهم جزيرة مساحتها ٤٨٤ أرورا، ولكنها في الحقيقة تبلغ ألف أرورا، وعندما أحضر تمثال الملك أمسيس إلى بلدة الحيبة، وظَّفَ بتاح أرتايس كاهنًا للتمثال،

CamScanner

وأمر بملكية مائة وعشرين أرورا لصالح تمثال الملك هذا، والحقيقة أن بتاح أرتايس أخذ المئة والعشرين أرورا لنفسه، ولم يدع أرورًا واحدًا للتمثال.

وبعد أن سمع المشرف على الأرض المنزرعة هذا الحديث أقلع إلى الجزيرة المذكورة في الحيبة، وأرسل سفينته عند نهاية هذه الجزيرة، وأمر المسّاحين بالذهاب إلى الشاطئ والدوران حول الجزيرة لقياسها، وضم إليها الرمال والأشجار، فوصلت مساحتها إلى ٩٢٩ أرورا، هنا أخذ منهم الجزيرة كاملة، أما المائة والعشرون أرورا التابعة للتمثال فكانت في حقل شلك، واستولى عليها أيضًا.

ثم نادى المشرف ضابط الجنود المسمى مانانو واح آب رع وقال له: دع كهنة آمون في الحيبة يعطوا أربعة آلاف مكيال من القمح من محصول هذه الجزيرة التي كانت في قبضتهم.

وأتى الضابط إلى الحيبة، واستولى على مخزن الغلال، وأمر بحمل كل الغلة التي وجدها في المخزن وفي البيوت إلى مدخل المعبد، وعيّن عليها حراسة، وعندئذ سافر الكهنة إلى منف ليبحثوا عمن ينقذهم ويعيد إليهم هذه الغلال التي كانوا

يأخذونها كل عام، ونزلوا عند الكاهن فاتح محراب بتاح الذي قال لهم: لا يوجد رجل تابع للملك يمكنه أن يحميكم إلا خُلخُنس بن حور وهو رجل يصل صوته إلى الحاكم وإن كان في مخدعه.

فطلب الكهنة من فاتح المحراب أن يذهب ليحضر حارحبي خادم خلخنس وعندما أتى به قابله الكهنة وقالوا له: إذا دافع عنا خلخنس في قضيتنا وجعل هذه الجزيرة التي يملكها آمون من نصيبنا كما كانت، فإننا سوف نعطيه ثلاثمئة إردب من الغلال وألفي هُنًّا[1] من زيت الخروع. وخمسين هُنًا من العسل المصفَّى، وثلاثين إوزة حصةً سنوية له.

فذهب الخادم إلى خلخنس وأخبره بما حدث، لكن خلخنس قال: إن فتحة أفواه هؤلاء الجنوبيين كبيرة، فأقوالهم أكثر من أفعالهم، دعهم يدفعوا لي هذه السنة، وإلا فإنهم عندما يعلمون أنني قد خلصتهم لن يدفعوا أي شيء، وأخبرهم أني أعمل كاهنًا للإله حور صاحب مدينة بوتو، وأن لي أخًا يعمل كاهنًا للإله حور، فليكتبوا لأخي تنازلاً عن وظيفة كاهن من معبدكم، واكتبوا له ما يثبت أنهم سيعطونه هذه الأشياء كل عام

(١) الهُن يساوي نصف اللتر.

حتى يمكنني أن أدافع عنهم في قضيتهم.

واتفق أن نكو موسى بن بتاح نوفي كاهن سُبك كان في الحيبة، فذهب إليه الكهنة وقالوا له: إن ضِياع وقف آمون الحيبة قد استردها المشرف على الأرض المنزرعة، وضمَّها إلى الأرض الصالحة للزراعة التي تدفع الضرائب للفرعون، هل في مقدورك أن تحمينا؟ لأنه إن لم تحمِنا فإننا سنخسر الكثير؛ لأننا بحثنا عن شريف من المقربين للملك ليقف معنا، فطلب منا تنازلاً عن نصيب كاهن آمون، وأنت تعلم أننا كتبنا لوالدك من قبل تنازلاً عن نصيب كاهن آمون، وذلك على الرغم من أنه لم يكن له فيه نصيب حقيقي، وقد أعطيناها إياه لأنه سيحمينا.

فقال لهم نكو موسى: اذهبوا واكتبوا لأي رجل يحميكم تنازلاً عن نصيب كاهن آمون وسُبك معًا، وأحضروا لي البردية التي ستكتبونها حتى أوقِّع عليها. وذهب الكهنة إلى خادم خلخنس وكتبوا تنازلاً عن نصيب كاهن آمون إلى بسمتيك مِن مبي شقيق خلخنس الذي أخبرهم به، بعدها قدموا البردية الموقعة إلى خلخنس فاطمأنَّ قلبه وذهب إلى الحاكم وقال أمامه: إن والدي يعمل

CamScanner ـبـا

كاهنًا لآمون في الحيبة، وما حدث يا سيدي الحاكم أن المشرف على الأرض المنزرعة ذهب إلى الحيبة، واستولى على ضيعة هناك مخصصة أرضَ وقفٍ للمعبد، وأمر بالاستيلاء على كل شيء في المدينة حتى ضجَّ أهلها وهجرها الكهنة.

فأمر الحاكم بإحضار المشرف على الأرض المنزرعة الذي وقف أمام الحاكم في خشوع وقال: يا سيدي العظيم لقد وجدتُ جزيرة في النهر تابعة للحيبة، وحينما سألتُ كتاب المقاطعة عنها قالوا إن مساحتها ألف أرورا.. بحياتك يا سيدي الحاكم لا يليق أن تعطي الآلهة هذه الضيعة، بل اللائق أن تكون لك يا سيدي الفرعون.. فضريبتها عشرون مكيالاً من الغلة، وقد سألتُ الكتاب: هل هذه الجزيرة ضمن أملاك آمون الحيبة؟ فقالوا لي: إن ٤٢٤ أرورا قد خُصصت لآمون. فقلتُ لكهنة آمون: تعالوا حتى تأخذوا غيرها ملاصقة لضيعة أوقافكم ولكنهم لم يصغوا إليَّ، أما عن كاهن آمون الحيبة فقد وجدتُ في حيازته ضيعة لبيت عظيم جدًّا وفيه عثرتُ على ثلاثة وثلاثين مكيالاً من الغلة مخصصة للإله آمون يوميًا.

CamScanner

وهنا تحدث خلخنس، الذي حصل على الرشوة من الكهنة، وإن كانت باسم أخيه، في مواجهة المشرف على الأرض المنزرعة أمام الحاكم، والنهاية أنه لا يمكن نزع الجزيرة من يد المشرف، لكن خلخنس جعله يكتب رسالة بوحي إلهي بها تُعطى أربعمائة وأربعة وثمانين أرورا (المخصصة لضيعة وقف آمون على الجزيرة) بديلاً لها في أرض المدينة، وأيضًا تعهَّد بإعادة الغلال التي أُخِذَت من الحيبة.

وقد جاء شقيق خلخنس المدعو بسمتيك من «مبي» وعطَّر جسده، وأدى الصلاة إلى آمون، وجهزوا له الأشياء التي اتفقوا عليها من قبل، فقال لهم: إن البردية التي كتبتموها لي من أجل نصيب كاهن آمون، أخذتها إلى بيت المحاكمة، وقال لي القاضي هناك إنها باطلة، وذلك بسبب أن كهنة المعبد سيقولون: أليس لهذا النصيب مالك؟ وأن مالكه يمكن أن يأتي إليك ويقول إن هذه الأشياء ملكي؟! والحقيقة أني سمعتُ أن كاهن سُبِك حصل على تنازل عن هذه الأشياء من قبل عندما كان والده رئيس أهناسيا، ولم يكن لها مالك من قبل.

وعندئذ قال رئيس المعبد الإداري زوبتستف عنخ

CamScanner ـبـ

سأحضر إليك المالك وأجعله يكتب لك تنازلاً، وما حدث أن بتيسي بن أسمتو قد مات في السنة الثالثة عشرة من حكم الملك واح آب رع، وكان ابنه أسمتو على قيد الحياة، فأتى رجل إليه قائلاً: سيأتون إليك ليجعلوك تكتب تنازلاً عن نصيب كاهن آمون من أجل شقيق خلخنس بالقوة.

فذهب أسمتو مع زوجته وأولاده وركبوا مركبًا في النهر، ورحلوا إلى الأشمونين، وعندما حل اليوم التالي سمع الكهنة ورئيس المعبد الإداري ذلك، فذهبوا إلى بيته، واستولوا على كل ما فيه، وهدموا منزله ومكان معبده، وأمروا بإحضار عامل بناء، وأمروه بتشويه اللوحة التي أقامها الجد بتيسي بن يتورو الموجودة على الطوار الحجري للمعبد، ثم اتجهوا نحو اللوحة الأخرى المصنوعة من الجرانيت، وهي التي كانت في المكان المقدس وقالوا: سوف نُشوِّهها. غير أن عامل البناء قال: لا يمكنني تشويهها لأنها قوية، وعامل جرانيت فقط هو الذي يمكنه تشويهها؛ لأن آلاتي ستنزلق عليها. فقال الكاهن: اتركها ونأمل ألا يراها أحد. فلا خوف منها على العموم؛ لأنه عملها قبل أن يقوم بوظيفة

CamScanner

الكاهن، وقبل أن يحصل على التنازل الذي يعطيه الحق في نصيب كاهن آمون، فهي لا تثبت حقه كونه كاهن آمون، ويمكننا أن نقول إنه لم يكن كاهنًا لآمون.

وعلى ذلك تركوا اللوحة وذهبوا إلى تمثالين له من حجر «تمحي»، واحد منهما عند مدخل مقصورة آمون وصورة آمون كانت في حجره، وألقوه في النهر والتمثال الآخر كان في بيت أوزير عند مدخل مقصورة أوزير وصورة أوزير كانت في حجره، وألقوه في النهر.

وسمع أسمتو بن بتيسي كل شيء فعله الكهنة في منزله وأملاكه، وكان يوجد كاتب حسابات تابع للمشرف على الخزانة يُدعى إيمحوتب بن بشنسي أرسله المشرف على الخزانة ليعمل حسابات مدينة الأشمونين، فقال أسمتو بن بتيسي لابنه بتيسي (المتظلم الذي يكتب هذه البردية) إنك تعرف الكتابة يا بني فاذهب واكتب مع إيمحوتب كل ما يطلبه منك، وبعدما يعرفك تستطيع أن تخبره بما حدث لأسرتنا كي يقف معنا ويتحدث في صالحنا عند المشرف على الخزانة. فذهب بتيسي بن أسمتو وكتب مع إيمحوتب وأنهى المأمورية التي أرسل إلى

CamScanner بـ

الأشمونين من أجلها.

وأتيتُ أنا بتيسي بن أسمتو المتظلم إليك يا سيدي الحاكم.. أتيتُ إلى منف مع إيمحوتب.. فجعل الكُتاب يكتبون مسائل الأشمونين وعمل تقرير عنها للمشرف على الخزانة، وذهب إيمحوتب للمشرف على الخزانة بعدما أعجب بعملنا وقال له: لي أخٌ وهو كاهن لآمون الحيبة، وقد ذهب الكهنة إلى بيته وهدموه.

وحكي له كل التفاصيل، فأمر المشرف على الخزانة بكتابة رسالة إلى حاربس كبير أهناسيا قائلاً له: إن الكاتب إيمحوتب الذي تحت إدارتي قد قدم لي احتجاجًا (وسرد له كل ما حدث) وفي الوقت الذي يصل فيه هذا الخطاب إليك يا كبير أهناسيا، عليك أن تذهب إلى الحيبة، وتلقي بالقبض على كل رجل سيقول لك عنه أسمتو.. وأحضرهم لي مكبلين.

وكتب رسالة أخرى بالمضمون نفسه إلى بسمتيك ضابط الجنود في أهناسيا وأمر بشاب ليحمل الرسالتين ويذهب بهما إلى أهناسيا.

وصل الشاب معي أنا بتيسي بن أسمتو إلى أمير أهناسيا وضابط الجنود، ووقفنا أمامهما في بيت

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

السجل وقرأتُ رسائل المشرف على الخزانة، فقال حاربس كبير أهناسيا: بحياة آمون إن زوبستف عنخ المدير الإداري لبيت آمون ليس موجودًا في هذه المقاطعة.. لقد سمعتُ أنه سافر إلى بوتو ليعزي في حور والد خلخنس الذي ذهب إلى آبائه. ثم نادى خادمه وقال له: اذهب إلى الحيبة، وخذ معك خمسين رجلاً، واقبض على كل مَن سيقول عنه بتيسي ولتحضرهم لي مكبلين.

وحينما ذهبنا بالرسالة الثانية إلى كبير الضباط نادى خادمه وقال له: خذ معك رجالاً كثيرين، ودعهم يحضروا الرجال الذين سيقول عنهم أسمتو وأحضروهم لي مكبلين.

وسافرنا إلى الحيبة في سفينتين، ولم نجد زوبستف عنخ هناك، ولكن إخوته الذين وجدوا هناك ألقي القبض عليهم وأُحضروا إلى أهناسيا أمام كبير أهناسيا وضابط الجنود، وقد تضرعوا أمامهم قائلين: بحياة الملك، إننا لم نأخذ متاعًا ملكًا لبتيسي، ولم نهدم بيتًا له، وأن بسمتيك من مبي شقيق خلخنس كاهن آمون هو الذي هدم البيت ومكان المعبد.

فقال كبير أهناسيا: انظر يا بتيسي.. إنهم لم يجدوا

CamScanner ـﺑ

زوبستف عنخ المدير الإداري للمعبد، فما الفائدة إذًا من أخذ هؤلاء إلى المشرف على الخزانة؟ فهناك سوف يقولون الكلام نفسه!

فقلتُ لكبير أهناسيا: هل فعلتُ أنا كل هذا لأجل الدفاع عن مظلمتي.. والنتيجة احتقار قضيتي هنا؟! فقبض كبير أهناسيا على يدي وأخذني جانبًا وقال لي: بحياة أوزير.. إني أحبك أكثر من هؤلاء الكهنة.. وسوف أخبرك بالحقيقة.. فقد حدث أن خُلخنس ذهب ليتحدث مع المشرف على الخزانة لصالح هؤلاء الكهنة ليُفرج عنهم فتسقط قضيتك.. تأمل هذه الرسالة الرقيقة التي أرسلها إليَّ إيمحوتب عنك، من أجلها أنا متحمس لك ولقضيتك.. إنه يقول فيها: إنه أخي فاعتنِ به وبقضيته، أما عن هؤلاء الكهنة فإني سأجعلهم يدفعون لك عشرة دبنات من الفضة، وسأجعلهم يحلفون لك يمينًا أمام الإله حرشف والإله أوزير قائلين إنهم لم يفعلوا شيئًا، وسأجعلهم يدفعون مصاريف هذا الشاب الذي أتى بالرسائل معك من عند المشرف على الخزانة.

لقد أقنعني حاربس شيخ أهناسيا أن أعمل تنازلاً للكهنة، وقال لهم: لقد أقنعتُ بتيسي بأن يتنازل

لكم.. لكن عليكم أن تعطوه عشرين دبنًا من الفضة. لكنهم صاحوا عاليًا قائلين: لا.. لا يمكننا أن نعطيه قطع الفضة. فقلتُ لشيخ أهناسيا: لقد أخذوا عوارض خشبية وأربطة من هذه البيوت التي هدموها ما يعادل عشر دبنات من الفضة، وقد أتلفوا أحجارًا مصنوعة تعادل عشرين دبنًا أخرى.

فقال لهم شيخ أهناسيا: بحياة أوزير.. لقد سمعتُ كل شيء عملتموه له.. ولو أُخِذتم إلى المشرف على الخزانة فإن خمسين دبنًا من الفضة لن تخلصكم، فادفعوا إليه عشرة دبنات وسأجعله يسامحكم في العشرة دبنات الأخرى، وستحلفون يمينًا له بأنكم لم تأخذوا متاعًا له، ولن تعملوا على أخذه، ولم تهدموا بيته ولا مكان معبده.

وفي النهاية تصافح بتيسي مع شيخ أهناسيا.. وحلف الكهنة اليمين أمام الآلهة أوزير وحرشف.. وأعطوا المشرف على الخزانة قطعة فضة وهو الذي كان قد حضر من قبل وعمل التنازل للكهنة. وقال لي شيخ أهناسيا: لا تخاطب قلبك، وإني وبحياة أوزير إذا حضر زوبستف عنخ مدير المعبد الإداري فإني

CamScanner

سأجعله يعطيك ما تبقى لك من ثمن متاعك، إنني أتألم يا بتيسي منذ أن سمعتُ بالأضرار التي عملوها لك، وإني لم أجعل هؤلاء الكهنة يساقون إلى خلخنس المشرف على الخزانة؛ لأنني تخوفت من أن يهمل قضيتك وبذلك تسقط مظلمتك.

صرفني شيخ أهناسيا وضابط الجنود، فذهبتُ إلى الأشمونين، وأحضرتُ والدي أسمتو وأمي وإخوتي وكل أهلي إلى مدينة الحيبة، وجعلنا العمال يصنعون لنا طوبً لبنًا وبنينا بيتنا.. وانتهى العمال من واجهته التي على الشارع وسكنا فيه، ولكن مكان المعبد ما يزال خَرِبًا حتى الآن، وبعد أيام قلائل ذهب خلخنس إلى آبائه، أما أخوه بسمتيك بن من مبي لم يأتِ إلى الحيبة حتى الآن، ولكنه كان يرسل رجالاً ليحضروا له متاعه كل عام حتى عام أربعة وأربعين من عهد أمسيس، وفي السنة الثالثة من عهد الملك قمبيز أتى إلى الحيبة وقابل الكهنة لكنهم تجاهلوه، ولم يصرفوا له أي متاع وذهبوا إلى ابن ينحارو وكتبوا له تنازلاً عن نصيب كاهن آمون. وعلى ذلك، خرجت كهانة آمون إلى اليوم من أسرتنا.. وعدتُ إلى بيتي بلا أمل أعيش أنا وأسرتي

نتذكر ما حدث لأبي وأجدادي في حسرة بعد أن تجاهلنا الكهنة، وكان آخرهم زوبستف عنخ، ولم يعد لنا أي مكانة في المعبد أو في الحيبة.. ومرت السنوات وأصبحتُ رجلاً مسنًّا قريبًا من الشاطئ الآخر، وإذا بِمَن يسألني أنا عن سبب خراب الحيبة، كأنهم أشراف لم يفعلوا أي شيء، وينتظرون مني ألا أذكر أفعالهم الخبيثة؛ لأني إن ذكرتُ غير ذلك وامتدحتهم قضوا حتى على ذِكرى أسرتي ودفنوا جرائمهم إلى الأبد.. ولكني يا سيدي ذكرتُ ما حدث ولم أجبن في نهاية عمري.. وكانت النتيجة ما حدث لي يا سيدي الحاكم من ضربٍ حتى الموت!

****

CamScanner

(٢٢)

الهزيمة

تزوجتُ بـ «**ناميسا**» وأقمنا بيتًا صغيرًا في المنطقة المتسعة الموجودة خلف بيت والدها **تيسن**، كنتُ أقابل المرضى في المكان نفسه، وقد ترعرعتْ شجرة الجميز ونشرت أغصانها. توالت الأحداث بشكل غريب، الجميع كان يعلم أن الضعف يتسرب إلى كل مكان في البلاد، يقلُّ دخل المعابد وينتشر الفساد، أضحى أصحاب الضياع يستعينون بكثير من الحراس لصد أي رجلٍ من الفقراء يحاول الاقتراب من ضيعته، وبعد فترة أقترح عدد من الأثرياء أن ينشئوا مدينة جديدة تكون لهم بعيدًا عن الرعاع.

لم تفارقني كلمات المبجل **بتيسي بن أسمتو** التى كتبها على برديته الخاصة يحكي فيها كيف عانت أسرته صنوف القهر، أكثر ما آلمني فيها ذبح الولدين ابني **نتمحي** ابنة **بتيسي** جد المبجل **بتيسي**! وإني الآن أتذكر صمت **بتيسي** ورفضه الحديث حتى أُجبِرَ على الكتابة، يبدو أنه كان يعلم أن حديثه بعيدًا عن الحاكم، وفي هذه الأيام لن يفيد بقدر ما يضر، وكان محقًّا.. لقد ضُرِبَ حتى كاد يفارق الحياة، وحُرِقَ منزله.. ووصل به الأمر أنه سعى إلى وساطة لتتدخل لدى الكهنة ليقبلوا بالتصالح معه والعفو عنه، لا أعلم ماذا حدث له مؤخرًا، وكيف يعيش هو وأسرته، لقد شُغلنا

CamScanner ـبـ

جميعًا في منف بصعود روح الحاكم **أمسيس** الثاني، ويصعد مكانه الشاب الضعيف **«عنخ كا إن رع»** الذي لم يتوقع أحد أن يعتلي أريكة الحكم، وحمل لقب **بسمتيك الثالث**.

وقع على عاتق هذا الملك الدفاع عن المملكة من الخطر الفارسي الذي بدأ يلوح في نهاية عهد أبيه، وتوقع الجميع الخطر يقترب، والسقوط أكيد؛ لأن هذا الأمير تربى بعيدًا عن السياسة وفنون الحكم؛ لذا كان غير مؤهل لتحمل المسؤولية، في حين أن مصر كانت في حاجة لحاكم متمرس في الحرب والحكم في آن واحد، وبالرغم من كل هذه الظروف الصعبة، فقد حاول **بسمتيك** الثالث أن يفعل شيئًا حينما أمر بدعوة الجنود المرتزقة، واستقدم الحراس من القصور، والملاحين من الأسطول، وذهب بهم جميعًا إلى الميدان ليختار أرض المعركة، وتلك كانت خطة موفقه؛ لأنها كانت ملائمة للدفاع، لكن الفرس كانوا متفوقين بمراحل، فقد كان القواد والجنود من المحنكين في الحرب خصوصًا بعدما خاضوا حروب ليديا وبابل بعكس المصريين الذين لم يدخلوا أي حرب أو معركة.

استمرت المعركة بين المصريين والفرس من طلوع الشمس إلى غروبها، وكان القتال في الجانبين بالحماسة نفسها، ولكن بالطبع تفوق **قمبيز** وجنوده، وعندما شعر المصريون أنهم سوف يُحاصرون، أوقفوا المقاومة وفرَّ **بسمتيك** الثالث إلى **منف**، وتحصن بها بواسطة النيل وسدودها وقلاعها.

CamScanner

يخيم الحزن على المدينة وكل مدن المقاطعات، فقد انتشر خبر الهزيمة وفرار الحاكم وما تبقى من الجنود، وأن **قمبيز** اللعين على أطراف البلاد حتى كان هذا اليوم الغريب، يوم أن انتشرت أخبار تفيد بوصول سفينة حربية أرسلها **قمبيز** إلى منف، وقد انتشرت أحاديث تفيد أن هذه السفينة أتت تحمل اقتراحات السلام بين الطرفين، تناثرت هذه الأخبار من سفينة **قمبيز** الحربية إلى سكان قرية مرت عليها السفينة، ثم تناقلت الأخبار من قرية إلى الأخرى، وهم يتابعون السفينة التي تشق مياه النهر في طريقها إلى **منف**.

لكن ما حدث في **منف** كان رهيبًا، فقد نظم الحاكم ورجاله حفل استقبال متوحش لهذه السفينة، التي ما إن وصلت إلى **منف** حتى صعد إليها جنود الحاكم **بسمتيك** وذبحوا رسول **قمبيز** والبحارة المرافقين له، وقطَّعوا أجسادهم ومثَّلوا بجثثهم في طرقات المدينة، وانضم إليهم الأهالي والصبية.. صبَّ الجميع غضبه ونيران الهزيمة المشتعلة بداخلهم على هذا العدد القليل من طاقم السفينة.

يعلم قمبيز بهذه التفاصيل، غابت الشمس، غطت غيوم سوداء **منف** كلها مع اقتراب **قمبيز** وجنوده، كان يجتاح كل مدينة في طريقه، لم تستسلم وتقدم فروض الولاء والطاعة حتى وصل إلى **منف**.. يهاجمها ويدخلها بعد معركة خاطفة كنا خلالها نختبئ داخل البيوت والرعب يسيطر علينا، لا نعلم كيف هو الغد.

وكان الغد أبشع من أن يتخيله عقل.. فقد انتهت المعركة بانتصار **قمبيز** واحتلال **منف** وأسر **بسمتيك** وأسرته (ابنه وابنته و رجاله المقربين)، ونعلم أن **قمبيز** احتفظ بحق عقاب **بسمتيك** لنفسه بالرغم من أنه كلف لجنة من قضاته بإصدار الحكم لعقاب المصريين وقادتهم، وأُعلِن الحكم في اليوم التالي بأن كل بحار من رجال **قمبيز** قد اغتيل يدفع عشرة نبلاء من رجال بسمتيك حياتهم ثمنًا لحياته، كانت كارثة حقيقية طالت الحاكم والنبلاء.. حياة كل بحار من بحارة قمبيز تقابل حياة عشرة من النبلاء؟! فكان بعض الأثرياء يفرون بحياتهم، ويرتدون ملابس الفقراء، ويسيرون في الشوارع كالمتسولين!

وذات يوم يرسل **قمبيز** رجاله ليأتوا بالحاكم **بسمتيك** الأسير ويعامله باحتقار، وزيادة في إذلاله أتى بابنته وألبسها ملابس الإماء وجعلها بينهم، ووضع بين يديها إناء به ماء، وطلب منها أن تمر على الأسرى لتسقيهم، ومن بينهم أبوها الحاكم الأسير.. الذي يتأملها وتعلو وجهه علامات حزن وأسى، ولكنه لم يذرف الدمع، وأشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى، وبعد قليل تقع عيناه على طابور طويل من ألفي رجل مصريين، يتقدمهم ابنه، كأسرى مساقين للقتل، ويبدو أن **قمبيز** تعمد أن تكون الضربات متتالية على رأس **بسمتيك** الذي ظل متماسكًا حتى بعد أن شاهد ابنه يُساق إلى القتل.

ثم أرسل **رجال قمبيز** أحد النبلاء، وكان مقربًا جدًا من **بسمتيك،** ويرافقه على مائدة طعامه، ليمر بثوب التسول من أمام بسمتيك.. هنا

لم يستطع **بسمتيك** التماسك فأجهش بالبكاء، فأخبروا **قمبيز** بما حدث، فأرسل إلى **بسمتيك** رسولًا ليقول له: «يقول لك سيدك قمبيز لم تحزن ولم تُجرِ الدمع حينما رأيت ابنتك في ملابس الأَمَة وابنك يُساق إلى القتل.. ولكنك حزنت وبكيت حينما شاهدتَ هذا المتسول؟!» بعد فترة صمت أجابه بسمتيك، ولم يرفع عينيه عن أصابعه التي تعبث في لا شيء، وقال: «أخبر ابن قورش.. أن مصائب بيتي كبيرة جدًا حتى لا أستطيع البكاء لأجلها، البكاء لا يعبر عن آلامي.. وأما بخصوص ما أصاب صديقي هذا في أول شيخوخته من وقوعه في الفقر بعد أن كان كثير الأملاك والخيرات.. فقد ظهر لي أنه أمر يستوجب البكاء»، رقَّ قلب **قمبيز** لهذه الإجابة، وأمر رجاله أن يحضروا ابن **بسمتيك** قبل قتله، ولكنه كان أول من نُفِّذَ فيه حكم القتل، فطلب **قمبيز** أن يأتوا بـــ«**بسمتيك**» إليه ليقيم عنده سائر أيامه وقد عقد العزم على ألا يُلحق به أذى مثلما كان يفعل والده قورش مع الملوك، فيعاملهم معاملة حسنة، لكن **بسمتيك** لم يأمن لهذه المعاملة، وقرر أن يتوجه إلى الناس بأفكاره للتمرد على هذا الحاكم الغريب، واستمر في ذلك مدة من الزمن، حتى انكشف أمره، يغضب **قمبيز**، ويأمر أن يُقدِّموا له دم ثور ليشربه.. ويموت بسمتيك بعد شُرب دم الثور.

يصلني خبرُ مقتل **بسمتيك**، وأنه لا يوجد حاكم بعده يحكم البلاد، ويتربع على العرش هذا الرجل الغريب المدعو **قمبيز**، وقتها فقدتُ الأمل الذي كنتُ أعيش به، فلن تتحول الدفة ويخرج الحاكم ورجاله ليفتكوا بهذا الغازي ورجاله، وتعود **منف** وباقي البلاد إلينا لنعيش الهدوء والأمان الذي كنا نعيشه من قبل.

CamScanner

يظهر كاهن في المدينة يُقال إنه من أبناء الشعب، ولكنه موالٍ لقمبيز ورجاله، حتى إنه يدعو الجميع إلى إظهار الولاء للحاكم الجديد ابن الإله.. وصلني خبره، فشعرتُ بغضب شديد، وأحسب أن غيري الكثير كان غاضبًا على هذا الكاهن، ويبدو أنه كان يدرك ذلك؛ لأنه لم يكن يغادر المعبد إلا وقت ذهابه إلى الحاكم.. حتى سمعنا مَن ينادي بأن أحد قادة الحاكم سوف يتجول في المدينة بصحبة كبير الكهنة الجديد.

يبدأ الموكب في جولته وتنتشر الأخبار بأن رجال القائد وحرسه يوزعون الطعام والهدايا على الناس في الطرقات، حتى يقترب الموكب، أتطلع إلى رجاله عبر فتحة ضيقة في النافذة.. لا أرغب في مقابلة هؤلاء القتلة.. صُعِقتُ وأنا أشاهد الكاهن الأكبر الذي يبسط يديه في فخر وعلى وجهه ابتسامة كبيرة.. إنه الكاهن الهارب **زوبستف عنخ!**

يحتويني حزن كبير.. بعض الأمور لا يُجدي معها التفكير.. تجاهلها يريح النفس.. كيف فعل زوبستف عنخ ذلك؟ سؤال مقيت، والعثور على إجابة له أكثر مقتًا، ورغم جهد ناميسا في التخفيف عني فإن الجميع كان في يأس.. الغضب عام.. والحياة تنسحب من بين أيدينا.

كنتُ لا أغادر البيت، يمضي النهار ومن خلفه الليل.. ويمضي اليوم ومن بعده الأسابيع ونحن لا نتحرك.. ساءت الأحوال، وأصبح الرجل الذي يمتلك رغيف خبز يقال عنه إنه من الأثرياء، فقد هُجِرت الأرض، وغادر العمال، وهجر المدينة كل مَن استطاع هجرها، ولم يتبق غير النساء وأطفالهن

CamScanner ﺑ ﺎ

والمسنين من الرجال، أبقتني ناميسا على أمل تبدل الأيام، وعليَّ الوجود لعلاج المرضى الذين يحتاجون إليّ أكثر من أي وقت مضى، فهل أتركهم للمرض يفتك بهم مع هذا الفقر والخراب الذي ساد البلاد؟!

بعد نهار طويل من العمل الشاق أتمدد في فراشي لأذهب في نوم عميق تتداخل فيه الأحلام. فلا أستطيع الإمساك بأي منها حتى تمتدّ يد توقظني في هدوء.

أفتح عينيّ وأتأمل المكان في دهشة.. إنها أمي توقظني، وتخبرني أنني تأخرت عن جلسة العلاج الطبيعي.

بعد انتهاء جلسة العلاج في هذا اليوم، لاحظت مدى التقدم الذي وصلتُ إليه، يُثني فني العلاج الطبيعي على حركتي، بل أخبرني بأنني أستطيع الخروج من المنزل إن أردت، بالفعل أريد الخروج.. أريد العودة إلى حياتي.. إلى الدراسة.. إلى الموضوع الذي اخترته لرسالة الدكتوراه: **«العمال المستعبدون في مصر القديمة»**. أظن أني سوف أختار موضوع آخر لرسالتي.. بعد تفكير عميق يستقر تفكيري على موضوع **«الفساد في مصر القديمة»**. كنتُ أعلم أن الأستاذ المشرف على الرسالة سوف يعترض على هذا الاسم، التاريخ كتبه العظماء والمنتصرون، ولم يخطه المستعبد والفقير والمظلوم، هذا ما تعودناه، الفاسد لن يكتب عن فساده، تزوير الوقائع وتجميل الصورة ما سيتركه كل فرد، العمال ينحتون الصخور وينقشون عليها ما يُمليه عليهم السادة.. أصحاب الضيعات.. النبلاء كما

CamScanner ـبـ

أطلقوا على أنفسهم.. كهنة المعابد.. الذين فعلوا كل هذا بأسرة **بتيسي**.. فاسدون.. لقد نهبوا وضربوا وذبحوا وحرقوا وقدموا الرشوة باسم الآلهة. لا بد أن أفكر في عنوان لا يحتوي على كلمة «الفساد»، ولكن في داخل الرسالة سيكون له مساحة كبيرة.

في اليوم التالي توجهتُ وأنا أحمل ملفًّا به مجموعة أوراق تتضمن الخطوط الرئيسية في رسالتي العلمية الجديدة، موضوعها الرئيسي **مظلمة بتيسي**، سيقتنع المشرف على الرسالة بهذا الموضوع الجديد.. سوف أبحث عن كل التفاصيل وأدرسها دراسة وافية، هي ليست مجرد قصة يحكيها رجل مسن، لقد حملتْ تفاصيل كثيرة عن حياة الأجداد.. كيف عاشوا، وكيف كانوا يفكرون، والأهم من كل هذا فساد الكهنة. و...

كنتُ أسير داخل مبنى الكلية في طريقي إلى مكتب الأستاذ المشرف على الرسالة وأنا غارق في تفكيري لا أرى تحت قدميَّ حينما اصطدمتُ بأحدهم.. توقفتُ وأنا أعتذر.. فقدتُ توازني مرة أخرى.. أتأمل الشخص الذي يقف أمامي يتأملني.. تأخذني المفاجأة حتى إنني شهقتُ ويسقط الملف من يدي.. إنها هي.. نعم هي **ناميسا.. ناميسا** في ملابس حديثة، فتاة رقيقة تشبهها تمامًا.. ترتدي بلوزة زرقاء وبنطلون جينز أوف وايت، وشعرها الفاحم مسدل على جانبي وجهها في انسياب ويسر، كانت تتأمل نظراتي نحوها في دهشة، بينما كنتُ أهمس باسمها «**ناميسا**».. اعتذرتُ لها وأنا أنحني كي ألملمُ أوراقي، فأشعر بألم شديد.. تسبقني لتجمع الأوراق

ا بـ CamScanner

حينما لاحظت تألمي وأنا أنحني.. تمد يدها بالأوراق وتقول: «آسفة.. كنتُ شاردة»، قلتُ بصوت أعلى حتى تسمعني: **«ناميسا»**.. فتعجبت لحظة ثم ضحكت، وقالت: «نعم؟! هل تعرفني؟!».

تملكتني الدهشة، وارتبكتُ وسؤالها يتردد صداه بداخلي، أكرر سؤالي وتتزايد دهشتها وهي تقول: «لا.. لستُ أنا مَن تقول اسمها.. ثم ما هذا الاسم الغريب؟!» اعتذرتُ وأنا أشير ناحية الأمام كأني أرغب في إنهاء الموقف.. لستُ في حالة تسمح بالدخول في تفاصيل غريبة لم أثبتها علميًا بعد، لكنها أرادتْ أن تستكمل الحديث فيما يبدو فقالت: «أنا **نور**.. وأنا هنا لتسجيل رسالة الماجستير»، وأشارت في اتجاه مكتب الأستاذ المشرف على رسالتي.. ابتسمتُ وأنا أقول: «طريقنا واحد».. وأنا أدور على عقبي، وقبل أن أخطو الخطوة التالية إذا بي أترنح.. أشعر بدوار رهيب.. المكان يدور من حولي في سرعة رهيبة.. أفقد توازني، أبحثُ عن جدار أستند إليه فلا أجد.. تضرب يدي الهواء بعد أن هرب الجدار المجاور في رحلة دورانه الرهيبة.. أسقط أرضًا.. أسمع صوت احتكاك رأسي بالجدار، ثم الارتطام بالأرض يختلط بصوت فتاة تصرخ.. تهتف في فزع.. لكن.. هل تهتف باسمي أم تستنجد بأحد آخر؟! تنادي اسمًا آخر.. تختلط الكلمات والمناظر.. تتلاشى.. يسيطر اللون الأبيض اللانهائي.

****

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

(٢٣)

العودة

كانت تلك اليد القوية التي تطبق على رقبتي في حجم يد عملاق من عماليق قصص الخيال، تكاد تهرس عظامي وأنا أصارع من أجل التنفس.. في هذه المرة أدركتُ قيمة الهواء الذي نتنفسه في بساطة ويسر بلا عناء.. أدركتُ أن هذا الشيء غير المرئي هو سر حياتنا.. الهواء المتاح عبر الفضاء الكوني لو حُجِبَ دقيقتين لفارق الإنسان المتجبر في الأرض الحياة! حاولتُ بكل ما أملك من قوة أن أنزع تلك اليد العملاقة من حول رقبتي لكني فشلتُ.. تراخت قبضتيَّ وتأرجحت ساقيَّ في الهواء وأنا أرتفع في تلك اليد مثل دمية. أتذكر في جزء من الثانية أنني قاومت تلك اليد الشرسة من قبل وخرجت من بين أصابعها وعدتُ إلى الوجود.. لكني الآن عجزتُ تمامًا عن المقاومة.. استسلمتُ الاستسلام الأخير، وقررتُ ألا أتشبث بتلك الحياة.. فكم من ويلات مررتُ بها، كم من ظلم شاهدتُ، كم من ذل أدمى قلبي وأنا أشاهد الأنقياء يذلون وينعم الأشقياء، تلوت تعويذة الخلاص آلاف المرات ولم تُجدِ نفعًا، فلماذا أتمسك بتفاصيل عالم يلفظني منذ لحظتي الأولى؟!

CamScanner

ينتفض جسدي في الهواء.. هي بلا شك لحظة خروج الروح.. أتألم وأصرخ فلا يخرج صوتي، أشهق فلا أجد الهواء.. قلبي في صدري ينتفض.. يكاد ينفجر.. فجأة أسقط على الأرض وأنا أسحب كميات لا نهائية من الهواء إلى صدري، أزفر الهواء ساخنًا قبل أن أسحب غيره مرات ومرات.. أفتح عيني بصعوبة.. يبدو أنها هي الأخرى تعجز عن العمل إن انقطع عنها الهواء.. بدأتُ أحرك أطراف أصابعي.. ثقيلة كانت وكأن صخورًا معلقة بها، بعد عدة محاولات تحركت أصابعي في بطء لم أكن أستطيعه من قبل.. تأملتُ الوجود حولي لعلي أرى ما يحتويه العالم الآخر، أو لعلي أرى صاحب تلك اليد العملاقة.. لم أجد غير فتاة تجلس إلى جواري.. فتاة عشرينية ترتدي ثيابًا رثة ممزقة.. مَن هذه الفتاة؟! أبحث عن أي معالم أخرى أتعرف منها على هذا المكان.. فإذا بي ملقًى في كوخ من الخوص والأعشاب وبقايا أخشاب وقطع من صفيح صدئ.

تُرى.. أهي ناميسا؟!

لا.. ليست هي.. إنها فتاة نحيفة، وعيناها غائرتان بشكل مخيف، يبدو أنها مريضة أو لا تتناول الطعام و لا تشرب الماء ولا تتنفس الهواء.. هي كمومياء دبت فيها الحياة، تمد أصابعها النحيفة بأظفارها المتسخة نحوي بكوب.. ليس كوبًا، بل علبة من الصفيح تلك التي تستخدم في حفظ الأطعمة.. ترفعها إلى فمي.. أترك ما فيها ينساب إلى جوفي.. إنه ماء.. أشعر بالدماء تجري في جسدي.. ما زلتُ أتساءل: أين أنا؟

أهمسُ بتلك الكلمات ويدي تتحسس الفراش أسفل مني.. المكان يبدو كأنه قد تخلّف عن حروب طويلة.. لا تناسق بين مكوناته.. منضدة خشبية مكسورة في أكثر من مكان حتى إن إحدى أرجلها مكسورة ومسنودة بعدة طوبات وكسر بلاط وفوق المنضدة قطع إلكترونية موصول بعضها ببعض مع شاشة، وفي النهاية كأن تلك التوصيلات عبارة عن جهاز كمبيوتر متكامل صنعته يد خبير من بقايا عدة أجهزة، من السقف تتدلى مروحة كانت فيما يبدو مروحة ستاند، في جانب الغرفة ثلاجة.. أقصد بقايا ثلاجة صدئة، وإلى جوارها بوتجاز.. السرير أسفل مني مصنوع من الحديد.. أتأمله جيدًا.. هو سرير من تلك الأسرة التي تنتشر في المستشفيات.. كانت تلك الفتاة تنظر نحوي وعلى ملامحها مزيج من سعادة وحزن، تأملتُها لحظات قبل أن أجلس في مكاني وأنا أشعر بأني أعود إلى الوجود، أسألها في هدوء وأنا أتفحص الغرفة وكل شيء حولي «أين أنا؟! ومَن أنتِ؟!»

ترتد إلى الخلف بجزء جسدها العلوي، بينما لا تتحرك مؤخرتها من مكانها، وعلى وجهها تظهر دهشة لا أعلم سببها، وكأنها تعاني وهي تستخرج الكلمات من جوفها تقول: «ماذا دهاك يا إسماعيل؟!».

أشهق حينما أستمع إلى هذا الاسم.. ترتد أكثر مفزوعة على إثر شهقتي الأخيرة، كأنها شاهدت كائنًا أسطوريًا، بدأ الرعب يظهر على وجهها وينتفض جسدها قبل أن تقول: «إسماعيل.. ماذا حدث لك بعد الحادث؟!»

CamScanner ـ

أنتفض وأنا أتذكر ذلك الحادث الأليم.. تلك الضربة الرهيبة التي تعرضتُ لها في استراحة فاروق من رجال لصّ الآثار توفيق زغلول السياسي ورجل الأعمال الشهير.. ولكني نُقلت إلى المستشفى، وعُولجتُ فترات طويلة كنتُ أغرق فيها في قلب عالمِ اللاوعي كما أخبرني الأطباء، وكثيراً ما تجولت في قلب الماضي.. المبجل بتيسي بن أسمتو، ناميسا.. زوبستف عنخ.. خرجتُ من المستشفى، وعدتُ إلى منزلي في صحبة والديَّ، ومارستُ جلسات العلاج الطبيعي حتى خرجتُ لأمارس تفاصيل حياتي و..

تهزني الفتاة من كتفي صارخة: «كنتُ أعدُّ الأيام حتى تفيق يا إسماعيل.. أخبرني.. ماذا حدث لك في المقاطعة التاسعة؟!» أبعدتُ يديها عن كتفي في حركة مباغتة وكأني أنفض عن نفسي كل تفاصيل المكان وأنا أهتف: «أي إسماعيل هذا.. وأي مقاطعة؟! أنا أيمن.. أيمن فاروق! ثم.. مَن أنتِ وما هذا المكان؟!».

تتكور الفتاة في جانب وهي تتأملني في فزع ثم تنفجر باكية، تنهمر دموعها بشكل غريب.. أتأمل جسدها النحيف.. من أين تأتي بكل هذه الدموع.. بدأتْ بعد لحظات تُردد كلمات غريبة: «كنتُ أعلم أن هذا اليوم سيأتي.. سوف تهجرني يا إسماعيل.. تهجرني بعد أن أفنيتُ عمري تحت قدميك!» ثم تغيب في نشيج متواصل وقد طغى بياض عينيها بشكل مرعب.. تتسارع أنفاسها وتلقي ذراعيها إلى جوارها.. كانت تغيب عن الوعي بشكل تدريجي.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

أقف كي ألحق بها، لكني أجد ساقيَّ رخوتين لا تقويان على حملي، يبدو أني ألازم هذا الفراش منذ وقت طويل.. أشعر بدوار كأن جدران الحجرة تتحرك في حركة دائرية، تتزايد سرعتها دورة بعد دورة.. أتمايل.. أبحث عن أي شيء أمسك به حتى لا أسقط أرضًا.. بصعوبة بالغة أصل إلى المقعد الصغير الموضوع إلى جوار منضدة الكمبيوتر.. أجلس وأنا ألهث.. أتأمل الفتاة التي غابت تمامًا عن الوعي، يبدو أنها تعاني أحد أمراض القلب.. ألتفتُ كي أتأمل بعض تفاصيل الغرفة، يدي تعبث في لا شيء.. تصطدم بقطعة أمامي فإذا هي ماوس الكمبيوتر.. تُضاء شاشته على صفحة غريبة على شبكة الإنترنت.. أتعجب.. كيف تم تجميع هذه الخردة؟ وكيف تعمل في هذا المكان الغريب؟!

أُحرِّك الماوس لفتح خانة التصفح على الإنترنت لأبحث عن تلك «المقاطعة التاسعة» التي ذكرتها هذه الفتاة.. فجأة يلفت نظري الساعة والتاريخ أسفل يمين الشاشة.. أشهق وأنا أرتد فزعًا إلى الخلف.. اليوم هو الرابع عشر من أغسطس من عام ٢٠٩٩ ميلادية؟!

(تمت)

CamScanner ـبـ

المؤلف

رضا شليمان

كاتب مصري، وُلد عام ١٩٧٢حصل على ليسانس الآداب قسم الإعلام جامعة الزقازيق، يعمل حاليًا مخرجًا بالإذاعة المصرية، شبكة البرنامج العام، له العديد من المسلسلات والبرامج الدرامية الإذاعية تأليفًا وإخراجًا، أشهرها أوراق البردي، قطوف الأدب من كلام العرب، همسة عتاب. محاضر مادة فن الكتابة والإخراج الإذاعي بكليات الإعلام وأقسامها. تنشر مقالاته في الأهرام المسائي، ومجلة أخبار النجوم، ومجلة عالم الكتاب. حصل على العديد من الجوائز الأدبية والفنية، منها: جائزة كتاب اليوم الأدبي، جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة، جائزة زايد الذهبية للإبداع، جائزة الإبداع الذهبية في مهرجان تونس للإعلام العربي، جائزة (الإذاعيون يبدعون).

CamScanner

صدر له:

- المسرحية الكوميدية: آدم تو.
- فن الهبدلوجي (أدب ساخر).

روايات:

- عمدة عزبة المغفلين.
- مطلب كفر الغلابة.
- ماريونت.
- وحي العشق.
- ظلال الموتى.
- شبه عارية.
- ما قبل اليوم الأخير.
- المُدنَّس.
- أسيرة العشق.
- استراحة فاروق.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner